ملحمة السَّراسْوة

رواية

التكوين

أحمد صبري أبو الفتوح

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

أبو الفتوح، أحمد صبري.
ملحمة المرايسوة "التكوين": رواية/ أحمد صبري أبو الفتوح.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٢

ص، سم.

تدمك: ١ ١٤٨ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١ – القصص العربية

أ– العنوان.

٨١٣

رقم الإيداع/ ٢١٠٨٣/ ٢٠١١

أسرار تدركها الجياد

في طريق عودته من زيارة قبر جدته الكبرى في جبانة الحجايزة داهم أحمد المرسي شعور بالخطر، وما أن خرج من زمام الحجايزة ودخل في نطاق كفر سعد حتى شعر بوحشة ورهبة، وبصورة غامضة أدرك أن الطريق غير ما كانت عليه في رحلة الذهاب.

الشمس وهي في طريقها إلى الغروب خلف شبراسندى تلكأت برهة فوق الأفق الغربي وصبغته بلون الدم، في مثل هذا الوقت يكون الناس في طريقهم للعودة من الغيطان، يسوقون بهائمهم أو يسحبونها، وتكون الجلبة الآتية من القرى القريبة أوضح ما تكون، هي الفرصة الأخيرة قبل أن يطبق الظلام وتنغلق الأبواب على الأحياء.

لكن الطريق وعلى غير العادة خالية، كما لو أن الغيطان لم تكن وهو في طريق الذهاب غاصة بالناس والبهائم والقطعان، وكما لو أن القرى القريبة لم تكن تمارس طقوسها اليومية لمقدم الأصيل، وهي الطقوس التي تتسارع وتتسارع حتى تصل إلى حد اللهوجة فيما النهار يوشك على السقوط في بحيرة الليل.

شيء ما أوحى إليه بأن ما يجرى له صلة بعدم تعامله مع التهديد الذى أطلقه جاره الأعرابى عبد الله الجياصى بالجدية الواجبة، وأنه كان يجب عليه أن يحذر أشد الحذر من غضبته وقدرته على الفتك بخصومه، وكان الأعرابى عندما بلغه خبر حصول أحمد على الأبعدية المجاورة لأراضى عهدته -وكان طامعا فى أخذها لنفسه- قد أقسم ليرمِّلَن زوجاته وليوقدن على عظام أرامله البائسات نارا حامية، وليستعبدن طفليه الرضيعين، كل ذلك قبل أن يطل على الدنيا قمر جديد، لكن صداقات أحمد مع أعيان المنطقة جعلته -برغم حداثة عهده بالمكان والناس- لا يتعامل مع التهديد بما ينبغى، وفضل أن يظهر أمام أهل القرى المحيطة بمظهر الواثق من أن كلمات الأعرابى ليست إلا دخانا تبدد فى الهواء، و لم يقابل تحذيرات أمه وجدته الأم الخبيرة وزوجاته وعماله وأصدقائه بالاهتمام الواجب.

كان معتليا ظهر مهرة صهباء اشتراها من صحراء بلبيس بمعاونة صديقيه الحاج سويلم عمدة الحجايزة والتاجر الطوخى صهره الجديد، أحس بأن الطريق تبدو غير طبيعية، وقبل أن يفكر فيما يجب أن يفعل فوجئ بجفول مهرته، وكاد يسقط من فوقها، لكنها رفعت رأسها وأرهفت أذنيها ودقت بقوائمها الأرض، ثم أخذت ملء رئتيها من هواء الطريق قبل أن تنطلق كالسهم.

حاول أن يوقفها، فلقد كان منزعجا بشدة، وغاضبا من جفولها واندفاعها، لكنه لم يتخط المحاولة، إذ سرعان ما غمره يقين بأن وراء ما يحدث سرا لا يدركه، ووجد نفسه قابضا على مقدمة السرج ومتشبثا بالركابين ومنثنيا للأمام، من ورائه كانت أطراف عباءته ترفرف فى الهواء،

وقبل أن يمر بمحاذاة مضارب الأعرابى انطلقت فى وجهه عشرات البنادق، آتية من مكان قريب، لا يتجاوز بضع أقصاب. الطلقات تصفر فى أذنيه فيما الصهباء طائرة لا تلامس أقدامها الأرض، وبعد أن كانت الطلقات تواجهه صارت تأتيه من جانبه الأيسر، وسرعان ما لاحقته من الخلف، لكنها طاشت.

أصوات انفجار البارود أخرجت الناس فى القرى المحيطة، اعتلوا أسطح الدور ليشاهدوا المنظر الذى ربما لا يتكرر فى حيواتهم مرة ثانية، وبرغم ابتعاده عن مرمى الطلقات ظلت الصهباء تسابق الريح، فى طريقها مرت بأمه مريم وجدته الأم الخبيرة ومعهما شام زوجته الجديدة، وبزوجتيه حورية وسرية وعلى كتفيهما الصغيران موسى وسيد احمد، و لم تتوقف إلا عند أعتاب الدار.

دقات قلبه طغت على أنفاس الصهباء، هبط إلى الأرض، مريم أول من وصلت إليه، ومن خلفها تواترن، شاحبات شحوب الموت، قلبه يدق بأسرع من خطوهن، وقبل أن يتفوه بكلمة واحدة كانت أمه تفتش فى جسده، اطمأنت إلى سلامته وأخذته فى حضنها، و لم تجد زوجاته إلا أجزاء من ملابسه فأمسكن بها متلهفات، وقبل أن تصل إليه يد جدته الأم الخبيرة سقطت الصهباء على قائميها الأماميين.

الدماء تنزف بغزارة من جرحين عميقين فى كتفها الأيسر ومقدم بطنها، أراد أن يطرحها أرضا فقاومت بشدة، ولما نجح حاولت أن تنهض من جديد، لكنه تمكن منها، استسلمت ومدت راسها وحمحمت، كانت تشكو ألمها، شق جلبابه وراح يدسه فى الجرحين محاولا إيقاف النزيف،

لكن الدماء كانت تتفجر من جديد. استمرت محاولاته دقائق، ولكنها سرعان ما استكانت، ومن عينيها الزائغتين أسقطت وهى تسلم الروح بلورتين انحدرتا فوق الصدغين المرتجفين، ثم انسحب النور من عينيها إلى الأبد.

أتراني وأنا أقرأ القرآن على روح الصهباء القديمة كنت على حق؟!.

فلطالما قرأت وأنا طفل كثيرا مما أحفظه من آيات وأدعية، وهبتها إلى روح الصهباء، التى افتدت ذات أصيل بعيد جدى الأكبر أحمد الثانى.

عبرت القصة الحزينة قرنا وربع القرن من الزمان حتى وصلت إلى، لكنها لم تفقد شيئا من زخمها ورهافتها، حتى أننى وأنا اتكور فوق الكروية(*) إلى جوار جدتى وأنصت بكل جوارحى للحكاية الحزينة كنت عاجزا عن أن أمنع دموعى من السقوط، فكانت تنحدر من الجفنين وتتكوم هناك عند بداية الوجنتين، وعندما تصير قوية بالقدر الكافى تصعد الوجنتين وتنحدر بسرعة على جانبى الفم، وربما تلتقى أسفل الذقن الصغيرة أو تتسرب إلى زاويتى الفم، فأتذوق طعمها المالح وأشعر ببعض العزاء.

كبرت وصرت شابا، وجمعتنى الظروف بواحد ممن أثق فى قدرتهم على التمعن فى الأمور، وسألته عن ذلك الأمر، وحتى لا يظن بى الظنون رأيت أن يبدو سؤالى وكأنه على سبيل المزاح، لكنه أجابنى:

– إنها من مخلوقات الله، ولها من صلواتنا ما نخلص النية فيه.

(*) سرير خشبى بدائى فسيح، لها حواجز خشبية مرتفعة من جهات ثلاث، تستخدم فى الجلوس عند حافتها كأنها كنبة بلدية إلى جانب استخدامها فى النوم.

ليال طويلة كنت أقضيها وأنا أضمد جراح الصهباء، أحلام ممتدة لا تنقطع، كأن أراني جدى الأكبر أحمد السرسي، وأنا أشق ملابسي لأكتم جرح الصهباء فترفض ملابسي أن تتمزق، وفي مرات عديدة كنت أفقد القدرة على تحريك يدى، وسرعان ما أفقد الحركة في كل أجزاء جسدى، وبعد برهة أستيقظ على شلل رهيب يجعلني غير قادر حتى على مجرد تحريك إصبع واحد من أصابعي، وعاجزا عن ملء رئتي بالشهيق.

في مرات عديدة كنت أستيقظ على أصوات أخواتي وهن يتسامرن إلى جوارى، وأتلهف على أن تهزنى إحداهن لينفك أسرى، وإذ يصيبني اليأس وأفقد القدرة على التعمق في التنفس إلى الحد الذى يعيدنى إلى الحياة أجاهد لأدفع اليأس عنى، ومن جديد أحاول تحريك قدمَى، وأدفعهما ببطء شديد إلى السقوط من فوق حافة السرير، ساحبتين جسدى كله، فتعيدنى السقطة إلى الحياة، وأنهض وأنا لا أصدق أننى تخلصت من الكابوس الرهيب، حيث يتفجر الدم من جروح الصهباء وتعجز أعضائى عن الفعل، أى فعل، وأبدأ من خلال ضحكات أخواتي في الصراخ في وجوههن، فهن لم يستجبن لتوسلاتي المشلولة ومعاونتي لأقوم بحركة إرادية سريعة تعيدنى إلى الحياة.

ما الذى شعر به أحمد السرسي وهو يحاول دون جدوى إنقاذ مهرته؟!، وكيف استطاع أن يعبر تلك المحنة الكبيرة؟!، محنة أن تكون مدينا لأحد ثم يرحل حتى من قبل أن تمتن لما فعله من أجلك؟!، كل ذلك كان ينعكس في أحلامي وأنا طفل، ثم وأنا شاب في مقتبل سنوات الرجولة، ويوم أن اهتديت إلى قرارى بكتابة حكايات أسرتي تبدل الوضع، فبدلا من أن أرى

ذلك التاريخ منبثقا وعلى نحو أشوه أثناء نومى، صرت أراه وأنا مفتوح العينين، وأيضا وأنا مغمض العينين، ليس بشكل أشوه هذه المرة، ولكن فى صورة أحداث حقيقية تجرى أمام عينى، لا ينقصنى إلا أن أمد قدمى فأصير فى قلبها.

رفض أحمد السرسى أن يسحب عماله جثة الصهباء ويذهبوا بها إلى تل الذئاب، وصمم على دفنها فى مقبرة، و لم تكن هى المقبرة الأولى لحيوان من ذلك النوع فى تاريخ الأسرة.

قبل أن تُدْفَن الصهباء امتلأت الدار بالناس، شاع الخبر فجاءوا من كل صوب، من الحجايزة وكفر سعد وغزالة والمقاطعة، ومن شبراسندى وبرقين، وحتى من أبى داوود وكفر غنام، ولما لم يأت أحد من كفر عزام حيث يستقر عمّا أحمد فى غيطانها أرسلت أمهما الأم الخبيرة سرا فى طلبهما، فهما ليس فقط عما حفيدها الأثير، ولكنهما صهراه أيضا، لكن الرسول أتى بأخبار جعلت من مناسبة الحزن والغضب مناسبتين.

قال إنه لم يجد مضاربهم هناك، ولما توجه إلى دار الشيخ عزام أخبروه بأنهم استيقظوا ذات صباح فلم يجدوهم هناك، مضوا دون أن يخبروا بعزمهم على الرحيل، ولا أحد يعرف وجهتهم، فهمت الأم الخبيرة أن ابنيها نفذا تهديدهما، ما أن علما بخبر حصول ابن أخيهم على الأبعدية حتى خلعا أوتادهما من المكان الذى آواهما عامين أو يزيد ورحلا بنية الاختفاء.

امتحان شديد القسوة واجهه أحمد السرسى، فإما يجتازه وتترسخ قدماه فى المكان، وإما يفشل فيهلك قبل أن يتمكن من خلع أوتاده هو

الآخر والرحيل إلى غير رجعة، ينظر إلى الذين يتقاطرون على داره من كل صوب ويفترشون الأرض فى جرنه فيشعر بالطمأنينة، وبأنه قادر على مواجهة الأعرابى حتى آخر الشوط، ولكنه سرعان ما يتخيل أطلال مضارب عميه فى غيطان كفر عزام فيفت الأمر فى عضده، فالآن، والآن فقط، يشعر بأنه وزوجاته وولديه الرضيعين وأرامله ليسوا إلا ضعفا مركبا بعددهم، فوجود عميه غير بعيد منه كان بالنسبة له عامل أمان، لم يشعر بقوته إلا عندما رحلوا، وبرغم أنه لوح عقب وفات الجدة الكبرى بإمكانية إشراك عميه فى وراثة نصيبها من الأبعدية، إلا أنهما لم يأبها للأمر، فتحدث مع الأم الخبيرة وعرض أن يعطيهما ما يريدون، بالإضافة إلى نصف نصيب الجدة الكبرى.

التعبير الذى عكسته ملامح الأم الخبيرة وهى تتلقى العرض بإشراك ولديها فى ميراث الجدة الكبرى كان منطبعا فى ذاكرته، وسيظل يتذكره ويتصرف على مقتضاه إلى أن توافيه المنية، ففى ذلك الأصيل البعيد كان يجلس إلى جوارها ويتباحث معها بصوت غير مسموع، والموضوع يدور حول كيفية لم شمل الأسرة من جديد، ولما قدم عرضه صمتت قليلا قبل أن تطلب لولديها مائة فدان، لاتقل فدانا واحدا، هكذا قالت، وفوجئت بحفيدها يومئ برأسه موافقا، ويقبض على يديها وينحنى يقبلهما، وعندما رفع رأسه رأى فى وجهها ذلك التعبير الآسر، الذى هو خليط من الحب والشفقة والامتنان، وشىء من آثار السنين لمع بذكريات الأسلاف الراحلين.

لكن عميه أصما آذانهما، والكلمات وما حملته من وعود ضلت

طريقها إليهما، ظنهما أنه سرعان ما سينكشف كل شيء، وتأتي قوات الباشا لتقبض عليهم، وتسوقهم رجالا ونساء، كبارا وصغارا، إلى حيث يجرى تعذيبهم، حتى ليتمنون الموت فلا يجدونه، قبل أن يُرْفَعُوا على الخوازيق وتُسْتَأصَل شأفتهم، ولا يبقى على وجه الأرض واحد من أبناء سيد احمد "الثانى".

أحمد كان قد تسلل إلى قلوب الكثيرين من أهل المكان، فها هم عمد(*) القرى المحيطة الذين توافدوا على داره يقترحون عليه أن يتقدم بشكوى للأغا حاكم المركز في السنبلاوين ويتهم الشيخ عبد الله بمحاولة قتله، وعبثا حاول أحمد أن يسوف لكنهم أصروا، وفى قطار طويل من الخيل والمطايا حملوه إلى المركز، وخوفا من الهجوم وهو غائب تركوا رجالا مسلحين ظاهرين يحرسون أهله وداره وقطعانه، ويقومون على الأفدنة القليلة التى كان قد استزرعها، فى أول محاولة لنقل الأرض من مجرد سبخة إلى أرض زراعية حقيقية.

(*) بعد أن استتب الأمر لمحمد على باشا ابتدع تنظيما إداريا جديدا لدولته، ومثلما أعيد تنظيم الولايات والكشوفيات وصارت مديريات ومراكز شمل التنظيم القرى أيضا فصارت وحدات إدارية محددة، لكل منها زمام معلوم، وعلى رأس كل منها عمدة يختاره الباشا عن طريق عماله فى المراكز والمديريات، وجرى تقسيم القرى إلى حصص، على رأس كل منها شيخ يعاون العمدة، ويتبع العمودية مجموعة من الخفراء على رأسهم شيخ لهم، وهى كلها مناصب إدارية ذات طبيعة أمنية، وهذا هو التنظيم المتبع حتى اليوم، لم يدخل عليه إلا تعديلان لاحقان، أحدهما هو الاستعاضة عن منصب العمدة فى بعض القرى بإنشاء نقطة للبوليس، وثانيهما هو إنشاء وحدات إدارية محلية على مستوى القرية، وفقا لنظام الحكم المحلى، ومعها يظل منصب العمدة واحدا من المناصب الإدارية التى تتبع وزارة الداخلية.

فى الطريق إلى المركز، وبرغم أنه محاط بكل من ذهبوا معه كان أحمد السرسى مهزوما من داخله، إذ لا يعنى رحيل عميه إلا أنه خالف إجماع الأسرة، مثله مثل رجل القطعان ورجل الاستطلاع، وهذا يحزنه بشدة، ويجعله غير قادر على التفكير على نحو صائب، وهو قبل كل شىء خائف من مقابلة الأغا وجها لوجه، فها هى الأحداث تقوده لأن يذهب إلى من يحثون عنه فى عقر دارهم، يذهب بقدميه، وذلك فى حد ذاته كفيل بجعله يبدو وكأنه شبح، وطوال الطريق من داره -حيث تحرك الركب- وحتى مقر الأغا كان مشلول التفكير، وهو الأمر الذى أوقعه فى المزيد من الخوف.

لم يكن ليغفل دلالة أنه يسير ضمن قطار طويل من ذوى الحيثية فى المكان، يتقدمهم الشيخ دسوقى عمدة المقاطعة والحاج سويلم عمدة الحجايزة والشيخ هيكل عمدة كفر غنام والحاج على أبو سيد احمد عمدة برقين والحاج اسماعيل عمدة شبراسندى، وقبل أن يصل الركب إلى السنبلاوين لحق بهم الشيخ أبو كريمة عمدة كفر سعد، إذ لم يكن -برغم صلته الوثيقة بالجياصى- ليخالف إجماع عمد المنطقة، وعند مقر الأغا فوجئوا بوجود الحاج رضوان عمدة أبى داوود، فلقد أبى برغم بعد قريته عن الأحداث إلا أن يرافق الركب فى الشكاية من الأعرابى الذى يعيث فى المنطقة فسادا، وكان قد أحيط من قبل الشيخ دسوقى علما بما حدث، وبما ينتوى زملاؤه عمله.

فى الجانب الآخر كان الجياصى مشغولا بتوقيع العقاب على رجاله الذين أمطروا الفتى بالطلقات و لم تصبه طلقة واحدة، عشرة من الرماة

يقفون أمامه منكسي الرؤوس، وبعد أن بصق في وجوههم قيدهم بنفسه، جمع أيديهم إلى أرجلهم وربطها معا، وطرحهم بين ثنايا تل اللجة لتنهشهم الذئاب في الليل.

غضبته عارمة، يرفض أن يشاركه أولاده الطعام، ويأمر بأن يتواروا من أمام عينيه، بل ويقسم إن رأى ظل أحدهم ليقطعن رقبته، حتى أخوته، يرفض أن يلتقيهم وغريمه على قيد الحياة، كما يرفض قولهم إن عدوه محصن بقوى خارقة صدت عنه البارود، وإن كان يربط من طرف خفي بين قولهم وبين ما يعرفه عن اللعنة التي تصيب من يفكر في الزواج من نسائهم، ويتَمثُّل ذلك الكم الهائل من الأوراق التي يخفيها الفتى لديه والتي تحمل في طياتها أخبار الأولين ومفاتيح المردة والشياطين الذين يعاقرهم طوال الوقت، وتخلصاً من إحساسه بالفشل يقول في نفسه إن غريمه ليس إنسانا كما يكون الإنسان، وإنه ابن اللعنة وعليه أن يجيد التعامل معه حتى ينال منه.

اجتماع الإخوة والأبناء ليروا ما الذي يمكنهم عمله لتفادي غضبة الشيخ أسفر عن خطة، مهاجمة دار غريمهم وقتل كل من فيها، ثم إضرام النار في كل شيء، يريدون أن يجعلوا من الفتى عبرة لكل القرى المجاورة، قالوا إن هيبتهم على المحك، وما لم ينتصفوا لأنفسهم وينتقموا انتقاما تتحدث عنه الأجيال اللاحقة فإن الفلاحين الزعر سيجترئون على مقامهم، ولن تقوم لهم من بعد قائمة.

لم يكن الجياصي على علم بما فعله العمد، واصطحابهم أحمد إلى

السنبلاوين لمقابلة الأغا. خاف الوشاة الاقتراب من الشيخ الذى كان هائجا كثور غاضب، وبرغم أن كل ذى عينين لا بد ورأى تلك الجموع التى افترشت الأرض فى الجرن الفسيح المقابل لدار أحمد، إلا أنه وأخوته وأبناءه فسروا الأمر على أنه مجرد تطفل من أهالى المنطقة، ذهبوا لينظروا ما يحدث ويكسروا رتابة أيامهم، و لم يعط أحد من كل رجال الشيخ ذلك الجمع أية أهمية.

وفى السنبلاوين استمع الأغا ذو الشوارب الضخمة والعينين الرماديتين الضيقتين والبطن العظيمة بفتور إلى ما يقوله العمد المحيطون بشاب حديث السن، لم يفطن إلى الرعب الذى يشكل ملامح الشاب الذى يختلس النظر إليه، إلى شاربه ورأسه الضخم وبطنه العظيمة، فلقد كان غارقا فى البحث عن طريقة للالتفاف حول ما يقوله العمد ضد صديقه الأعرابى.

ما كان يدور فى رأس أحمد هو ذلك الشبه الغريب بين الأغا والمملوك القديم قفل، وعندما يلتفت يمنة أو يسرة تزداد الملامح قربا إلى درجة تثير الرجفة فى جسده، والمحيطون به من العمد أرجعوا رجفته إلى الغضب الذى يستولى عليه من جراء الاعتداء الذى استهدفه، و لم تكن عينا الأغا لتصل إلى أعماق تدربت على التخفى وإظهار ما يخالف الباطن على مدى أكثر من ثلاثة أعوام.

واستدعى الأغا كاتبه ليدون تفصيلات الشكوى فكاد أحمد يسقط مغشيا عليه، وسأله الكاتب عن اسمه وكنيته ولقبه. لم تخرج الكلمات من فمه، رفضت وتخففت وراء حشرجة فسرها الكاتب بالرهبة من مواجهة

الأغا ورجاله، و لم يعرف أحمد بعد أن استرد شيئا من رباطة جأشه كيف اهتدى إلى الإجابة بأنه أحمد احمد سيد احمد... وفقط، و لم يطلب منه أحد أية إضافة.

فى رحلة العودة أصر على اصطحاب العمد لتناول الطعام، فلقد أمر وهو فى طريقه إلى الأغا بذبح عجل قامت على تجهيزه سيدة الطهى الأسرى مريم، وعندما جاء وقت الأصيل امتدت الأسمطة هنا وهناك، وتصدر العمد السماط الرئيس وراحوا يتناولون طعام الشاب الذى أحاطوه برعايتهم وقبلوه بينهم، واعتبروه واحدا من خاصة أهل منطقتهم.

تقول الحكايات إن مريم أرسلت فى طلب المعلم "أبو سنة"(*) الطباخ الشهير المقيم بالسنبلاوين، والذى ستحترف أسرته مهنة الطبخ بعد ذلك وحتى وقتنا الحاضر، وقدم الطباخ الشهير أطباقا حازت دهشة وإعجاب الضيوف، فلقد عمل الرجل من قبل فى قصور العديد من الأمراء، وزار الآستانة ودمشق والكثير من المدن قبل أن ينتهى به المطاف إلى العودة إلى مسقط رأسه، ويتخصص فى إعداد الولائم لعلية القوم.

أعقب الوليمة اجتماع ضم العمد المتواجدين وصاحب الدار والصهر الحاج محمد الطوخى، الذى وصل مع مقدم الليل، فلقد طلبت شام من الحاج سويلم ليلة الحادث أن يرسل فى طلبه، ووصل مع رجاله مع مقدم ليل اليوم الثالث، فى الاجتماع أنهى إليهم الحاج رضوان عمدة أبى داوود أنه يعرف بوجود علاقة قوية بين أغا المركز والشيخ عبد الله الجياصى، وأنه

(*) كتبتها على هذا النحو لأحافظ على كنية الطباخ الذى ينتمى إلى أسرة شهيرة تعرف فى السنبلاوين بهذا الاسم.

فى النهاية لن يفعل شيئا، سيتركهم ينتظرون وينتظرون حتى تبرد همتهم، وبعدها سينقلب الأعرابى على أحمد ويكون أكثر شراسة من ذى قبل.

وقرروا أن يتوجهوا من غدهم إلى الأغا الأكبر فى المديرية، فهو على علاقة مباشرة بإبراهيم باشا ابن الوالى، وإذا استطاعوا أن يجمعوا توقيعاتهم على شكوى جماعية ضد الأعرابى فإنهم إذا لم يقبضوا عليه ويرسلوه إلى "مصر" ليحاكم أمام الباشا سيطردونه من المكان، ليهيم من جديد فى متاهات الصحارى، بعد أن يكونوا قد قلموا أظافره، ومن ثم يطهرون المنطقة من شروره.

لم يكن مر على زواج أحمد السرسى من شام ابنة التاجر الطوخى إلا أسابيع قليلة عندما انكشف أمر حصوله على الأبعدية، ففى ذلك اليوم الذى عاد فيه من المنصورة وأعلن على أسرته نبأ حصوله على الأبعدية، وهو اليوم الذى غابت فى ليله الجدة الكبرى وماتت مع قدوم الفجر، فى ذلك اليوم لم تكن صفقة الموافقة على منحه الأبعدية قد وقعت كاملة، إذ كان قد دفع جزءا من رسوم الحصول عليها، كما دفع البرطيل الذى طلبه الأغا، وتأجل دفع الباقى حتى يتم تقدير مساحة الأرض على وجه رسمى.

شهور عديدة قطعها مشوار الحصول على الأبعدية، احتاجوا فيها إلى خرائط مساحية أسقطوا عليها المنطقة المزمع بيعها، وسافر أحمد إلى المنصورة مرات ومرات إلى أن حصل على الخرائط المطلوبة، رسمها من أجله مساح فرنسى كان من بين المهندسين الذين استعان بهم محمد على باشا فى إعادة قياس الأرض فى عموم البلاد على القصبة الجديدة،

من جنوبها وحتى بحيرات ومستنقعات الشمال، وبعد انتهاء مهمتهم فضل البعض البقاء فى مصر، وامتهنوا إلى جانب أعمال أخرى كثيرة رسم الخرائط التى يتطلبها منح الأراضى والأبعديات وفقا للقواعد الجديدة التى وضعها الباشا، حتى يكون على علم بكل من يضع يده على أقل قطعة من الأرض فى البلد الذى سيمكنه من الانطلاق نحو حلمه الكبير فى تكوين الإمبراطورية التى ستقوم كما يأمل على أنقاض الدولة العثمانية.

تم تقدير الأرض وفقا للقياس بالقصبة الجديدة، وانتهوا إلى أنها تبلغ ثلاثمائة وعشرين فدانا وبضعة قراريط، وبعد أسابيع عديدة أوشك فيها على أن يفقد الأمل فى الحصول على الأرض حمل له الشيخ دسوقى خبر استدعائه إلى مقر الأغا الأكبر حاكم المديرية، ليدفع باقى المطلوب ويحصل على التقسيط، أو شهادة منح الأبعدية، منحة من الباشا الذى يجلس هناك فى قصره المطل على النيل فى "مصر" المحروسة، والذى يواصل رجاله البحث عن قتلة رجله الأثير المملوك قفل.

فى ذلك الوقت كان أحمد غارقا حتى أذنيه فى أمر الزواج من شام ابنة صديقه التاجر الطوخى، وكانت مريم قد تصنعت الغضب وهى تستمع إليه بعد انتهاء أربعين الجدة الكبرى، وهو يبلغها بالرغبة فى الزواج من الفتاة، لكن قلبها فى الحقيقة كان يرقص بين أضلاعها، إذ سيملأ ابنها الدار بذريته، وتمعنت فى داخلها، وتذكرت ذلك اليوم الذى خشيت فيه أن ينقطع دابرها عندما تأخر حمل زوجتيه، والآن فإن ابنها هو نفسه الذى يفاتحها فى أمر الزواج من امرأة ثالثة.

وإذ وقف ينتظر إجابتها طال به الانتظار، فلقد كانت لما تزل هناك، خيالها يحوم حول مضارب كفر عزام، وهي تقلب الرأى فى أمر الابن الذى لا توجد إشارة واحدة على وجود بوادر حمل لدى أى من زوجتيه، ثم تعود إلى واقعها دون أن يدرك، فترى طفليه الأثيرين، موسى وسيد احمد، وتسترجع كلماته التى نطقها لتوه، عن رغبته فى زوجة ثالثة، بالسعادة التى تفور فى داخلها، وباللهفة التى يغلفها الحرص والاصطبار، وأخيرا فإنها وفى اللحظة التى تخيلت فيها أنها تقف وتتلقفه فى حضنها أشاحت عنه كأنها تواصل الغضب.

تهديد العمين بالرحيل يطن دائما فى أذنيه، ولأنه كان قد عقد العزم على إتمام الصفقة أيا كانت التنائج قرر بينه وبين نفسه أن يوطد علاقته بحلفاء من المكان، أول شىء فكر فيه هو مصاهرة أسرة من الأسر الكبيرة فى المنطقة، وقال لأمه وهو يجاهد ليقنعها برأيه إن ذلك هو بالضبط ما فعله النبى، وفيما هى تصلى وتسلم راح يؤكد أنه لا يتزوج من أجل الزواج، فتحته زوجتان يتمنى أى رجل لو تزوج إحداهما، ولكن الأم الحصيفة منعت ابتسامة كانت بسبيلها للتهلل فوق ملامحها الحلوة وقالت:

– لا أقول حرفا إلا بعد استشارة الأم الخبيرة.

بعد رحيل الجدة الكبرى تدهورت صحة الأم الخبيرة، ولزمت حجرتها معظم الوقت، واحتاج الأمر إلى أن تقوم سربة على شئونها إلى جانب شئون سيد احمد الصغير، فيما حاولت حورية أن تقوم ببعض شئونها بالإضافة إلى شئون صغيرها موسى، لكن اعتلال صحتها حرمها من ذلك،

ولما أدركت مريم أن الأعمال المطلوبة في الدار أكثر من طاقة الزوجتين نشطت بنفسها لتساعد في الأمر، فكانت تقوم على خدمة عمتها أثناء الليل حتى لا توقظ سرية، ومن ثم تكسبها في عمل جديد وشاق طوال اليوم التالي، وأيضا كانت تساعد في تنظيف الدار وفي الطهي وفي الإشراف على القطعان.

احتاج الأمر من مريم إلى الكثير من الجهد لتفاتح الأم الخبيرة، فالحجة التي ساقها أحمد لزواجه الثالث لا تنطبق على الزوجة التي اختارها، فالتاجر الطوخي ليس من المنطقة، والزواج من ابنته لا يضمن له أسرة حليفة في المكان كما يقول، ودونها وإفهام الأم الخبيرة بأن ذلك الزواج يضمن محالفة الحاج سويلم صعاب قد لا تنجح أبدا في تخطيها، وحتى لو أنها استطاعت أن تضم الجدة إلى صف حفيدها فكيف سيكون الأمر مع الزوجتين بنتي عميه؟!، وفي النهاية كيف سيكون تصرف العمين القابعين على بعد خطوات في مضاربهما في جوار كفر عزام؟!.

لكن الأم الخبيرة – ومن حيث لا تدري مريم – هي من يسرت عليها الأمر، فهي كعادتها في متابعة مريم في صمت أدركت أنها تظل مستيقظة طيلة الليل، وتكرر الأمر ليلة بعد ليلة، في تلك الليالي كانت مريم تبحث عن مدخل للحديث معها في الأمر، وفي الليلة التي أجمعت أمرها على مفاتحتها جاءها صوت الجدة الواهن:

– لا بد أنه أمر خطير ياابنة أخي، هذا الذي يحرمك النوم كل هذه الليالي.

عقدت الدهشة لسان مريم، وهداها تفكيرها إلى تصنع النوم حتى لا تتلعثم إذا أجابتها، لكنها سرعان ما حذرت نفسها من الاستهانة بذكاء عمتها، وحدسها الذى لا يخيب، لذا انقلبت على جنبها وواجهتها:

- لا أعرف كيف افاتحك فى الأمر يا عمتى.

سألت الجدة منزعجة:

- أهو أحمد؟!.

تريثت مريم قليلا قبل أن تجيب:

- هو يا عمتى.

واعتدلت جالسة فوق السرير فجاهدت الأم الخبيرة لتنهض هى الأخرى، لكنها احتاجت ليدى مريم لتتمكن من الجلوس، وقبل أن تسأل عن الأمر بادرتها مريم:

- له أيام يلح فى طلب مفاتحتك فى الأمر.

وتنهدت قبل أن تردف:

- يريد أن يتزوج يا عمتى.

نطقت الكلمات فى استنكار، كانت وكأنها ستبكى، ولا تدرى ما الذى يتوجب عليها أن تفعله، وصمتت فى انتظار رد فعل عمتها، لم يأتها غير طنين الليل فى الجرن القريب، وصرير الجنادب الليلية فى الأراضى الشاسعة المحيطة، واضطرت لمواصلة الحديث:

- لى أيام أحاول أن أثنيه عن عزمه.

وبلهجة من تدافع عن نفسها أردفت:

- قلت له إن زوجتيك لا تستأهلان منك هذا، فلقد انحازتا إليك عندما اختلفت مع عميك، ورعيا قطعانك، وولدتا لك موسى وسيد احمد.

وحاولت أن تبتلع ريقها، لكن حلقها كان جافا، فاكتفت بلعق شفتيها واضافت:

- لكنه طلب أن أفاتحك في الأمر، قال إنه يريد أن يتحالف مع أسر المنطقة، وإنه يفعل كما فعل الرسول.

وانشغلت بالصلاة والسلام على النبي انتظارا لصوت الأم الخبيرة، لكن طنين الصمت وصرير الجنادب كانا يواصلان المجيء عبر النوافذ المغلقة، والأبواب التي لا تحجب عنهما أسرار الليل.

بالقسوة الشعور الذي انتابها وهي تجلس في انتظار كلمات الأم الخبيرة!، وباللعذاب الذي عاشته في اللحظات التي سبقت حديثها!، لكن الأم الخبيرة كانت تمعن النظر في داخلها، وربما تكون وهي تغوص في الأعماق قد عادت إلى زمن بعيد كانت في أمس الحاجة للعودة إليه، وجاهدت لتستلقي من جديد، لكنها اعتمدت على نفسها هذه المرة، وما أن تمكنت من الاستلقاء، حتى أعطت مريم ظهرها وبدا أنها في طريقها للاستغراق في النوم.

لم يطل العذاب بمريم، جاءها صوت الأم الخبيرة كحلم قادم من بعيد، في البدء كانت الكلمات تختلط بالطنين والصرير، حتى أن مريم انحنت

مرات لتلتقط الأحرف والكلمات، لكنها سرعان ما اعتادت الصوت الخفيض، ومن خلال الأحرف الطيفية كأنها السراب قالت الأم الخبيرة إنها تدرك الآن بوضوح أن العودة إلى ديارهم تبدو بعيدة بعيدة، وأن بعثرة أبنائها على طول الطريق من سرس حتى هنا قدر لا يستطيع أحد أن يتداركه، حتى لو قام سيد احمد "الثانى" نفسه من قبره، فإذا كان قدر حفيدها أن يؤسس للعائلة فى دار الغربة التى بلا نهاية فلتدعه يفعل.

كلمات صريحة ومباشرة، وبرغم هذا لم تشعر مريم بأى قدر من الراحة، وعلت أنفاس الأم الخبيرة لكن مريم ظلت مستيقظة، ومن بعيد جاءها صوت رجحت أنه أذان الفجر قادم من ناحية المقاطعة، وراودها الحنين إلى النوم لكنها تحاملت على نفسها ونهضت لتصلى الفجر.

عندما طلعت الشمس أصرت على أن تقدم الإفطار لعمتها بنفسها، أرادت أن تتأكد من أن الحديث الذى دار بينهما فى جوف الليل كان حقيقيا، فلقد خرجت إلى الجرن بعد أن فرغت من صلاة الفجر، وعجزت عن أن تصدق أن ما حدث كان حقيقيا، ربما يكون ابنها قد شعر بوجودها هناك، تحوم حول المخزن والحظيرة الكبيرة، لكنه آثر أن يظل فى حجرته ولا يقطع عليها إحساسها الحائر بين اليقين والهواجس.

لم تعد إلى الدار إلا مع مطلع النهار، وعندما حملت الطعام وولجت الحجرة فاجأتها الأم الخبيرة:

– لا ترددى طويلا فى إخبار زوجتى ابنك، وإذا أخبرتيهما الآن هنا وأمامى فليذهب ابنك لينهى الأمر.

انتهى كل شيء في ذلك الصباح، سقطت حورية مغشيا عليها، وحملتها سرية ووضعتها إلى جوار جدتها، تسللت اليد الخبيرة تدلك صدرها وتلقن القلب الجزع أسرار الصلابة، وعند باب الحجرة جلست سرية تقلب الأمر في عقلها المشوش، تعلم أن ما يريده أحمد لن يثنيه أحد عن إتمامه، واستشعرت للمرة الأولى حرائق الغيرة التي نهشت صدر حورية ذات يوم، والتمست لها الأعذار، ما جعلها تنهض بعد قليل لتساعد في تدليك الصدر المتوتر، ولتؤكد على أنها وحورية ستكونا يدا واحدة في مواجهة الزوجة القادمة.

لم يعلن الأمر للصهرين القابعين في مضاربهما في كفر عزام، فوجئا في إحدى زياراتهما له بالزوجة الجديدة تخطر في الدار مع ابنتيهما، ولما اختلت بهما الأم الخبيرة وأخبرتهما بأمر الزواج تركاها وانصرفا دون الاستماع إلى كلمة أخرى، ولم يمرا بابن أخيهما في الجرن ليلقيا عليه السلام، وكان أحمد قد رآهما يدخلان الدار فآثر أن يتأخر في اللحاق بهما ريثما تخبرهما الأم الخبيرة.

وها هما لم ينتظرا كثيرا في مكانهما، حملا زوجتيهما وأولادهما وغادروا إلى وجهة غير معلومة، تنفيذا للتهديد الذي سبق وأعلناه بلا مواربة، فما أن علما من صديقهما الشيخ عزام والذي صار عمدة لكفر عزام بخبر حصول ابن أخيهما على الأبعدية حتى تبخرا من المكان، ولم يُعْلما أحدا بقرارهما، وكما تزوج أحمد بابنة التاجر الطوخي دون أن يعلمهما بالأمر، وتركهما يغضبان ولم يبال، تركاه ومضيا إلى حال

سبيلهما، دون أن يباليا أيضا بما سيلقاه فى صراعه مع الأعرابى، الذى تركهما ذات يوم ليعيش فى جواره.

وكان عندما قرب موعد دخوله بعروسه أن احتاج إلى الحجرة الرابعة فى الدار لتكون للزوجة الجديدة، فلقد خشى إن هو أسكنها أحد المقعدين أن يزيد من جراح ابنتى عميه، لذا جلب البنائين وأقام خارج الدار مندرة(*) كبيرة للضيوف، وهى المندرة التى حفلت باجتماع العمد والأعيان الذى تقرر فيه التوجه إلى المنصورة لتصعيد الأمر إلى حاكمها، بدلا من أغا المركز الذى يقبل الرشا وتحركه الأهواء.

(*) بالرجوع إلى المعجم الوجيز الصادر عن مجمع اللغة العربية فى مادة نظر وجدت كلمة "منظرة" على أنها مكان فى البيت معد لاستقبال الزائرين، ولكننى فضلت أن أسميها المندرة لأن وقعها فى الأذن دارج، وأيضا فهو نوع من التزاوج الذى يلم بالكاتب بين الحين والحين.

الرهائن

موعد الذهاب إلى الأغا الأكبر فى المنصورة تحدد له يوم يوافق مرور أسبوع بأكمله على يوم الاجتماع الذى انعقد فى المندرة الكبيرة، على الجانب الآخر كان الجياصى يسابق الزمن، فلقد ألقى رجاله القبض على الطباخ أبى سنة ومساعده وهما عائدين إلى السنبلاوين بعد انتهاء الوليمة. الوقت كان قرب انتصاف الليل، والدابتان اللتان تقلان الطباخ ومساعده كانتا تغذان السير وترهفان الآذان، وقبل أن يبلغا برقين فوجئا بمن يهبطون عليهما من السماء، لا يدريان من أين خرج هؤلاء الناس، ولا كيف باغتوهما، وإذ حاول الطباخ الشهير أن يُعَرِّفَ بنفسه جاءته ضربة أسقطته من فوق الدابة مغشيا عليه.

قبل أن يرسل إليه الأغا بخبر الشكوى التى قدمها غريمه وبأمر الذين اصطحبوه إلى هناك عرف الشيخ من الطباخ ومساعده بأمر تلك الشكوى، وعدد له الأسيران أسماء المجتمعين فى مندرة غريمه من العمد والأعيان، وتحت التعذيب والكى بالنار أدلى الرجلان بما انتهى إلى سمعيهما من معلومات عن المشوار المزمع القيام به إلى الأغا الأكبر فى المنصورة، ومع

مقدم الليل التالى حُمِل الرجلان على دابتيهما، وبعد أن تجاوزوا بهما برقين وصاروا بمحاذاة طرانيس العرب ألقوهما على قارعة الطريق وقفلوا عائدين.

خبر غياب أبى سنة ومساعده عرفه المجتمعون فى مندرة أحمد السرسى فى الصباح الباكر، فلقد أرسل ذووهما بمن يسأل عنهما، ولما تأكد للجميع اختفاؤهما أيقنوا أنهما ولا بد وقعا فى قبضة الأعرابى.

صار كل طرف يتصرف وهو عالم بما ينتويه خصمه، المجتمعون فى مندرة أحمد السرسى واثقون من أن الأعرابى يعلم بانعقاد عزمهم على الذهاب إلى المنصورة، بل وإلى أبعد من ذلك إن اقتضى الأمر، وبأنهم يتدبرون أمرهم ويجتهدون ليتوقوا انتقامه، والجياصى موزع بين المبادرة بالانتقام من الذين زينوا لغريمه شكايته لدى الأغا واصطحبوه إلى هناك، وذلك حتى يعزل الفتى، ومن ثم ينفرد به وهو بلا حول ولا قوة، وبين ضرورة الانتهاء من أمر الفتى أولاً وقبل أى شىء آخر، بعملية خاطفة تنهى المعضلة من أساسها، وتقتلع المشكلة من جذرها، وما يتبقى بعد ذلك لن يكون إلا نزهة، فيها يستطيع أن ينفرد بالعمد المذكورين الواحد بعد الآخر، ومن أجل الاستقرار على واحد من هذين الطريقين يضطر إلى الحنث بيمينه - إذ كان قد أقسم على ألا يرى وجوه أخوته وأبنائه وغريمه لما يزل على قيد الحياة - فيسارع بجمعهم ليشاركوه الرأى فى المسألة التى لا تحتمل التأجيل.

وفى الاجتماع المشحون بالتوتر والغضب تختلط الرؤى، فالرغبة الحارقة فى الانتقام تتجاوز حدود العقل، وكما اضطر الشيخ إلى الحنث

بيمينه اضطر أيضا إلى التجاوز عن الرغبة في تحطيم رؤوس المجتمعين، يغمض عينيه حتى ينزفوا آخر قطرة من أحقادهم ثم يوجه إليهم السؤال: هل يبدأ بتأديب العمد الذين زينوا الأمر للفتى أم يبادر بالانتقام من الفتى نفسه؟، والمجتمعون وقد صاروا أكثر هدوءا وعقلا يرون أن يبدأوا بالفتى، ثم ينظرون ماذا يكون من أمر أرباب الغواية، وحتى يتجنبوا شياطين غربهم وعواقب أوراقه ومردته فليحشدوا السحرة الموجودين بالصحراء من بلبيس وحتى حدود سيناء مع الشام، وقد كان. اجتمع السحرة في خيمة أعدها لهم الشيخ، وطفقوا يحرقون أشياء كثيرة، وفوق مساحات من الرمال يسوونها براحاتهم يرسمون نقوشا غامضة ثم يطمسونها بعد قراءة كلمات مرتبكة وأحرف بدت لسكان المضارب مسكونة بأرواح صارمة.

أما المجتمعون في مندرة أحمد السرسي فيتوقعون كل ما يمكن للأعرابي وأعوانه أن يفكروا فيه، وحتى لا يداهمهم ينظرون في الأمر مليا، وكما يطرح الرجل على نفسه ثم على أعوانه السؤال المتعلق بمن يبدأ الانتقام منه يطرحون هم أيضا على أنفسهم نفس السؤال: من أين سيبدأ الشيطان معركته؟، وينتهون بعد نقاشات مستفيضة إلى أنه سيبدأ بالضرب في أضعف النقاط، ليحقق نصرا سريعا يرضي غروره ويرد هيبته التي تضررت بخروج أحمد عليه وبفشل رجاله في النيل منه.

يقولون إنهم لو وضعوا أنفسهم في موضع الرجل لأسرعوا بالتخلص من المشكلة الرئيسة، حتى يكون الظفر بالمعركة تاما، ولا يعود لاجتماع المجتمعين أية فائدة، ويقدرون أن يبدأ الرجل بالهجوم على صاحب

النار التى يجتمعون فيها، والهدف من الهجوم هو الإجهاز على الأسرة الجديدة بالكامل، لكنهم لا يستبعدون الاحتمالات الأخرى، فقد يبادر الشيطان بالانتقام من عمدة كفر سعد باعتباره الأقرب إليه بدرجة تثير غيظه، فالمسافة بين مضارب الشيخ وبين كفر سعد لا تتعدى بضع عشرات من الأقصاب، ووجود عمدة هذه القرية بالذات مع المحتشدين ضده عند الأغا يصيبه بجرح شديد الايلام، ويجعل صدره ضيقا لا يفرجه إلا أن يسارع بالانتقام منه ومن القرية كلها، فلا بد وأنه يخشى الآن أن يتجرأ على مقامه أهل القرية الملاصقة لمضاربه، فإذ يفعلها عمدتهم ويفلت بها فمن يضمن ألا تتكرر الفعلة من الفلاحين الزُغر، كما اعتاد أن يطلق على أهل القرى المحيطة.

لم يكونوا ليغفلوا عن غدره وطرائقه الجهنمية فى اغتنام الفرص، وبدلا من التركيز على أمر واحد يفضلون أخذ كامل الحذر، فلربما يهاجم الشيطان فى الموضعين فى وقت واحد.

فرق من الفلاحين يتقدمها الخفراء، والمشدات تتناوب الحراسة عند مداخل كفر سعد طوال الليل، ولا تغفل الحجايزة وغزالة والمقاطعة عن أن تفعل نفس الأمر، وإن بصورة أقل حدة، أما فى دار أحمد السرسى فإن نوبات الحراسة التى كانت ظاهرة يتقرر أن تكون متخفية، وكان التاجر الطوخى قد استقدم رجالا من بلده البعيد، وزودهم ببنادق وسيوف وشماريخ، وكذلك فعل الحاج سويلم والشيخ الدسوقى، فيما اكتفى الشيخ هيكل والحاج على أبو سيد احمد والشيخ اسماعيل والحاج رضوان بالمتابعة والاحتشاد من أجل المشوار القريب إلى المنصورة.

الرعب يشل تفكير النساء فى الدار المشغولة بالأغراب طوال الوقت، فرجلهم الذى لم يمض على زواجه الجديد أسابيع قليلة لا يدخل أية حجرة من حجرات زوجاته، فضلا عن حجرة الأم الخبيرة وأمه، فهو طوال الوقت مع هؤلاء الذين يقبعون فوق سطح الدار وفى المقاعد، أو الآخرين الذين يختبئون بداخل الحظيرة أو المخزن الكبير، وقد يقضى الليل بطوله مرافقا للذين يجلسون مستيقظين طوال الليل فى المندرة الكبيرة.

وبفعل الانصهار فى الأزمة تقترب شام من ضرتيها، بنتى العم حورية وسرية، لم يعد هناك محل لأن تنفذا عزمهما على التكتل فى مواجهتها، ولا يخفى على أى منهما أن جزءا من الأمان الذى يعيشونه يعود إلى أولئك الرجال الذين جلبهم أبوها من بلده البعيد، والذين يعتلون سطح الدار والمندرة الكبيرة، ولا يكفون عن تصويب بنادقهم فى الاتجاه المتوقع قدوم المهاجمين منه.

وشيئا فشيئا صارت تقوم على رعاية الصغيرين موسى وسيد احمد فيما تقوم حورية بمساعدة عمتها فى إعداد المزيد من الطعام للرجال، فهم لا يكفون عن الأكل طوال اليوم، وفيما تقوم سرية برعاية جدتها التى كانت مشحوذة الحواس بصورة مذهلة، تسمع ديب النملة وتشعر بأطياف القادمين من بعيد، وتبكى فى السر خذلان ابنيها لحفيدها الذى توجد تحته ابنتيهما، وكثيرا ما كانت تتساءل: ماذا لو أنها لم تسمح لحفيدها بالزواج من الفتاة التى يقوم رجال أبيها على حراستهم؟!.

شعر الناس بتحركات غريبة تجرى فى مضارب الأعرابى، أفراس جديدة لا تكف عن التوافد، على ظهورها رجال غريبو الأطوار، يظلون فوق

ظهورها معظم الوقت، ولا يكفون عن التسابق والتراشق بالرماح، كأنهم داخلون في حرب، ورصد الراصدون من أهالي كفر سعد والحجايزة، ورجال من أصدقاء الحاج سويلم، وأقرباء للشيخ دسوقي من "مقاطعة" فاقوس رجالا كثيرين من الأعراب يفدون طوال الوقت من الصحراء القريبة، وجهتهم مضارب كبير قبيلتهم، ولا يعودون إلى الأماكن التي قدموا منها، وحتى إذا عاد البعض منهم فإنه سرعان ما يأتي وبصحبته المزيد من الرجال، ولما أُخبِر المجتمعون بانقطاع وفادة القادمين من الصحراء قدر المجتمعون في مندرة أحمد السرسي أن الهجوم وشيك.

تحت جنح الليل نقلوا النساء والأطفال إلى دار الشيخ دسوقي في المقاطعة، وجاهدت مريم لتظل مع ابنها لكن الأم الخبيرة نهرتها بصوتها الواهن، وطلبت منها أن تكف عن التشبه بالرجال، ولما لم تجد بدا من الانصياع للأمر سارت إلى جوار دابتها قليلا ريثما اختفت عن الأنظار ثم امتطت الدابة وانتظمت في القافلة التي خرجت في اتجاه القرية القريبة، حيث لا تبعد المقاطعة إلا مسير أقل من نصف ساعة.

طوال الطريق كانت تتحسس البندقية التي سهرت الليل لتحشوها بالحشار والبارود، فلقد أقسمت على الملأ ألا تترك ابنها وحده في مواجهة الأعرابي، حتى ولو كان المئات يحيطون به، فستكون أمامه في كل موضع، ومن ورائه وعلى الجانبين، وستلقى عنه الطعنات، و لم يساور الأم الخبيرة الشك لحظة واحدة في أنها ستبر بقسمها.

أعلن الرجل الذي يصاحب القافلة أن إحداهن تخلفت، وهزت الأم الخبيرة رأسها في الظلام، تيقنت أن مريم غافلت الجميع وعادت لتكون

إلى جوار ابنها، وما تدرى إلا وحورية تنخرط فى البكاء، وعبثا حاولت شام وسرية أن تمنعاها من الاسترسال، لكنها انخرطت إلى درجة يصعب معها إنهاء الشوط قبل بلوغ غايته، وغاية الشوط كما يعلم الجميع هو السقوط فى حالة من السكون والانعدام أقرب ما تكون إلى الإغماء.

تقول إنها وهى فى تلك الحالة تسمع كل شيء وتدرك ما يدور من حولها لكنها لا تستطيع أن تكون جزءا منه، إذ تكون فاقدة للقوة بصورة يصعب تفسيرها، فلا تقدر على تحريك ذراع أو قدم، أو حتى فتح عينيها على وجوه المحيطين.

تتمنى لو أنها عادت مع عمتها لتكون إلى جوار أحمد فى معركة حياتهم الفاصلة فى هذا المكان، ولو أنها استطاعت أن تتعلم استعمال البندقية مثلما تفعل عمتها، لكن سرية كانت تكتفى بالنظر فى الظلام وتقرأ كل ما تعلمته من أدعية، صدرها لم يكن منقبضا، وهذا يعنى أن أحمد سيكون فى أمان، وأدركت ربما لأول مرة لماذا تزوج أحمد من الطوخية، إنه يريد أن يحقق فى جيل واحد ما تحققه الأسرة العادية فى عدة أجيال، وكانت قد اقتربت من ضرتها الجديدة بصورة جعلتها تكتشف فيها الكثير من الخصال الحميدة التى يندر تواجدها مجتمعة فى واحدة من النساء.

شام تحمل معها على المطية الصغيرين موسى وسيد احمد، وتحيطهما بذراعيها وتكتم عن نفسها وعن الآخرين أعراضا غريبة انتابتها فى الأيام الأخيرة، شعور بالامتلاء، وعزوف عن الطعام، بل وتأذ من مجرد رائحته، وأخيرا ميل إلى التقيؤ عند الاستيقاظ. لم يكن لديها من شك فى أن كل

ذلك يعنى أنها تحمل فى ابن ثالث لأحمد السرسى، لكن أحداث الأعرابى وتطوراتها لم تمكنها حتى من مفاتحة حماتها فى الأمر، وهى لا تعرف كم سيسعد الخبر مريم ويهون من وطأة الأحداث التى تجرى.

وكانت مريم قد توقفت للحظات فيما الركب يمضى فى طريقه إلى المقاطعة غارقا فى ظلام الليل، وبعد قليل لم يعد يصلها منه إلا الأصوات الخفيضة التى سرعان ما تتلاشى كأنها بقايا أحلام قصيرة، فى قلب ذلك الليل البعيد رأت كل السنوات القادمة، أحفادها يجوسون خلال الأرض ويصاهرون كل الأسر المنتشرة فى القرى المحيطة، وأراضيهم الشاسعة تخرج زرعها الأخضر الجميل الذى يحيل الحياة إلى جنة حقيقية.

تعجبت من أفاعيل الخيال الذى لا يساير الحال الذى هم فيه ثم لوت عنق مطيتها وعادت إلى ابنها، ولما اكتشفوا غيابها منعت الأم الخبيرة الرجل المصاحب للركب من العودة للبحث عنها، وهناك قرب الدار أصابت الوحشة قلب مريم، فالصمت يخيم فوق المكان، وبدا كما لو أنه لا أحد هناك، لكنها تعرف أنهم يقبعون فى مكان ما، ربما وراء الحظائر أو فى أحد أركان الجرن، وتعرف أن الكثيرين منهم يعتلون سطح الدار ويقبعون فى المقاعد ومعهم بنادقهم، لذا اتجهت مباشرة إلى الدار حتى يخرج من يعترضها، وكان الخارج هو ابنها، أحمد بنفسه، قال بصوت خفيض مرتعش:

– أو عدت يا أماه؟!.

تناولت يده الممدودة وقبلتها، ثم جذبته واحتضنته بشدة، فى ذلك

الحضن قالت كل شيء، لكنها لم تشأ أن يظلا طويلا على الحال التى كانا عليها فبادرته:

- ماذا لو أرسلنا فريقا ليهاجم مضاربهم بدلا من أن ننتظر قدومهم؟!.

ولم تستطع أن ترى آثار الاقتراح على وجهه فأكملت:

- هذا يوقع الوهن فى صفوفهم.

أحمد هو أدرى الناس بأمه، وإذا كانت قدمت رأيها فى صورة اقتراح فإنها تعرف كيف تنفذه، وتذكر كيف أنه عند رحيل نسائه قبل ساعات تفقد البندقيتين فلم يجد إحداهما، وعرف على الفور أنها معها، وأنها ستعود لتلحق به فى حربه الفاصلة مع الأعرابى، وحمد الله أنها لا ترى الدمعتين اللتين انحدرتا من عينيه وهو يستمع إلى حديثها الهامس.

لم تمر ساعة حتى انطلق فريق من الرجال متسللا تحت جنح الظلام ومتوجها إلى مضارب الشيخ ليهاجم مؤخرتهم، لم يكن أحد من كل الموجودين يقدر على مجرد الاعتراض على وجود الأم إلى جوار ابنها فى تلك الساعة الفاصلة، ساعة تدشين بقاء الأسرة فى المكان إلى الأبد، أو رحيلها عنه إلى الأبد أيضا، ولم تشأ أن تكون معوقة لما يقومون به فابتعدت قليلا بدعوى أنها ستكون فوق سطح الدار مع رجال صهره التاجر الطوخى، الذى كان هو وفريق آخر من الرجال يقبعون هناك عند مشارف الدار، يختبئون فى المصارف التى كان أحمد قد حفرها لتمهيد قطعة أخرى من الأرض للزراعة.

كل من كان في دار أحمد السرسي في تلك الليلة، فوق الأسطح أو في أركان الجرن أو عند المشارف لا يعلمون عن تخطيط الأعرابي إلا أنه سيهجم على غريمه ليستأصل شأفته، فلقد حرموا أية مساعدة تطلعهم على خفايا ما يدور هناك، في المضارب التي تضطرم بالنار وتغلي مراجلها، منذ فشلت خطة قتل أحمد وهو عائد من زيارة قبر جدته الكبرى.

لكن اللجوء إلى التوقع وتسقط الأخبار والبحث من ورائها مكنهم من توقع الكثير من الأمور، ويكفي أنهم استطاعوا أن يرصدوا العشرات من الفرسان الذين وفدوا من الصحراء إلى المضارب، وهو ما جعلهم يؤكدون أن الهجوم المرتقب سيشترك فيه مائة رجل على الأقل، ولما لم يكن في مكنتهم تدبير أعداد مماثلة لهم نفس الخبرة في القتال لجأوا إلى الحيلة للإيقاع بالمغيرين.

إصرار مريم على الذهاب إلى هناك، حيث المضارب الغامضة التي لا يعرفون ما يدور بداخلها فتح الباب على مصراعيه للاجتهاد، فها هم الرجال يعترفون بأن الانتظار لصد الهجوم كان في الحقيقة موقفا سلبيا، فحتى لو بحثوا عشرات التوقعات التي يخرجون منها منتصرين فالبنادق التي في حوزتهم لا تزيد على عشر، جمعوها من كل البلاد المحيطة، وهي إن كانت موزعة في مناطق مختارة بدقة إلا أنها لا تكفي لصد المهاجمين.

لم يعد بوسع أحد أن يمنع مريم من فعل أي شيء، حتى الاشتراك في القتال وإطلاق البندقية بنفسها، و لم يكن في وسع أحد أن يرى تينك الدمعتين اللتين انحدرتا فوق وجنتيها المتوردتين، وهي تتذكر زوجها

الغالى أحمد "الأول" وهو يعلمها تعبئة الحشار والبارود وإطلاق النار، ولم يكن بمكنة ابنها وقد انشغل بدوره المحدد فى الخطة أن يتابعها أينما تذهب، لذا فإنها بعد نصف ساعة من ذهابهم كانت تقبع عند مشارف مضارب الأعرابى التى تموج بالحركة فى الظلام.

الليل بلا قمر، والسماء ابتلعت نجومها، والظلام يطبق فوق كل شىء، استقرت خلف تلة صغيرة عند مشارف المضارب، أغمضت عينيها ثم فتحتهما لتساعد على تثبيت نفسها فى المكان، وخيل إليها أنها ترى شيئا مما يجرى هناك، وفى غمرة الإحساس بالفرح أكدت أنها تستطيع أن تسمع أيضا بعضا من الأحاديث التى تدور.

أين كلابهم التى لا تكف عن النباح طوال الليل؟!، على المارين فى الطريق من بعيد، وعلى الخيالات التى تتوهمها طوال الوقت، لا بد أنهم حبسوها فى مكان ما حتى لا تفضح تحركاتهم، يا لتدابير القدر!، إنهم من حيث يريدون التمعن فى السرية يمكنون خصومهم من الاقتراب أكثر وأكثر، حتى لكأن مريم ترى بالضبط ما يفعلون، وتسمع ما يقولون، ولما عرفت أنهم أرسلوا رسلهم تحت جنح الليل ليتسقطوا أخبار معسكر ابنها ضحكت، فلقد فكر الأعرابى بطريقتها، ولم يشأ أن يهاجم بلا مقدمة تدله على ما يجعل النصر سريعا ومؤزرا.

الآن عليها أن تعود لتمد ابنها وفريقه بالمعلومات الجديدة، ولكن ماذا إذا انكشف أمر عودتها، ورصدتها العيون التى لا تعرف بالضبط أين يقبعون، وفكرت فى الأمر مليا، فعودتها محتومة، وإلا ما فائدة المعلومات

التى توصلت إليها. انسحبت بهدوء صوب تل اللجة، ومن هناك قطعت الأراضى الزلقة حتى صارت عند تخوم الدار، ودارت دورة شبه كاملة حول المكان، وولجت من الطريق القادم من المقاطعة.

انطلقوا تحت جنح الليل يبحثون عن العيون التى أرسلها الأعرابى لترصد تحركاتهم، ابتعدوا عن الدار قدر الإمكان ثم اقتربوا منها من كل اتجاه حتى عثروا على أحدهم، وقبل أن يصدر عنه ما ينبه رفاقه انكبوا عليه وكمموا فمه، وفى لمح البصر ابتعدوا به عن المكان، ودخلوا به الدار من جهة المقاطعة، وبالدهشتهم عندما نظروا فى وجهه.

إنه الابن الأكبر للشيخ عبد الله، ليس أحمد فقط هو الذى يعرفه وإنما الكثيرون من الرجال المتأهبين للمعركة، ولم يكونوا فى حال تسمح بإضاعة الوقت، فلقد استخدموا معه قدرا كبيرا من القسوة ليدل على الرجال الذين معه، كانوا أربعة، وقعوا جميعا ببنادقهم فصار لديهم خمس بنادق إضافية، وكانت من البنادق الحديثة الخفيفة السهلة التعمير والإطلاق.

لم يصمد الرجال الخمسة كثيرا، فأمام أسياخ الحديد المحماة فى النار أدلوا بكل التفصيلات، فالأعرابى يقف هناك فى المضارب منتظرا قدوم أحدهم لإبلاغه بتفصيلات ما اهتدوا إليه من أمر أحمد ومجموعة العمد الذين يناصرونه، ولما كان الليل عند منتصفه فضلوا أن يخرجوا بالأسرى إلى مكان آخر، مكان يحتفظون بهم فيه، ورأوا ضرورة إخبار الشيخ بوقوع ابنه فى قبضتهم، واستقروا على إطلاق سراح واحد من الأسرى لينقل بنفسه نبأ وقوع الابن الأكبر فى الأسر.

مريم هى التى اقترحت أن يذهب الرجل فى حال تبين عما سيلاقيه المهاجمون إذا أقدموا، فلقد اعترف الأسرى بأن الهجوم الوشيك يستهدف حياة الأسرة بأكملها، حتى الطفلين الرضيعين، ومن يتواجد معهم من الرجال، أيا كانوا، وبتأثير من تلك الاعترافات اقترحت مريم -وكانت قد صارت وسط الرجال بلا أى تحفظ - أن يقطعوا أصابع الرجل ويشرطوا وجهه بسكين، وليتمكنوا من فعل ذلك كان لزاما أن يجثموا عليه ليمنعوا صراخه الذى علا حتى لكأنه أسمع كل القرى المحيطة.

ألقوا به قبل أن يصلوا إلى مشارف المضارب فانطلق يعدو كالمجنون، الصرخات تسبقه إلى هناك حيث ينتظر الشيخ، لقد جرى تغيير جذرى على الخطة التى وضعوها وقضوا الأيام يبحثون احتمالاتها، فها هم الآن يحيطون ببنادقهم الخمس عشرة مضارب الأعرابى الرهيب، وها هم بعد أن سمعوا بآذانهم الرجل وهو يبلغ الشيخ من خلال البكاء بما حدث يطلقون البنادق فى اتجاه المضارب، مسترشدين بالأصوات القادمة من البراح الذى يجتمع فيه الفرسان.

أصابت الطلقات البعض منهم، إذ سمعوا أصوات صراخ وصهيل خيول وهرج شديد جعلهم يعاودون الكرة، وكانوا فى هذه المرة يحكمون التصويب، آخر شيء كان يمكن للأعرابى أن يتوقعه هو أن تهاجم مضاربه، وأن يؤسر ابنه الأكبر، الفارس الذى طالما قال للناس إنه لا يشق له غبار، ولكن هذا الفارس الآن أسير لدى الفلاحين الزُّغر، هؤلاء الذين اعتاد هو وكل الأعراب أن يعاملوهم باحتقار، ولعل هذا الأمر بالتحديد هو الذى كان يقتله، ويجعله غير قادر على أن يصدق ما يجرى أمام عينيه.

إطلاق النار تواصل طوال الليل، وكان المهاجمون يغيرون من مواقعهم في كل مرة، إذ ما أن تنطلق البنادق في اتجاه المضارب وفي مستوى إطلاق يتيح إصابة أي شخص أو حيوان يتواجد فوق الأرض حتى يتلقفها فريق التعمير ويبتعد بها قليلا، حتى إذا ما أعادوا تعميرها يكون الرجال قد أخذوا مواضع جديدة ليطلقوا منها.

الأعيرة التي انطلقت من المضارب في اتجاه المهاجمين طاشت كلها، وعندما اهتدى المهاجمون إلى مكان تجمع الخيول وأطلقوا النار في اتجاهها صهلت بشدة وقفزت الحواجز وانطلقت هائمة على وجوهها في قلب الليل، منها ما اهتدى إلى شوارع كفر سعد فاقتادها الناس الذين كانوا يرقبون الحرب من فوق الأسطح إلى حظائرهم، ومنها ما انزلق في أوحال الأراضي المالحة التي تحيط بتل اللجة فتخبطت في الوحل حتى طلع عليها النهار، ومنها ما اهتدى إلى فضاء التل الرحيب فسمرته الذئاب في موضعه تمهيدا للانقضاض عليه، بيد أن الخيول المتوترة الخائفة كانت تستدير طوال الوقت وترفس بأرجلها في الهواء، كأنها تطرد العواء الذي تعلن به الذئاب عزمها على الانقضاض.

مع الفجر ظهرت بوادر الهزيمة في مضارب الأعرابي، قلت أصوات البارود التي تنطلق ردا على المهاجمين، وقال أناس من الحجايزة وكفر سعد وغزالة إنهم رأوا بأعينهم عشرات من الأعراب يفرون في اتجاه أولاد صقر، وكانوا يركضون على أقدامهم بعد أن فرت خيلهم، وتمكن الناس في كفر سعد من الإمساك بعشرة من الفارين ومعهم بنادقهم فارغة، إذ كان البارود قد نفذ من جراء إضطرارهم إلى الإطلاق العشوائي الذي

ظلوا عليه حتى انبلج الصبح، فلقد ركبهم فى الظلام وهم أنهم معرضون لاقتحام المضارب فى أية لحظة، ومن ثم فإنهم كانوا يطلقون البارود عشوائيا وطوال الوقت، حتى نفذت الذخيرة.

مع طلوع الصبح استقر كل شىء، المهاجمون انسحبوا إلى دار أحمد السرسى، وبصحبتهم الأعراب الذين وقعوا فى أيدى أهالى كفر سعد، صار بحوزتهم أكثر من خمس وعشرين بندقية، وأصرت مريم على ربط الأسرى بالحبال إلى مزاود البهائم بالحظيرة الكبيرة، وتقييدهم حتى لا يتمكنوا من الفرار، وعينوا لحراستهم مجموعة من رجال الصهر الطوخى.

قوة صغيرة تتبع الأغا قوامها خمسة أفراد لا غير وصلت مع مقدم الظهر، فلقد أرسل العمد المجتمعون فى مندرة أحمد السرسى مندوبا عنهم ليبلغ بما وقع من الجياصى وعصابته، لم يرسلوا المندوب إلا مع قرب طلوع الصبح لما تأكد لهم النصر المبين، وهروب الأعراب وتشتتهم، و لم يذكروا شيئا عن الهجوم الذى قادوه على المضارب، فلقد عزموا على تصوير الأمر باعتبار ما كان يخطط له الشيخ، وعلى ذلك أبلغوا بقيام عصابة العربان بالهجوم على دار أحمد السرسى بغرض إفناء الأسرة عن آخرها، لولا أن الجيران من القرى المحيطة كانوا هناك، وتمكنوا من القبض على البعض منهم، وليوغروا صدور الحكام على الأعرابى أبلغوا بأن سبب الهجوم هو الاعتراض على الأمر العالى بمنح رب الأسرة الأبعدية المعروفة.

لم يذكروا شيئا عن مصير الابن الأكبر للشيخ والرجال الأربعة الذين كانوا بصحبته، لكن القوات التى يقودها آمر من بقايا المماليك رفضت

استلام الأسرى، وطلب الآمر الاحتفاظ بهم ريثما يصله تكليف محدد بكيفية التصرف في شأنهم.

في المضارب دبت الفوضى في كل مكان، ودار الشيخ الغاصة بالحريم لم ينقطع منها الصراخ طوال الليل، فخبر تمكن الفلاحين من الإمساك بالابن الأكبر ورفاقه وقع على رأس الشيخ وحريمه كالصاعقة، فالرجل قبل أي شيء، لم يكن ليصدق أن الفتى الذي قدم إليهم ذات يوم ليبحث عن علاج لزوجته، والذي تمكن بنعومة من أن يحظى بجواره ويبني دارا ودوارا وحظائر ومناظر، هو نفسه الذي يقف الآن في مواجهته، يقارعه، وينتصر عليه، بل ويقبض على فخر أبنائه ودرة تاجه.

ولعل هذا الشعور بالمهانة والغضب هو الذي أوقع الشيخ في خطأ لم يكن الأغا الصديق في السنبلاوين ليغض الطرف عنه مهما كانت صلته به، فما أن تخطت القوة الصغيرة يتقدمها الآمر المملوكي حدود المضارب متوجهة للحصول على إفادة الشيخ قبل وضع تقرير عن الحادث حتى انطلقت البنادق تهاجم القادمين فسقط الآمر مضرجا في دمائه، ولفظ اثنان من الجنود أنفاسهما في لحظات.

ثلاثة قتلى بينهم ضابط علوي أرداهم غضب الشيخ وغروره وتهوره، وربما لو أنه لم يفعل لما حدث ما تقوله الحكايات التي تناقلتها الأجيال.

أتصور أنهم هناك في دار أحمد السرسي - وقد عرفوا بأمر قتل الآمر وجنديين معه - غمرهم شعور بأنهم كسبوا المعركة، فلقد تمرد الرجل ليس على أمر عال بمنح غريمه الأبعدية، ولكن على الوالي نفسه، وقتل أحد

ضباطه واثنين من جنوده، ولا يجهل المجتمعون في المندرة كيف يكون رد فعل الباشا على مجرد عصيان أوامره، بله أن يُقْتَلَ أحد ضباطه واثنان من عساكره.

في دار الشيخ دسوقي وصلت الأخبار مع انبلاج الصبح، حملها خفراء عاينوا بأنفسهم الهجوم على مضارب الأعرابي، لم تذق أعين النساء النوم حتى لحظة أتاهن خبر النصر، لكن الصغيرين موسى وسيد احمد كانا يغطان في النوم، ترعاهما شام الطوخية، المزهوة برجال أبيها، و لم تتمالك حورية فارتمت في حضن جدتها الأم الخبيرة، وبكت كما لم تبك من قبل، كانت تبكي أشياء كثيرة، تبكي اضطرارها لترك حبيبها وهو يحارب أخطر معاركه، و لم تتمكن من أن تكون إلى جواره، وتبكي فرحتها بنجاته من الخطر المحدق الذى يحيط به، وتبكي خذلان أبويها له وفرارهما من المكان إلى وجهة غير معلومة، ولما رأتها سرية تغرق في الدموع انخرطت في البكاء هي الأخرى، لكن بكاءها كان صامتا ومتدبرا، وتمنت لو تستطيع أن ترتمي في حضن جدتها هي الأخرى، لكنها لم تشأ أن تقدم على ذلك، فلقد منعها ذلك الهاتف الذى يلازمها على الدوام، ويحرمها الحق في أن تبدى ضعفها أمام الآخرين، حتى لو كانوا من أهلها.

والأم الخبيرة كانت وهي تمسح على رأس حورية تدخل في مناطق اجتهدت طوال الوقت لتغلق أبوابها، فالآن، والآن فقط، يستطيع أى خطأ يسير أن يفضح سرهم الرهيب، ويستطيع أى جندى من الجنود أن يسبر غورهم ويكشف سترهم، ويعرف أنهم هم الذين يفرون من وجه الباشا بعد أن قتلوا واحدا من أخلص رجاله.

الذى لم تعرفه الأم الخبيرة أن حفيدها فى هذا الصباح فعل ما كان كفيلا بأن يوقع قلبه فى رجليه لمجرد أن يخطر على باله أن يفعله، هو نفسه أو أحد من أفراد أسرة تواصل على مدى الأيام الهروب إلى الأمام فرارا بأرواحها، ففى غفلة من كل المتواجدين هناك فى داره وجد نفسه مدفوعا برغبة لا تقاوم فى البوح.

دوافعه كانت غامضة، حتى على نفسه، لكن شيئا فى أعماقه كان يدفعه لأن يفعل، فجنود الباشا ورجاله من كافة الرتب سيحيطون به فى الأيام القادمة، وسيمطرونه بأسئلة من كل نوع، أما الأسئلة التى ستوجه إليه والسائل فى مواجهته فيمكنه التعامل معها مباشرة، لكنه لا يعرف كيف ستكون الأسئلة التى ستجرى من وراء ظهره، وقد يفعلون ذلك أيضا مع أحد من أهله، وهذا ليس مكمن الخطر، إذ الخطر الحقيقى يكمن هناك، فى تلك الأروقة الباردة التى سيسألون فيها رجال الإدارة عنه، وبرغم أى شىء يكون قد ربط بينه وبين مجموعة العمد فى صراعهم مع الأعرابى إلا أن الحقيقة سرعان ما ستظهر جلية، لا يشوبها شك، فالفتى الرائع، هكذا سيقولون لرجال الباشا، قدم إلى المنطقة من عامين لا أكثر، وكان قريبا من الأعرابى فى البداية، حتى بدأ الصراع بينهما، وكان له أعمام فى جوار كفر عزام، لكنهم رحلوا.

لن يكف رجال الباشا عن التفتيش فى ماضيه، والبحث عن موطنه الذى قدم منه، وإذا كان للأعرابى أصدقاء من بين رجال الباشا فسيجتهدون لإثبات أى شىء ضده، وسيصلون لا محالة إلى هناك، فى سرس، حيث

لا أحد يعرف شيئا عنهم منذ غادروا، وحيث لا يعرف هو أيضا شيئا عما حدث هناك منذ رحلوا.

الأقرب إليه من العمد هو الحاج سويلم عمدة الحجايزة، وهو فى نفس الوقت الصديق الصدوق لحميه التاجر الطوخى، ومن ثم فلقد فكر أول ما فكر فى مفاتحة حميه فى الأمر، ومن ثم البوح بالسر للحاج سويلم، لكن شيئا ما لم يستطع أن يدركه على نحو واضح جعله يحجم، ربما الخجل من حميه الذى استعمله فى سوق المحلة للوقوف على أخبار المطاردات التى تلاحقهم، والخجل أكثر لإقدامه على الزواج من ابنته وهو يخفى سرا بهذا الحجم، والذى لو كان عرفه الصهر لرفض إعطاءه ابنته بغير حاجة إلى تأكيد.

نعم، لقد ارتكب فى حق الرجل خطأً لا يغتفر، وربما بالإضافة إلى ذلك خجل من الحاج سويلم نفسه، الذى وقفت علاقته به عند حد القطيعة ذات يوم لإصراره على إخفاء السر عنه، حتى وهو يطلب نصرته.

يالمأزق الذى كان يعيشه الجد القديم أحمد "الثانى" فى ذلك اليوم البعيد، ويالحيرته وهو يصرخ من أعماقه بحثا عن سبيل للخروج من الوهدة التى ألقاه فيها قدره العجيب، والذى وضعه وأسرته المكونة من خمس من النساء وطفلين رضيعين فى مواجهة حاسمة مع الحقيقة، وعلى ما يبين لى أنا الحفيد الذى ينتمى للجيل الخامس من نسله فإنه تصرف على نحو لا أملك إلا أن أقف أمامه مبهورا، بل وعاجزا عن أن أصفه بما يليق، فلقد اعترف لنفسه أن إفشاء سر بذلك الحجم وعلى ذلك القدر من الخطورة

ينبغى أن يشاركه فيه أحد، وها هى مريم على بعد خطوات منه، وهى ليست مجرد أم، إنها سليلة نوع من النساء يصعد بهن الزمان حتى أيامه الأولى، ورثت عنهن الحكمة والرزانة والتدبر، حتى صرن مضرب الأمثال فى تاريخ الأسرة العريقة، وإذا كان الظرف لا يسمح بعقد اجتماع للأسرة الصغيرة يتدبرون فيه أمرهم، فإن حكيمة الأسرة وزهرتها تقف على بعد خطوات منه، بل هى على أهبة الاستعداد لبذل الروح من أجله.

حجرتها فى عمق الصالة لم تضمهما منذ فترة، لكنها فى تلك الليلة البعيدة ضمتهما كما لم تضمهما من قبل، أبلغها بهواجسه، وبما انتهى إليه من ضرورة أن يشاركهم أحد سرهم الرهيب، أحد يمكنه أن يصد عنهم غائلة بدت أقرب مما كانوا يتصورون، ففى أية لحظة قد ينكشف السر ويساقون إلى حيث يستأصل الباشا شأفتهم، حتى الطفلين الرضيعين.

وافقته على استبعاد صهره التاجر الطوخى والحاج سويلم، فمن جهة هم فعلا مخطئون إلى حد الإجرام فى حق الرجل، ومن جهة فإن المكان الذى يتواجدون فيه لا يتبع عمودية الحاج سويلم، وإذا ما أراد رجال الباشا أن يسألوا عنهم أحدا فلن يكون سوى الشيخ دسوقى، إذ هو عمدة القرية التى تقع دارهم فى زمامها.

كل الطرق كانت تصب فى اتجاه الشيخ دسوقى، وتساءلا سويا: ألم يفعل من أجلهم الكثير وهم يسعون للحصول على الأبعدية؟، وتراءت لكل منهما فى خياله مضاربهم عند مشارف كفر عزام، والمصير الغامض الذى تاهت فى خضمة بقية الأسرة، وربما شعرا بالندم لإقدامهما على

الحصول على الأرض التى يخوضون من أجلها الحرب، والتى كانت السبب فيما هم فيه.

القرار صائب، لكن لحظة البوح بالسر قاتلة، ارتعد أحمد وهو يسقط فى براثنها، وانبثق العرق من كل مسامه حتى سقط من ذقنه، لكن المفاجأة التى كادت تقتله هى أن الرجل الذى أنصت إليه بكل جوارحه لم يندهش مما سمع، و لم تظهر على ملامحه أية تعبيرات عما يفكر فيه، وبعد أن صمت أحمد تطلع فى ملامح الرجل ليعرف مصيره، لكنه عجز عن الوصول إلى إدراك ما يدور فى داخله، وأخيرا نكس رأسه وانكفأ على إحساس هائل بالندم، وتمنى للحظات لو كان قُطِع لسانه و لم يبح بالسر، وجاءته الكلمات أخيرا محملة بشىء من المرح:

– نعرف أن من ورائك سرا خطيرا يا فتى.

وكاد يصعق:

– تعرفون؟!!.

فأجابه الرجل:

– لم يكن ذلك ليغيب عن فطنتنا.

وبعد قليل من الصمت أردف:

– لكنى لا أصدق بعد أنك أنت ذلك الفتى الذى يوجد اسمه فى جيب كل عمدة فى بر مصر.

حد السيف

الفارق بين ما حدث وما كان يمكن أن يحدث هو المبادرة التي قام بها أحمد السرسي عندما اصطفى بمشورة من أمه الشيخ الدسوقي ليفضي إليه بسره الرهيب، وبرغم اكتشافه أن معظم المحيطين به من العمد - على ما قال الشيخ دسوقي - يعرفون على نحو أو آخر أن من ورائه هو وأسرته أمرا جللا، إلا أن مبادرته بالاعتراف للرجل جعله يبذل قصارى جهده بين رفاقه ليتبنوا قضيته مع الأعرابي، حتى أنهم اتفقوا على حمايته حتى آخر لحظة.

في أول رد على محاولة إثارة التساؤلات حول سيرته هو وأسرته من قبل أصدقاء الأعرابي في المديرية كثف العمد الاتصالات، وصعدوا الأمر حتى بات كل مسئول في المديرية وعلى رأسهم الأغا الكبير يفهمون الأمر على أنه في الأساس تمرد من الجياصي ضد أوامر الباشا، وما عدا ذلك من تساؤلات حول هذا الوضع أو ذاك، أو حول هذا الشخص أو ذاك ليست سوى حواش لا يقصد منها إلا البحث عن سبيل لمنجاة الأعرابي المتمرد، الذي لم يكتف بالاعتراض على الأمر العالي والحرب ضده، وإنما

قتل رجال الباشا وضباطه، فى سابقة قد تغرى بالاتباع إذا ذهبت بغير حساب.

بناء على مشورة الشيخ الدسوقى اختبأ أحمد وراء مجموعة العمد والأعيان الذين يحيطون به، وأجابوا هم بأنفسهم وعلى رأسهم الشيخ دسوقى والحاج سويلم عن التساؤلات التى أثيرت عن أصله وفصله، وفى كل مرة تتضخم التساؤلات أو تصل إلى نقطة حرجة كانوا يعمدون إلى إثارة موضوع تمرد الشيخ وعجز المديرية عن الأخذ بناصيته، والتلويح بتصعيد الأمر إلى ولى النعم.

حفظ الشيخ دسوقى على الفتى سره، وكان عند وعده بعدم الحديث عنه حتى يبوح الفتى بنفسه، حتى صديقه الحاج سويلم، والذى لحظ فى ذلك اليوم انفراد الرجلين ببعضهما البعض، كما لحظ توتر مريم وقطعها المكان جيئة وذهابا لتحفظ على الحديث الذى يدور بين ابنها والعمدة خصوصيته وسريته، اقول حتى الحاج سويلم لم يشأ أن يضع الشيخ دسوقى فى موضع الاختبار فيما يتعلق بذلك السر الذى جمعه بالفتى، وعندما فاتحه صديقه التاجر الطوخى فى الأمر وأفضى إليه بشكوكه حول زوج ابنته، تلك الشكوك التى تضخمت لديه يوما بعد يوم، وشعر من بعدها بفداحة الجرم الذى ارتكبه فى حق ابنته، اكتفى الحاج سويلم بطمأنته، مذكرا إياه بأن دار الفتى وأرضه يقعان فى زمام عمودية الشيخ دسوقى، وأن الأمر لا يخرج عن ذلك، وسيظل الحاج سويلم على عهده بعدم التطرق إلى ذلك السر لأعوام عديدة، وربما يكون قد رحل قبل أن يعرف حقيقة أحمد والسر الذى يخفيه.

شيئا فشيئا صار الشيخ دسوقي هو الذى يتولى الإجابة عن أحمد فى كل ما يوجه إليه من أسئلة، وكذلك فعل الحاج سويلم، ومجموعة العمد الذين اجتمعوا فى مندرة أحمد السرسى، ليتدبروا أمر الخلاص من الأعرابى الذى عاث فى منطقتهم فسادا.

وفى تدبير لا تنقصه الحكمة وجد المأسورون أنفسهم يُحْمَلون على أجنحة الليل معصوبى الأعين، من مكان إلى مكان، ومن بلد إلى بلد، حتى استقروا نهائيا فى دار أحد أصدقاء الشيخ عزام فى قرية شبراهور القريبة من السنبلاوين، وهناك عرف الرجال الذين يحتجزونهم أن الثلاثة المأسورين مع بكرى الأعرابى هم أبناء إخوته، وحالهم لدى الأعرابى لا يقل عن حال ابنه.

لكن الرجال العشرة الذين عرف الأغا بأمرهم، والذين وقعوا فى أيادى أهالى كفر سعد ظلوا حبيسى الحظائر مربوطين إلى المزاود، يتناولون طعامهم وشرابهم كما تفعل البهائم، أيديهم مقيدة وراء ظهورهم وأرجلهم مصفدة إلى بعضها البعض، ومشدودة إلى أوتاد غرست فى مواضع متقابلة تمنعهم من الحركة فى أى اتجاه.

المتطفلون على أسرار معسكر الأعرابى قالوا إن الرجال الذين بقوا إلى جوار الشيخ رحلوا تحت جنح الليل، و لم يبق معه إلا أخوته وأبناؤهم، فضلا عن النساء اللاتى كن يفتتحن النهار بصراخ غريب يشبه الزغاريد، ويستقبلن الليل بنحيب مصحوب بلطم الخدود وحمل التراب فوق الرؤوس، ولما كان ذلك الأمر يفت فى عضد الرجال القليلين الذين بقوا من حوله، فإن المتطفلين قطعوا فيما نقلوه من أخبار بأن الشيخ كان فى

كل مرة تنطلق فيها تلك الصرخات يستل كرباجه السودانى ذا الأطراف المتعددة المسقية بالزيت ويهبط به على وجوههن وظهورهن وأكتافهن، ولكن كل ذلك لم يكن ليثنيهن عن إتمام المراسم التى يفتتحون بها النهار ويستقبلون بها الليل.

الوساطة حملها الشيخ أبو كريمة عمدة كفر سعد، أرسل الأعرابى فى طلبه فلم يشأ أن يستشر أحدا من رفاقه من العمد، حتى لا يثنيه، توجه إلى مضارب الأعرابى، لا يصحبه فى مشواره إلا أحد مشايخ البلد وخفير يضع فى كتفه بندقية قديمة.

استقبلته النسوة بالزغاريد الصراخية والتراب الذى ينثرنه فوق رؤوسهن، وفى الخيمة الكبرى وجد الشيخ ليس كما رآه من قبل، كان فى السابق يتكئ على مساند من القطن ويمد رجليه فى وجوه القادمين أو الجالسين فى حضرته، لكنه هذه المرة يجلس متربعا ويداه معقودتان فوق بطنه الضخم، وشاربه متدل، فمنذ أنهى إليه رجله خبر الإمساك بيكربه وأبناء إخوته أهمل هندامه.

كلابه لم تكن هناك لتمارس هوايتها فى النباح وقطع المشاوير الاستعراضية حول الأسيجة، والأفراس المطهمة التى تزهو بنفسها وبالفرسان الذين يمتطون ظهورها ممنطقين بأحزمة جميلة وعلى أكتافهم بنادقهم المتأهبة للانطلاق لم تكن هناك أيضا، ففى ذلك اليوم البعيد كانت مضاربه بائسة.

الأعرابى الجالس متربعا ويداه معقودتان فوق بطنه العظيم انطلق يذكر

العمدة بما فعله من أجل أهل المنطقة، فهو من يوم أتى إلى المكان امتنع اللصوص عن مجرد التواجد فى محيط كل القرى التى يشملها بحمايته، وهو الذى جعل من منطقتهم مكانا معروفا للحكام، وهو الذى لم يتوان عن نصرة كل من لجأ إليه، حتى ذلك الفتى المداهن الذى استغل جواره ليسرق أرضه، وها هو يحتجز ابنه البكرى وأبناء أخوته، ورجالا من قبيلة هو شيخها أبا عن جد.

والعمدة الذى جلس دون أن يمد يده للجالس هناك فى عمق الخيمة انتظر حتى انتهى الرجل من إلقاء خطابه وسأل فى اقتضاب:

– والمطلوب؟!.

لكن الأعرابى تجاهل السؤال وواصل النسج على المنوال، تساءل كيف يقدر ولد يمكنه أن يسحقه بإصبعين لا غير على أن يضحك على ذقون عمد فى حجم الحاج على أبو سيد احمد والشيخ هيكل والحاج رضوان والشيخ دسوقى والحاج اسماعيل، فضلا عن الشيخ عزام، وأيضا ذلك الرجل الذى رسموه عمدة وهو لا يصلح حتى لأن يكون مشدا، يقصد الحاج سويلم، وتساءل:

– الا تعرفون أن هذا الولد غامض هو وأهله، وربما يكون هاربا من وجه الحكام؟!.

وأردف قبل أن يفتح العمدة فمه:

– ألم تسألوا أنفسكم اين ذهب ذووه الذين كانوا فى جوار الشيخ عزام؟!، ألم تسألوا أنفسكم لماذا فروا؟!.

وصمت، لكن أبا كريمة ظل على صمته هو الآخر انتظارا للمزيد.

الأعرابي يغلى كمرجل، بطنه العظيمة ترتج من فرط الغضب، وصدغاه ينتفخان كأن وجهه سينفجر، وإذ يحلق في وجه أبي كريمة ينتظر إجابة تفتح بابا للحوار أعاد عليه العمدة السؤال:

– والمطلوب؟!.

– أريد ابني، وأبناء إخوتي، أريد رجالي لا ينقص منهم أحد.

أبو كريمة يعرف أن الرجل ليس في حال تمكنه من وضع الشروط لعودة أسراه، وأن المسألة في كل الأحوال ليست إلا مسألة وقت، فلقد أخذ رجال الأوجاقلو الضابط والجنديين القتيلين وذهبوا بهم إلى السنبلاوين، ولن تمر ساعات حتى يعودوا بعتادهم، وحسبما يرى فإن الأعرابي الذي يتصنع التماسك لم يعد معه من يعين على منازلة رجال الباشا، لذا فضل أن يوجه للرجل سؤالا ثانيا:

– وماذا تراك فاعلا بشأن مقتلة الضابط والجنديين؟!.

وصرخ الرجل في وجهه:

– وما شأنك أنت يا بوز الإخص؟.

الكلمات خرجت من فم الأعرابي في غير تبصر، وأبو كريمة الذي يجلس غير بعيد أضمر في نفسه شرا، ولكنه بعد هنيهة رأى أن ينصرف بغير أن يشتبك معه، فلقد أدرك حجم الخطأ الذي ارتكبه في حق نفسه وفي حق قريته، بل وفي حق زملائه من العمد الذين تعاهدوا على نصرة الفتى، ليس من أجله في المقام الأول، ولكن من أجل أنفسهم وقراهم.

خشى أن يحتجزه الأعرابى هو ومن معه ليقايض به ابنه وأبناء أخيه ورجاله العشرة المحتجزين فى حظيرة غريمة، وهو إذا فعل لن يمنعه أحد، فالبندقية التى تقبع فوق كتف الخفير لا تجدى شيئا، فمن تبقى لدى الأعرابى من رجال يحيطون بالخيمة من كل اتجاه، بل إن الكثيرين منهم يجلسون فى معيتهم، أو يقفون من حولهم داخل الخيمة، ولا أمل فى الخروج إلا بالحيلة، وهو مشهور بها بين كل رجال المنطقة، والأعرابى يعرف ذلك، لذا رأى أن يبلغ الأعرابى بأن احتجاز الرجال العشرة هو بأمر من رجال الأغا، وعاد الأعرابى يهدد:

– سأحرق بلادكم من أول بيت وحتى آخر عشة.

ويهدر:

– سأقتل كل نفس فيها.

ويواصل من أعماقه التى تصعد مع بطنه:

– سأجعل من حياتكم مأتما لا ينتهى.

بمكنة أبى كريمة أن يتسم ليعطى الانطباع بعدم اكتراثه بالتهديد الذى ينطلق فى وجهه مصحوبا برذاذ هادر كأنه المطر، لكنه بما جبل عليه من سعة حيلة أطرق إلى الأرض، واغتنم لحظة صمت كان الأعرابى يتلع فيها ريقه وقال:

– حتى لا يخيب مسعاى يستحسن البدء بولدك ورفاقه.

كل دقيقة تمر كانت تؤكد لأبى كريمة أنه اخطأ على نحو لا يغتفر، صحيح أن رجال قريته يحيطون بالمضارب، لكنه ورجليه الآن فى قبضة

الأعرابى، ولا سبيل للخروج إلا بحيلة عظيمة، حيلة تجعل الأعرابى وكأنه خرج ظافرا من اللقاء.

خبرته بالأعرابى هى التى أنقذته، بدأ بأن لوح له بإمكانية إطلاق سراح ابنه البكرى وأبناء أخوته، ثم راح يعمل على أن يجعل من الأمر كما لو أنه فى متناول اليد، وقال كأنه يدخل فى مفاوضات معه:

- ومن يضمن ألا تنتقم من الفتى بعد ذلك؟.

فاندفع الأعرابى غاضبا:

- وما شأنكم به؟!، انفضوا عنه فيعود كل شىء إلى ما كان.

مضى الرجل فى الطريق الذى تمناه أبو كريمة، وها هو يلوح بإمكانية التصالح مع العمد شريطة أن يتخلوا عن الفتى، لكن العمدة الذى اشتهر بالحكمة أبى إلا أن يواصل الشوط مع الأعرابى حتى نهايته، فقال فى حرج متصنع:

- ولكنك بهذا توقعنا فى حرج كبير يا شيخ العرب، فلقد أعطينا الفتى كلمتنا.

الغضب يكاد يذهب بعقل الأعرابى، فهو لم يمر من قبل بمثل ما يمر به فى هذه اللحظة، وهو لأول مرة فى حياته يواجه الهزيمة، لكنه لا يواجهها مع الحكومة أو الوالى، أو حتى مع قبيلة معادية، وإنما مع واحد من الفلاحين الزعر كما يسميهم، والعمدة الذى يحاوره ليس هو الآخر إلا فلاحا أزعر لا يساوى أدم نعجة نافقة من نعاجه، ولكنه يضطر

اضطرارا لإطالة أمد الحديث معه ليطلق أبناءه المأسورين، وقال وهو يكتم غضبه في كرشه الضخم:

- بإمكانكم أن تلحسوها.

وسرعان ما أوضح:

- تلك الكلمة التي أعطيتموها له.

ثم استدرك بعد قليل من الصمت:

- إلا إذا حمل أرامله ورحل عن هنا.

واغراه صمت أبي كريمة بأن يضيف:

- ساعتها لن يكون لي معه ثار.

وأمعن النظر في عيني العمدة:

- ولا معكم.

في ذلك اليوم البعيد دار النقاش بين الرجلين واحتدم، الأعرابي يفرض شروطه للعفو عن الفتى والعمد الذين يناصرونه، وأبو كريمة يمتصه حتى آخر قطرة، ويمد له حبل الحديث حتى يخرج كل ما في داخله، وقرب نهاية الحديث كان النصر ماثلا أمام عيني الأعرابي حتى أن أبا كريمة سأله مختتما الحديث ومتأهبا للانصراف:

- أهناك شيء آخر يا شيخ العرب؟.

فأجابه الأعرابي:

- إطلاق رجالي العشرة، وتغريم الفتى مقابل خيولي التي فرت وسرقها

الزعر فى القرى المحيطة، وأغنامى وأبقارى التى نفقت من جراء إطلاق النار على مضاربى.

وانصرف أبو كريمة دون أن يصافح الأعرابى، مكتفيا بإلقاء السلام.

لم يصدق أبو كريمة ورجلاه اللذان يرافقانه أنهم يخرجون بالفعل من المضارب الغاضبة، وفى كل خطوة يخطونها كانوا يتوقعون شيئا ينال منهم، فعهدهم بالأعرابى أنه غادر، لكنه تركهم يمضون، فلقد كانت الأمانى ماثلة أمام عينيه، وكأن أبناءه عادوا إليه بالفعل، وخشى أخوته ورجاله الذين حضروا النقاش أن يراجعوه فيما يفعل، فهم وحتى اللحظة لم ينسوا أن فشلهم فى قتل الفتى يوم أن كان عائدا من الحجايزة بعد زيارة قبر جدته هو الذى أوصلهم إلى ما هم فيه.

خيم الصمت على العمد المجتمعين فى مندرة أحمد السرسى، ومن كان غائبا منهم أرسلوا فى طلبه فجاء على الفور، وبرغم إنكارهم على أبى كريمة تصرفه إلا أنهم لم يقفوا كثيرا عند ذلك، فرحمة الله أبقت عليه وعلى رفيقيه حيواتهم وحريتهم.

وصلت إلى مسامعهم معلومات حول استدعاء الأعرابى للتحقيق معه بمعرفة الأغا مدير المديرية، بناء على أمر من الجناب العالى إلى المدير فى صورة "معية تركى"(*) لا يحتمل أى لبس، ولا بد أن تكون تلك المعلومات قد وصلت إلى الأعرابى أيضا، وفسر لهم تهاونه مع أبى كريمة

(*) كانت أوامر الوالى المكتوبة فى ذلك الوقت تسمى "معية تركى" باعتبار أن التعبيرات العثمانية لما تزل تطلق على كل شىء، وبعد أن حصل ولاة أسرة محمد على على لقب الخديوى صار الأمر المكتوب يسمى فرمانا.

كل شيء، فأصدقاء الأعرابى وبخاصة صديقه الأغا فى السنبلاوين أعلموه بما جرى ليتدبر أمره.

قالوا إن تصرف الأعرابى لا يخرج عن احتمالين، فإما يفر بمن تبقى معه من الرجال فى اتجاه الصحراء، تاركا مضاربه وأراضى عهدته الشاسعة التى يزرعها من أجله الفلاحون سخرة، وإما أن ينتظر ويماطل حتى يحرر أبناءه، وفى الحالة الثانية فإنهم لا يأمنون تصرفه اللاحق، إذ قد يلجأ بدافع الانتقام إلى مهاجمة قرية من القرى المحيطة وهو ينسحب، ليعمل فى أهلها القتل، ويحرق دورها وينهب دوابها ومخازنها كما اعتاد أن يفعل فى بداية عهده بالمكان، قبل أن يستقر به المقام ويتحصل على الفردة من كل القرى المحيطة بغير قتال.

يعرفون أن المديرية بكل هيلمانها لا تختص بتأديب العربان، وكل ما يمكن عمله تنفيذا لأمر الجناب العالى هو الإرسال فى طلب الرجل للتحقيق معه فى المنصورة، لا أكثر، فإذا امتنع أو ماطل لا يمكن إجباره على المضى معهم، فلقد سبق وأمر محمد على باشا بتشكيل قوات خاصة لردع وتأديب العربان، وكان هدفه من ذلك إقرار الأمن فى الريف المصرى، بمقاومة اعتدائهم على الفلاحين ونهب دورهم وغيطانهم، وبموجب أمر منه تشكلت قوات غير نظامية فى مجموعات يطلق على كل منها لفظ "أوردى"(*)، كل "أوردى" يتكون من حوالى مائتين إلى أربعمائة جندى، ويرأسه قائد تركى يسمى "سرسوارى"، وجميع تلك القوات من راكبى الخيول المسلحين بالبنادق والسيوف، تصاحبهم عند الضرورة مجموعات

(*) تحريف لكلمة "أوردو" أى جيش باللغة التركية.

من رجال المدفعية، بمدافعهم المحمولة على عربات، ومن المشاة المسلحين ببنادق جديدة بعد تدريبهم على النظم الحديثة للحرب.

بل إن شئون العربان بصفة عامة – وليس أمر تأديبهم فقط – أحيلت بموجب إجراءات اتخذها الباشا إلى "سرسوارى أوردى الباشبوزوق" الذى يعسكر فى المديرية قرب المنصورة، ومن ذلك الوقت لم يعد لجهات الإدارة اختصاص بشئون العربان، حتى ولو وصل التمرد إلى حد القتل، فالسرسوارى فضلا عن قيادته للأوردى المختص بتأديب العربان يعد حاكما لعربان المديرية التى تعسكر فيها قواته.

الكل على علم إذن بأن الوقت لا يزال ممتدا أمام الأعرابى ليناور كما يريد، فأصدقاؤه فى المديرية وفى مقر الكشوفية فى المركز يعلمونه بكل شىء أولا بأول، والجميع بمن فيهم الأعرابى نفسه يعلمون بأمر تلك الغارات التى شنتها قوات الأورديان لضبط عربان قبيلة أولاد على الفارين إلى درنة، وتلك التى استهدفت مقاومة الحركات العدائية التى أبدتها قبيلة الجليلات فى بنى مزار، وما حدث من تلك القوات كذلك عندما هاجمت عربان جهمة وأدبتهم واقتصت منهم لتكرار تعديهم على الأهالى.

لكن الأمر بتحريك تلك القوات لا يتم إلا بأمر من الباشا شخصيا، فمهما تحددت المهام وتشكلت لتنفيذها القوات فإن محمد على باشا ظل يحتفظ بكل خيوط اللعبة فى يده، حتى لا يلحق بالأعراب الأذى دون وجه حق، هكذا قال، ويكون ذلك سببا فى إثارتهم ومن ثم شق عصا الطاعة عليه، والجياصى يعلم باليقين أن الإدارة عاجزة عن فعل أى شىء حياله، فرأس الذئب الطائر فيما حدث بخصوص نهب قبيلتى الحرابى

والهنادى(*) دون إذن من الباشا بنفسه يشل أى قدرة للإدارة على فعل أى شىء.

لا مفر إذن من أن يلاعبوا الأعرابى أياما حتى تنطلق من معسكراتها جنود أوردى الباشبوزوق يتقدمهم الأغا سرسوارى، وهو لن يتحرك إلا بعد أن يكتب مدير المديرية للباشا بامتناع الأعرابى عن المثول أمامه للتحقيق، فى واقعتين محددتين أثبتا فى المكاتبات المتبادلة، التمرد ضد أوامر الجناب العالى بمنع الأبعدية لواحد من رعاياه وقتل ضابط وجنديين من ضباط وجنود الجناب العالى، بقصد مصمم عليه.

الوضع فى البلاد متوتر إلى أقصى حد، ومحمد على باشا يقف عند الحافة تماما، فإما يتحقق ما خطط له بإنشاء ملك تكون قاعدته مصر، يتبعها السودان والأراضى التى فتحها فى الجزيرة العربية والشام، والعراق إن أمكن فتحه، وإما ينهار البناء الضخم فوق رأسه، فبرغم أنه لم يتكلم العربية أبدا إلا أنه وبتفكير عبقرى وجد أن وحدة التاريخ واللغة والدين تربط تلك البلدان بما يرشح لنجاح امبراطورية تنشأ منها معا. الشام فى نظره أهم تلك البلدان جميعا لمصر، فحدودها الشمالية عند جبال طوروس تعتبر حاجزا طبيعيا بين الكتلة العربية التى يحلم بتكوين امبراطوريته منها وبين الدولة العثمانية، فضلا عن تطلعه إلى موارد الشام من أخشاب وزيوت ومعادن. إما يكون له ما أصبح فى متناول يديه ولا ينقصه إلا

(*) فلقد حدث أن قامت بعض الأوجاقات بمهاجمة قبيلتى الحرابى والهنادى لتأديبهما دون أن يكون الهجوم بأمر من الباشا شخصيا، ووصلت أخبار الهجوم إلى مسامع الباشا فأجرى محاكمة لقادة تلك الأوجاقات ووصلت العقوبات إلى حد إعدام بعضهم.

المزيد من الخسارة والعمل الدؤوب، وإما الأخرى، وهو ما لن يسمح بحدوثه أيا كانت التضحيات، وهو طوال الوقت لا يغفل عن أن أهم شيء في المعادلة حتى ينطلق إلى هدفه بنجاح هو استتباب الأمن في مصر، قاعدة إمبراطوريته المرتقبة.

شهور العسل بينه وبين الباب العالى ولت إلى غير رجعة، والعداوة بينهما أمست حقيقة يدركها العالم كله، فلقد استغل حاجة السلطان العثمانى إلى إخماد ثورة الوهابيين فى نجد والحجاز بعد فشل ولاته فى الشام والعراق فى إخمادها، وأرسل قواته إلى هناك حيث نجح فى القضاء على الثورة باسم السلطان، وفعل نفس الشيء وأكثر فى مواجهة الثورة التى اندلعت ضد الحكم العثمانى فى عموم اليونان، وعلى الأخص فى شبه جزيرة المورة مهد اليونانيين الأصليين، ووصلت انتصارات قواته فى المواجهات إلى حد الاستيلاء على أثينا ومحاصرة بقايا الثوار الذين كان الأوروبيون المتطوعون يقاتلون فى صفوفهم، ولكنه فى النهاية لم يحظ بامتنان مخدومه ورضاه فى نهاية الأمر.

وكانت معاهدة لندن بين روسيا وانجلترا وفرنسا فى العام 1827 قد استبقت الأحداث ونصت على فصل اليونان عن الدولة العثمانية نهائيا، على أن تبقى للباب العالى عليها السيادة الإسمية فقط، ولما رفض السلطان أرسلت الدول الثلاث أساطيلها إلى شواطئ اليونان استعدادا للتدخل بالقوة، وحاصرت الأساطيل الثلاثة خليج نفارين حيث كان الأسطولان المصرى والعثمانى راسيين فى مياهه، وفجأة وعلى غير استعداد حدث الصدام، وتمكنت الأساطيل الثلاثة من تحطيم الأسطولين، المصرى والعثمانى.

السلطان الغاضب مما حدث لأسطوله أسرع ودعا المسلمين للجهاد، ورحبت روسيا بإعلان الحرب الدينية، ووجدتها فرصة لتنال مآربها في أملاك الرجل المريض، ودخلت قواتها على الفور إلى بعض الأملاك العثمانية المجاورة لها، وحتى لا تنفرد بالتدخل العسكري والتهام الكعكة وحدها سارعت كل من انجلترا وفرنسا إلى التدخل، فنزلت القوات الفرنسية في شبه جزيرة المورة، فيما وصل الأسطول الانجليزي إلى مياه الإسكندرية لتهديد محمد علي في عقر داره حتى يأمر بانسحاب قواته من المورة، وكان السلطان قد طلب من محمد علي أن تشترك قواته مع القوات العثمانية في صد الغزو الروسي.

لكن موقف محمد علي كان حرجا، فلقد تحطم أسطوله في نفارين، ولا قبل له بمواجهة القوات الروسية والفرنسية في وقت واحد، وإذ وجد أن الحكمة تقتضي أن يبتعد عن مشكلة المورة أمر ابنه إبراهيم بالانسحاب من تلك الجبهة، والجلاء عن كل بلاد اليونان، وصعد الخلاف الذي كان شبه كامن بينه وبين السلطان العثماني إلى السطح.

بالبناء على وعد سابق من الباب العالي طلب محمد علي تعويضا عما تكبده من خسائر جسيمة، لكن السلطان الحاقد على واليه لم يبر بوعده، ولم يمض طويل وقت بعد الجلاء عن المورة حتى أتاح عبد الله والي عكا الفرصة التي كان ينشدها محمد علي لغزو الشام، بذريعة رفضه تسليم آلاف المصريين الفارين من التجنيد، أو المهاجرين بأموالهم فرارا من دفع الضرائب أو المصادرة، وكانت حجة والي عكا أنهم رعايا الدولة العثمانية، وأنهم أحرار في الإقامة في أي أرض من أراضي الدولة.

رفع والى عكا شكواه من تهديد محمد على إلى السلطان العثمانى، وأمره السلطان بعدم الاذعان للتهديد فزحفت القوات المصرية بقيادة ابراهيم باشا فى اتجاه الشام، وصدر الأمر الشاهنشاهى بتعبئة القوات العثمانية، وأثناء حصار القوات المصرية لعكا أصدر السلطان فرمانا بعزل محمد على من ولاية مصر، لكن القوات المصرية كانت قد تقدمت كثيرا، ودخلت دمشق وحمص وحماه وحلب بعد أن ألحقت هزائم قاسية بالقوات العثمانية.

وقبل أن يلتقط السلطان أنفاسه عبرت القوات المصرية جبال طوروس إلى آسيا الصغرى، وتقدمت فى الأناضول حتى وصلت إلى قونيه، وعند أبوابها وقع صدام مروع منيت فيه الجيوش العثمانية بهزيمة حاسمة، و لم يعد أمام الجيش المصرى إلا أن يسلك الطريق المفتوح إلى الآستانة، لكن محمد على رأى أن يوقف تقدمه عند كوتاهية.

بقى الجيش المصرى يواجه حرب استنزاف طويلة، فالسلطان يغضبه أن ينتصر عليه أحد ولاته، والقوى الأوروبية مجتمعة وبخاصة انجلترا ترفض رفضا باتا أن تنشأ الامبراطورية التى يأمل فيها محمد على، لكونها تقف حجر عثرة فى طريق الاستيلاء على أملاك رجلها المريض، وأيضا لأنها تشكل تهديدا حاسما لمصالح انجلترا فى الهند بتحكمها فى طريق التجارة إليها، وفى مياه البحر الأحمر التى يعج بسفن شركة الهند الشرقية.

هل كان الأعرابى عبد الله الجياصى يراهن على أن الباشا فى مثل هذا الظرف الدقيق لن يقدم على إغضاب قبائل محاربة مثل قبائل السعدنى كى لا يعودوا إلى الإغارة على قوافل التجارة الإنجليزية وهى فى طريقها إلى

السويس حيث تنتظرها مراكب شركة الهند الشرقية؟، أظنه كان يفعل، فعدم اكتراثه بما ينتظره ينبئ عن فهم للظرف الذى يمر به البلاد ويمر به الباشا، بالإضافة إلى غروره، ورفضه تصديق هزيمته أمام مجموعة من الفلاحين الذين يفتقرون إلى الإلمام بأبسط قواعد القتال.

والأيام توالت، فلا الأعرابى ذهب للتحقيق تلبية لنداء الأغا المدير، ولا قوات أوردى الباشبوزوق يتقدمها الأغا سرسوارى كبست مضاربه، وتواصلت مفاوضات إطلاق سراح أبناء الأعرابى ورجاله بغير انقطاع، وإن عن طريق آخر غير طريق العمدة أبى كريمة.

وشيئا فشيئا خفت الأرجل عن دار أحمد السرسى، وبعد أن كان الناس يكتفون بالقدوم مع مقدم الليل ويقضون شطرا من الليل معه صاروا لا يأتون إلا لماما، أو عندما يُرْسَل فى طلبهم.

أحمد كان أول من تنبه إلى ما يدور، فالأعرابى الذى كان ملهوفا من قبل على أبنائه ورجاله صار يسوف فى المفاوضات هو الآخر، بل إنه دأب فى الأيام القليلة الأخيرة على إثارة موضوعات هامشية من مثل بحث أثمان بقراته ونعاجه، أو الاختلاف على الثمن الذى حدده أحمد لمهرته الصهباء، فى الحقيقة كان الأعرابى يراهن على الوقت، وعلى انفراط عقد الاجتماع الذى أدى إلى هزيمته فى تلك الليلة، وهذا بالضبط ما نبه أحمد إلى أن الأعرابى يستثمر الوقت، لكنه كان خجلا من مناقشة الأمر مع الشيخ الدسوقى أو الحاج سويلم، فكأنه إذا فعل يدعوهم إلى الدخول فى حرب ثانية مع المضارب التى تعاود الاحتشاد بالفرسان، والذين سبق وفروا من ساحة المعركة فى الليلة الشهيرة.

ومريم التى كانت أقرب إلى ابنها من نفسه أدركت كل همومه، فهو لا يش لها ولا لجدته الأم الخبيرة كما اعتاد فى كل وقت، حتى فى أحلك الظروف، وبادرت من تلقاء نفسها بمفاتحة الحاج سويلم فى الأمر، كان معزوما على الغذاء لديهم هو والصهر الطوخى، وبعد أن فرغا من تناول الطعام قدمت للموضوع بالتعجب من قدرة الأعرابى على الصبر على فراق ولده البكرى وأبناء إخوته، فضلا عن رجاله من أبناء قبيلته، ولما انخرط الحاج سويلم فى الضحك من الأعرابى المهزوم حذرته:

– الأعرابى يراهن على من سيضحك أخيرا.

فانسحبت ضحكات الرجل إلى داخله، وران الصمت على المكان.

خبرة الحاج سويلم معها تدعوه إلى أن يأخذ حديثها على محمل الجد، فالكلمات التى قالتها توحى بأنهم نسوا المعركة، وما جعله يهتم لحديثها بأكثر مما توقعت هى أن الشيخ عزام نقل إليه فى الصباح قلق أصدقائه فى شبراهور من استمرار تحفظهم على الرهائن لديهم، هذا فضلا عن أن أحدا من الحكام لم يرسل فى طلب الرجال المربوطين لما يزالون فى الحظيرة، وهو ما يعنى أن مؤامرة من العيار الثقيل تحاك فى الخفاء، ومرور الوقت قد يجردهم من أسلحتهم فلا يعود لديهم شىء يفاوضون الأعرابى عليه.

ما زاد من حدة الأمر أن أحمد سمع فى جوف الليلة السابقة حديثا دار بين رجلين من رجال صهره التاجر الطوخى، كانا يعتليان سطح الحظيرة ويتناجيان، ولا يدريان بأن أحدا يسمعهما، وكانا يتساءلان: إلى متى يظلون هنا، وعن قلقهما على أهليهما هناك فى بلدهم البعيد، ساعتها تمنى لو تنشق الأرض وتبتلعه فلا يعود موجودا فى الحياة، فهو لم يكتف

بالتغرير بصهره، وإنما ورطه فى حرب لا ناقة له فيها ولا جمل، وليته صارحه بحقيقته، إذن لكان قراره بالوقوف إلى جواره ونصرته مبنيا على معلومات حقيقية، لكنه أخفى عنه كل شىء، وتزوج من ابنته بناء على غش لا يمكن إنكاره.

وكان رجال من كفر سعد ممن يعملون فى إصلاح أرض الأبعدية قد أنهوا إليه أن رجال الشيخ الذين فروا من الميدان يعودون، فرادى وجماعات، محملين ببنادق جديدة ويعتلون خيولهم، صحيح أنهم لا يعودون إلا فى جوف الليل، لكنهم يحتشدون فى المضارب حتى أنها عادت إلى الحياة والنشاط بصورة ملحوظة، ولدى أول بادرة للتمرد أوقع الشيخ عقابا قاسيا على الفلاحين الذى يزرعون أراضيه الشاسعة، غير آبه بالقرى المحيطة وبعمدها الذين تجمعوا ضده منذ أيام قليلة ثم انفرط عقدهم.

كل تلك الحقائق وضعوها على بساط البحث فى اجتماع ضيق ضم الشيخ دسوقى والشيخ أبا كريمة إلى جانب أحمد المرسى والحاج سويلم والتاجر الطوخى، وابتعدت مريم عن الاجتماع إذ لم يعد ابنها فى حاجة إلى سعيها، فهى فتحت الباب وأزالت عنه حرج البداية، وهذا يكفى.

فى ذلك الاجتماع اتخذوا قرارات هامة تتعلق بمستقبل وجود الأعرابى بين ظهرانيهم، فالحقيقة التى اعترفوا بها – المجتمعون منهم والغائبون – أن الهجوم الذى قادوه ضد مضارب الشيخ لم يكن يهدف نصرة الفتى الذى اختار العيش بينهم وفقط، بل هو فى الجانب الأكبر انتقام مما فعله بهم الأعرابى على مدار سنين طوال، إذ له فى المكان أكثر من خمس عشرة

سنة، على مدارها فعل بهم كل ما يمكن ان يتخيله إنسـان، وما لا يمكن أن يتخيله أيضا، كبس قراهم، ونهب بيوتهم وأجرانهم وزرائبهم وصوامع غلالهم، وفى بعض الأوقات ومن باب المزاح والتفكه والرغبة فى قضاء سهرة طيبة يسخر فيها من عجزهم كان يحلو له أن يستولى على دواجنهم، هم إذن فى معظم ما قاموا به كانوا يتقمون لكرامتهم التى لطالما أهدرها الشيخ ورجاله، حتى أنهم وهم عمد تلك القرى كانوا يدفعون للأعرابى الإتاوات سرا، وفى معظم الأحيان كان الرجل يضن عليهم حتى بمجرد التظاهر بالكرامة، فيتعمد فضحهم فى مجالسه والتندر عليهم، بل ويغرى بهم من يعرف من اللصوص وقطاع الطرق، حتى صارت أحوالهم قبل مجىء أحمد إلى المنطقة مباشرة لا تسر عدوا ولا حبيا.

وحده الحاج سويلم كان هو الذى رفض دفع الأتاوة، وعبثا حاول الأعرابى كبس قريته، لكنه منى بفشل ذريع، إذ كانت قسوة الحاج سويلم واتساع رقعة عزوته دافعا لأن يجيش الأتباع والخفراء للحراسة طوال الوقت، ما مكنهم من صد الهجوم تلو الهجوم، كما كانت سببا فى عجز الأعرابى عن الحصول على عيون من أهل قريته، فلقد اكتشف الحاج سويلم ذات مرة أن أحدهم يعمل عينا للأعرابى فقبض عليه وسلمه لرجال سملوا عينيه وقطعوا لسانه، وألقوه خارج القرية ليفر إلى غير رجعة، هذا بالإضافة إلى أنه كان بالفعل صديقا مقربا لأكثر من شيخ من شيوخ فخذى السنانجة والفرايات من قبائل السعدنى التى يشغل الأعرابى مشيخة أكبر أفخاذها، المحاليف، وكان يعرف الكثير عن خلافات الشيخ داخل قبيلته، ويستعين بخصومه فيها كلما احتاج الأمر لمواجهته مواجهة حاسمة.

اتفقوا على أن يجتمع إليهم فى الغد كل من يمكن حشده من الرجال، من المقاطعة وأبى داوود السباخ وشبراسندى وبرقين وكفر عزام وكفر غنام وكفر سعد والحجايزة وغزالة، وكل القرى التى اصطلت بنيران الأعرابى على مدى أكثر من خمس عشرة سنة، فضلا عن رجال الصهر الطوخى الذين يشكلون عصب القوات التى يمكنهم حشدها، وذلك ليحثوا إمكانية إنذار الرجل بالرحيل عن المنطقة، من خلال مظاهرة قوة ترتعد لها فرائصه، وإلا يقوموا بالهجوم عليه من جديد، ولا يتركوه ينجو هذه المرة.

سيبعثون إليه بالرسالة مع أحد رجاله، بعد أن يسملوا عينيه ويقطعوا أطرافه كما اقترح الحاج سويلم، الذى كان طوال الوقت يؤكد أن عبد الله الجياصى لا يفهم إلا لغة القوة، ولما لم يكن أحد من الحاضرين يستطيع أن يفعل ذلك أرسلوا فى طلب بعض من أبناء الليل الذين يسكنون قرية الهجارسة القريبة، والتى تتبع مركز كفر صقر فى مديرية الشرقية.

الرجال المطلوبون لم يأتوا إلا مع مطلع النهار، وقبل أن يمارسوا عملهم طلبوا طعاما للفطور، وقدمت لهم شام صينية من النحاس عليها خبز خارج لتوه من الفرن وعسل وجبن وقشدة صابحة، و لم يكونوا قد شرعوا حتى فى تناول الطعام عندما صرخ الرجال من فوق الأسطح.

تهليل وتكبير كأنما انشقت السماء عن الملائكة، أو كأن الأرض مادت بالطغاة والجبارين، وخرجوا لاستطلاع الأمر فراعهم ما رأوا، مضارب الأعرابى لم تعد هناك حيث كانت تثوى فى الجنوب الشرقى، لا أثر للخيام ولا للأسيجة، من كانوا فوق الأسطح هبطوا على عجل، فى محاولة للحاق

بأولئك الذين اندفعوا فى اتجاه المكان الذى كان يعج بالعربان حتى ليلة الأمس، وكانوا كلما اقتربوا يتأكد لهم أن ما يرونه ليس وهما، أو زيغ بصر، مروا فى طريقهم بتل اللجة، الذئاب كانت فى مخابئها انتظارا لمقدم الليل، ووصلوا إلى أعتاب المكان، واندهشوا أكثر، فلقد غادروا دون أن يتركوا شيئا من ورائهم، غادروا بناء على خطة منظمة، ربما استغرقت الليل بطوله، و لم يتركوا حتى مجرد شقفة من بقايا فخار مكسور.

وقبل أن يفيقوا من دهشتهم اهتزت الأرض من تحت أقدامهم، ونظروا فى اتجاه الغرب، فوق الطريق القادم من اتجاه برقين كانت قوات كبيرة محمولة على الخيول تنهب الطريق نهبا، يتقدمهم رجال يرفعون البيارق السوداء، ويجرون عربات تحمل مدافع كبيرة، أخيرا جاء سرسوارى أوردى الباشبازوق، يتقدم قواته المحمولة والراجلة، ولكن بعد أن منحوا الأعرابى فرصة كافية للنجاة.

عزبة أحمد سيد أحمد

فر عبد الله الجياصى، وفى رحلة الهروب داهم رجاله بعض دور كفر سعد، وقليل من الدور عند أطراف الحجايزة، ولم يسلم منه أهالى أبى الشقوق وغيرها من البلدان القريبة التى تتبع مديرية الشرقية، لكنه رحل، وتلك الحقيقة ظلت لأسابيع بل لشهور غير مصدقة، ففى غزالة وكفر سعد والحجايزة وبرقين وكفر غنام وأبى قراميط وأبى الشقوق وأبى العاص والهجارسة وسنجها وشبراسندى وبرقين والمقاطعة وأبى داوود السباخ، بل وفى الربع والسمارة والبيضاء وصدقا والخمسة وكفر سنجاب وتمى الأمديد كان الناس ينامون على حقيقة أن الأعرابى ورجاله رحلوا إلى غير رجعة، إلا أنهم كانوا ينتفضون فى نومهم كالمعتاد، ويستيقظون على أصوات خمش فى أبواب دورهم وحظائرهم ومخازنهم، ويخرجون ليقابلوا السكون فى الخارج، فلقد حملهم النوم المتقطع إلى يقين بأن رحيل الأعرابى ليس إلا خدعة من آلاف الخدع التى تمكن بها من السيطرة على المنطقة بكاملها، والتى أخضع بها كل أثريائها ومساتيرها - إن كان قد بقى فى نطاقها أثرياء ومساتير - لابتزازه، فدرجوا على دفع الفردة التى حددها على كل منهم.

يتذكرون الجرائم التى ارتكبها فى حق كل من قاومه، ثم كل من نوى أو فكر فى مقاومته ووصله خبر النية أو التفكير، فلكم أحرقت دور وزروع على وشك الحصاد!، ولكم سرقت ماشية وركائب أو قتلت قتلا!، ولكم نهبت صوامع غلال ومخازن تبن وأعلاف!، أو أحرقت!، وقبل كل ذلك لكم قتل رجالا!، أخذوا من دورهم وقتلوا بدم بارد ثم ألقى بهم على قوارع الطرق!، لا لشىء إلا لوشاية، نقلها أناس عملوا بالغواية أو بالتهديد عيونا للرجل، فلم يكن فى نظرهم قابلا لأن ينهزم بأى حال.

نعم، رحل الأعرابى، وجاءت قوات أوردى الباشبوزوق يتقدمها الأغا السرسوارى، بزعبوطه الأحمر الطويل وحصانه الأبيض الذى ينخر من خطمه فى اشمئزاز، ومن خلف قواته الراكبة تجر البغال عربات المدافع المستعدة للإطلاق، والتى ما أن رآها الناس حتى تجمعوا من حولها، وطلبوا من الجنود فى سذاجة أن يطلقوها ولو لمرة واحدة، لكن جنود المشاة على الجانبين كانوا حريصين على إبعادهم ومواصلة الدق بأرجلهم فوق الطريق، فى خطوات منتظمة تبعث على الانتشاء.

بحيئ الأوردى لم يكن خيرا كله، فبرغم أنهم لم يطلقوا طلقة واحدة و لم يقبضوا حتى على فروج من مضارب الأعرابى الهارب، إلا أنهم حَمّلوا أحمد السرسى علوفة خيولهم وبغالهم، وطعام عساكرهم الذين يربون على المائتين، كما طلب الأغا السرسوارى مبلغا من المال كحق للطريق، وفى غفلة من ضباطه وجاويشية عساكره همس فى أذن أحمد مخفضا المبلغ للنصف على أن يقبضه بعيدا عن أعين الجميع.

أحمد كان ينتوى الرفض، حرضه عليه العمد الذين هرعوا لاستقبال

الأوردى، والذى لم يروه فى حياتهم من قبل، وحده كان الشيخ دسوقى صامتا، وكان أحمد يعرف أسباب صمته، فهو الوحيد من بين الجالسين الذى يعرف سره. مريم كانت هناك، تضع أذنها على النافذة لتلتقط الحديث، وتعرف ما يجرى، قلبها كان يدق خوفا على ابنها بأكثر مما فعل يوم قتلوا المملوك الهالك، وعندما بلغ الحديث مبلغا رأت ألا يتعداه سارعت بإرسال أحد رجال الصهر الطوخى فى طلب ابنها، وعندما مثل بين يديها ابتسم، يعرف أنها هى التى أرسلت فى طلبه، وأن ما سمعته فى المندرة الكبيرة لم يرق لها.

وكانت قد أرسلت أيضا فى طلب الصهر الطوخى ليشاركهما الرأى، أو إن شئنا الدقة ليشاركهما التنفيذ، وكان يشرف على إطعام الجنود، فلقد كانت واثقة من أن ابنها بما جبل عليه من ذكاء وفطنة لا بد مستمع لنصحها، وفى انتظار قدوم الطوخى قالت لابنها فى حزم:

- سندفع للرجل ما يطلبه، ولا تجادلنى.

لم يعترض أحمد، بل إنه فى الحقيقة سر لقولها، فلقد كان منذ دقيقة واحدة يفكر فى طريقة يفلت بها من حصار العمد الذين يجتمعون فى المندرة، لا يريد أن يتطور الأمر ويدخل فى عداوة مع أحد أركان الحكم، فالسرسوارى القادم بجيشه وكما عرف من الموجودين ضابط تركى أثير لدى محمد على باشا وولده إبراهيم، وموقف الأسرة فى المكان لا يتحمل أى تبعة من تبعات الرفض أو الاعتراض، بل إن أحمد السرسى وهو يتظاهر بالإنصات إلى اعتراضات أصدقائه من العمد وتحليلاتهم كان فى الحقيقة مشغولا بالبحث عن طريقة يدفع بها المبلغ دون أن يعرف أحد منهم، فهو

أيضا لا يريد – وقد فعلوا من أجله كل ما فعلوا – أن يظهر بمظهر الذى لا يستمع إلى نصحهم، وما قد يستتبع ذلك من انفضاضهم من حوله، ومن ثم انقطاعه فى المكان الذى أوشك أن يكون هو وأسرته الصغيرة ركنا من أركانه، وعينا من أعيانه، وهم ولا ريب الذين مكنوه من ذلك، لذا فإنه وما أن قالت أمه ما قالت حتى نظر فى وجهها معاتبا، فلقد كان يحلو له فى الأوقات العصيبة أن يمازحها:

– وكيف سندفع يامريم؟!.

وأشار صوب المندرة:

– وهؤلاء لن ينصرفوا إلا مع انصراف الأوردى، إن لم يكن بعده؟!.

وكأنما انتظر الصهر الطوخى حتى يفرغا من همسهما الحاد فقدم بعد آخر كلمة قالها أحمد، ولم تتردد مريم فى أن تبلغه قرارها، طلبت منه أن يجد وسيلة يسلم بها المبلغ المطلوب للسرسوارى دون أن يدرك أحد من الموجودين، وما أن أبدى الرجل استعداده للاضطلاع بالمهمة حتى أخرجت من بين ملابسها كيسا به المبلغ المطلوب وسلمته له، ولم يتمالك أحمد، فلقد قبض على الكيس وأفرغه، واستبقى نصفه فقط ثم أعطاه إلى صهره، وعندما شهقت مريم خوفا مما فعل ابنها أسر إليهما بما كان من أمر السرسوارى معه.

كل شيء جرى كما خططوا له، مريم وابنها وصهره الطوخى، وبمباركة من صمت الشيخ دسوقى، الذى لم يشأ ان يتطفل على سر يراه جليا كرأى العين، فلقد قدم الأغا السرسوارى من مكان انتظاره خارج نطاق الدار

ليشرف على إطعام جنوده، وبينما هو يدور حول الأسمطة الممتدة والتى يتحلق حولها الجنود الجائعون امتدت يد الصهر الطوخى إلى يده وسلمتها الكيس، وفى غمضة عين عرف الكيس طريقه إلى داخل ملابسه.

حمد الأغا السرسوارى تلك الطريقة التى حصل بها على النقود، فبإمكانه أن يختص بها وحده، فلقد تم الأمر بعيدا عن أعين الجميع، ضباطه وجنوده الذين كانوا منخرطين فى التهام الطعام، والعمد الذين تحتويهم المندرة الكبيرة والذين كانوا يلفظون بما لا يمكنه فهمه من كلمات مبتورة، تأتيه بين الحين والآخر، وكانت نظراته فى مرواحه ومجيئه تنبئ عن عظيم الامتنان.

مع العصر انصرف الأوردى، وعلى الملأ أعلن الأغا السرسوارى أنه لن يصر على أخذ حق الطريق إكراما للعمد الذين استقبلوه فى الصباح بالترحاب، وإكراما للشاب الذى أكرم وفادتهم وحمل نفسه عناء إطعام أكثر من مائتى شخص، وكانوا قد التهموا عجلا كاملا، طقطقت بلحومه القدور فوق الكوانين الجبارة التى امتدت بطول الجرن الكبير.

أوداج العمد وهم يسمعون إلى الكلمات العربية المهشمة التى ينطقها بصعوبة الأغا السرسوارى انتفخت، لكن الشيخ دسوقى كان يتسم فى تفهم، وكذلك كان الحاج سويلم، الذى لم يهضم أبدا تخلى الأغا عن مطالبه لمجرد أنهم قابلوه بما أسره، أو لمجرد أنه وجنوده وضباطه التهموا عجلا كاملا حتى كاد العمد يخرجون من المولد بلا حمص، لكن الآخرين كانوا يتناوبون التعليقات، فمن قائل إنه لم ير فى حياته كلها تركيا

له أخلاق الأغا، ومن قائل إنهم ليسـوا قليلى القيمة ليقبض الرجل الرشا في وجودهم، ومن قائل إن ما حدث يرفع الباشا فى أنظار شعبه ورعاياه، وكأنما يتمنون لو يصل حديثهم إليه، أو إلى ولده إبراهيم.

يومان لا أكثر وعادت إلى الأسرة طمأنينتها، لكن مريم التى لا تعرف الطمأنينة راحت تفتح أبواب الحديث حول كل ما من شأنه أن ينغص عليهم حياتهم، قالت إن رحيل الأعرابى مهما بدا نهائيا لن يكون إلا مؤقتا، إذ سرعان ما سيجد وسيلة لترضية رجال الباشا، حتى ولو بدفع دية القتلى أضعافا مضاعفة، وإذا ما حصل على العفو المنشود فإنه سرعان ما سيعود إلى مضاربه وأراضى عهدته، والتى تحتل مساحة أكثر من خمسمائة فدان، معظمها فى زمام كفر سعد وبعضها فى زمامى الحجايزة وغزالة.

الأم الخبيرة شاركت فى النقاش الليلى، والذى لا ينتهى إلا وقد أذن للفجر، ساعتها يقومون للصلاة ثم يذهبون إلى نومهم محملين بعشرات التساؤلات، حول الاحتمالات التى تصر مريم على إبقائها مفتوحة على مصاريعها. أحمد كان حزينا من أجل أمه، فهى لا تتوقع إلا الشر، ولا ترى فى أية انفراجة إلا مقدمة لعسر جديد، ولا تشم من وراء الصفاء إلا الكدر، ومن وراء الفرح إلا الأسى، و لم لا، وهى ابنة الأسرة التى لم تصادف من وراء أى فرح إلا الحزن، فإذا جاءهم موسى القديم وسطع نجمه فإن انقسام الأسرة وعودة الجدة الكبرى بأبنائها من "مصر" يقبع فى الخاتمة، فالحزن دائما موجودا هناك لمن يحد بصره ويرى من وراء الأحداث القريبة الظاهرة، وعندما تفتحت زهور الالتزام وحصلوا على نصف مساحة سرس كان المهتار القديم فى انتظارهم، يحصل على النصف الآخر

نعم، كان الشيخ أحمد متأكدا من أن أولاده موسى وإبراهيم ومحمد الطوخي والسيد يعلمون عما جرى في غيطان كفر سعد الكثير، لكنه لم يشأ أن يفاتحهم حتى يمر اليوم الذي كان ينتظره لأعوام، فبإمكانه الآن أن ينفذ ما انتواه من الانعزال عن زوجاته لبعض الوقت، فكل أربعة أسابيع ينعم بنفسه أسبوعا، يقرأ فيها كتبه ويسامر فيها أمه وجدته، والأهم، يجلس فيها مع أبنائه ويتابعهم، فلعله ينجح في إحداث الوئام بينهم بدلا من الخلف الذي يرى بعينيه بوادره، وبإمكانه أيضا أن ينعزل بموسى وسيد احمد ويضع حدا للتوتر الحادث بينهما، وهو سيمهد من اليوم لذلك، وأول شيء فعله هو منعه سيد احمد من الذهاب إلى الغيطان لرؤية ما يجرى هناك، فلقد شعر بأن فكرة الذهاب لم تكن خالصة لوجه الفضول، واشتم فيها رائحة الرغبة في البحث هناك عن آثار أخيه.

مريم سبقته ورأت أن تنفرد بالولدين الواحد بعد الآخر، فإذا كان ابنها يفضل التعامل مع المشكلة وكأنها ليست قائمة فإنها تستطيع أن تنهض بالمسألة بنفسها، وتفرغ الصدور المشحونة من توتراتها، والقلوب المشغولة من عللها التي لم تصل بعد إلى حد المرض، استغلت الغضب الذي ووجه به سيد احمد لمنعه من الذهاب إلى غيطان كفر سعد واصطحبته إلى صحن الدار القديمة بحجة مراجعة الخزين، وفيما هي تفحص علب السمن والكسبة والطحينة وأقماع السكر وبلاليص العسل توقفت فجأة ثم نظرت إليه، أدركت خلجة في وجهه فسألته:

– لماذا أردت الذهاب إلى هناك؟!.

وفاجأه الســؤال، لكنه سرعان ما تمالك، وأجاب:

– لا لشيء بعينه.

لكنها عادت لتفاجئه:

– أتظن أن لأخيك يد في الأمر؟!.

وأسقط في يده، وغضب من نفسه، فهو لم يكن مكشوفا أمام أبيه فقط وإنما أمام جدته أيضا، وهذا يعني أن التخفي وراء أمور عادية في هذه الأسرة لم يعد يجدي، وتساءل: ما الذي جعلهما يفطنان إلى أنه معني بالبحث وراء أخيه، وفكر في سؤال جدته، وحذرته خبرته بها من الاستهانة بذكائها، فلكم جرب ذلك الشيء ووجدها هناك في آخر النفق تطل عليه في سخرية وهو عريان، لكنه استطاع أن يجد كلمات يقولها:

– لا أكن لأخي إلا الحب.

فابتســمت لقوله وهي تواصل حصر الحزين، لكنها توقفت فجأة ونظرت في وجهه المرتبك:

– الحب ليس مجرد كلمة.

وواجهته:

– وأنت في الفترة الأخيرة لم تعمل كأنك تحبه.

ووجد نفســه مضطرا لأن يقول:

– وهو أيضا يا جدتي، لم يعمل كأنه يحبني.

فرفعت سبابتها في وجهه:

- هناك ما يستوجب أن نناقشه معا.

وانصرفت إلى الأرفف التى تحتوى الخزين وأردفت:

- بعيدا عن أبيك وعن باقى أخوتك.

وتوقفت قليلا قبل أن تستدير إليه:

- أنا وهو وأنت فقط.

فى المندرة الكبيرة كان الشيخ يجلس إلى أبنائه الباقين، لم يتغيب إلا سيد احمد، ولأنه يتوى أن يصل إلى حقيقة ما حدث أثناء الليل ولكن بطريقة ناعمة تحاشى ذكر أى شيء عنه، بل إنه حتى لم يسأل عن الأحوال التى دعتهم إلى المبيت فى الغيط فى حين لم يكن هناك أعمال ملحة تستدعى ذلك، وهو السؤال الذى توقعه الجميع وأعدوا العدة للإجابة عليه، بل وراجعوا الإجابة مع بعضهم البعض حتى لا يختلف أحد منهم عن الآخر، وتذكر الرجل وهو يسامرهم أن موسى انصرف ليلة أمس من مندرة الشيخ هيكل فى كفر غنام، وغاب قرابة الساعة، وعندما عاد كان وجهه متغيرا، كان مطمئنا على نحو أو آخر، وعلامات الظفر تعلو وجهه، وهم كانوا شبه واثقين من أن التحقيق العرفى سينتهى إلى خذلانهم.

شيء آخر حدث بالأمس أدركه الشيخ مؤخرا، فالسيد الذى أصر إلى حد البكاء على مرافقتهم إلى كفر غنام لم يكن بصحبتهم فى رحلة العودة، من موقعه على الأريكة فى مواجهتهم تعجب: أيكون قد ابتعد عن أبنائه إلى هذا الحد؟!، وتساءل بينه وبين نفسه: أى تدبير دبرتموه يا أبناء حورية؟، لكن شيئا مما يدور فى رأسه لم ينعكس على صفحة الوجه

الوقور، والذى ظهرت لحيته الرمادية بصورة تنبئ أنه سيطلقها، وهذا ما دفع موسى لسؤاله:

– هل تترك لحيتك يا أبى؟!.

وابتسم:

– ما رأيك؟.

فانطلق محمد الطوخى:

– ستكون جميلة يا أبى.

وتنهد الرجل فى ارتياح:

– أما وقد أصبح لزكية ولد فإننى أكاد أسمع نداء جدى الأكبر الشيخ موسى السرسى وهو يقول، الدنيا لا تغنى عن الآخرة يا أحمد.

وسأل السيد فى شغف:

– أو كان ذا لحية يا أبى؟.

فمد الشيخ يديه وأدناه منه:

– وأية لحية!، تقول جدتكم الأم الخبيرة إنها كانت عظيمة ومهيبة، رمادية يختلط سوادها ببياضها، وتحيط بوجهه كما تحيط الهالة بالبدر.

وتحمس سليمان:

– إحك لنا عن قتل المملوك القديم يا أبى.

وابتسم الرجل فى رضا:

– لا حاجة بنا للحديث عن القتل اليوم يا بنى.

وليطيب خاطره أردف:

– أعدكم بأن أحكيها عما قريب.

واستدرك:

– ربما في سبوع أحمد الضبع.

واندهش الأولاد:

– أتقول الضبع يا أبي؟!.

فضحك كثيرا:

– أي والله، أصرت أمه على أن تطلق عليه اسم أحمد الضبع.

وضج الأولاد بالضحك، وعندما تجهم موسى صمتوا، وقال الشيخ متوجها بالحديث إليه:

– أتستكثر علينا لحظة صفاء يا ذئب الغيط؟!.

ولم يغضب موسى، إذ كان أبوه ينعته بذلك على الدوام، وبالأخص عندما يكون قريبا منه، واضطر موسى إلى القول:

– خشيت أن يغضبك ضحكنا.

وتنهد الشيخ بصوت مسموع، وأدنى منه سليمان والسيد، ثم انحنى وقبل رأسيهما، وكذلك فعل مع إسماعيل الصغير، بعد أن رفعه ووضعه على رجليه وأخذ يؤرجحه في الهواء:

– حج حجيج وبيت الله

والكعبة ورسول الله

حميدة ولدت ولد

سمته عبد الصمد

مشته عالمشاية

خطفت راسه الحداية

حد حد يا مكلوبة

يا خطافة اللمونة

ورفعه بقدميه:

– طازة طازة طازة يا ملوخية.

والطفل الذى خاف بشدة لما رفعه أبوه برجليه فى الهواء عاد ليغرق فى الضحك عندما رأى أخوته جميعا يضحكون.

هكذا كانت بداية الخطة التى وضعها الشيخ للم شمل أسرته، صحيح أنه أدرك غياب سيد احمد لكنه لم يشأ أن يلفت الأنظار إلى غيابه، ولما كان سيد احمد فى ذلك الوقت مع جدته مريم فى حجرة الحزين، وكانت تنفرد به كبداية لتنفيذ خطتها هى الأخرى، فإن التكامل بين رؤيتى الأم والابن أعادت إلى الأسرة المضطربة زخم أيامها وجمال حضورها ورقة حواشيها، وانطلق من قلب الشيخ غناء جميل كان قد احتبسه خلف التجهم والنكد والصراعات التى فرضت نفسها عليه.

اقترب النهار من الانتصاف، كانوا فى انتظار قدوم أهل العمة زكية من كفر عزام، لكنهم فوجئوا بقدوم الصديقين الشيخ عزام والحاج سويلم،

ودهش الشيخ لقدومهما، فهو لا يصدق أن تعود المياه بينهم إلى مجاريها بهذه السرعة، أو أن الحاج سويلم سيغفر له خطأه الكبير في القبول بانعقاد مجلس الصلح بعيدا عن عرينه، لكن ها هما بالفعل، والعمال أمسكوا بمهرتيهما واصطحبوهما إلى الحظائر، وضج صوت الحاج سويلم بالضحك وهو يقول:

– طفل جديد يا شيخ أحمد؟!، أتريد أن تقسد علينا نساءنا؟!.

لكن الشيخ عزام سارع إلى القول:

– نحن أخوال هذا الطفل يا رجل، فهل تستكثره علينا؟!.

وصادق الحاج سويلم على قوله:

– طيب يا سيدى، يا بخت من كان النقيب خاله.

الانفصال

ما تلى ذلك ترصده الحكايات فى بضع جمل قصيرة، لكنها من الإيحاء بحيث تعطى للخيال الفاعل القدرة على رواية التفاصيل الدقيقة ورؤية النفوس وهى تتقلب بين الإقدام والإحجام، بين الفعل ورد الفعل، وبين الاتصال والانفصال.

دعونا أولا ننتهى من حكاية القدوم المفاجئ للعمدتين الصديقين الشيخ عزام والحاج سويلم، فهما لم يأتيا للتهنئة بقدوم المولود، وأنى لهما أن يعرفا و لم يمض على قدومه إلى الدنيا إلا بضع ساعات؟!، ولكنهما قدما بطلب من السمدانى، فهو يتهم الشيخ وأولاده بأنهم وراء ما حدث لرجله، خطفوه من المضارب وعذبوه وقطعوه يده ولسانه، كما بتروا أعضاء رجلى المنسر اللذين شهدا لصالحه فى الجلسة العرفية وألقوهما مع قريبه فى جواره، وهذا تعد شديد وخرق للهدنة التى لم يجف مدادها بعد، حتى أن عقدى البيع الموقعين من الطرفين لما يزالا فى حوزة الشيخ هيكل و لم يستردهما بعد. أصابت المفاجأة الشيخ أحمد بالدهشة، فهم بعد أن عادوا من كفر غنام لم تذق أعينهم النوم، زوجته كانت متعثرة فى

ولادة طفلها، و لم يحدث الميلاد إلا مع صلاة الفجر، فمن أين لهم الوقت لتدبير ما يدعيه الأعرابى من خطف وبتر أعضاء وقطع السنة؟!.

الشيخ عزام جنح إلى تصديق رواية الشيخ أحمد، وبالأمس حيث كان عضوا فى لجنة المصالحة فى كفر غنام كان ميالا أيضا إلى تصديق ضلوع السمدانى فى مؤامرة الهجوم على العزبة والغيطان، لكن الحاج سويلم أطرق إلى الأرض مبتسما، شىء بداخله يوحى إليه بأن وراء الأكمة ما وراءها، وأن الوقوف عند حدود المظاهر لا ينبئ عن حقيقة، و لم يشأ أن يرفع عينيه فى وجه صديقه حتى لا يضطره إلى الخجل، وبطبيعته المدققة أدرك أن الشيخ ربما لا يعلم شيئا يقينيا، ولكنه على كل حال يدرك أن لأبنائه وبخاصة ذلك الفتى الجالس هناك عن يمينه يد فيه، ورفع عينيه فالتقتا عينى موسى اللتين تلمعان بالظفر، واضطر للابتسام فى وجهه فبادله الفتى ابتسامة حيية، مع إيماءة خضوع لا تخطئها العين.

كل ما يخشاه موسى هو أن يتوجه الضيفان إلى مندرة الغيط ليعاينها، وهناك يعثران على آثار المذبحة، متحققة فى كل مكان فيها، فهو منذ جاء إلى العزبة لم يعد إلى هناك ليرى ما إذا كان الرجال قد أزالوا كل الآثار. لم تخطئ عينا الحاج سويلم اضطراب الفتى، اختلاجة يسيرة فى صدغيه أخفاها بالضغط على أسنانه، كأنه يعنف نفسه، لم يكن الشيخ ليغفل فطنة الحاج سويلم وذكاءه الوقاد، ورأى أن يتجاذب معه أطراف الحديث ليصرفه عن متابعة ابنه، فالآن، والآن فقط، وبعد ما رآه بعينيه لم يعد الأمر مجرد شك، فموسى وبقية الأبناء عدا سيد احمد وسليمان وإسماعيل الصغير لهم أياد فيما حدث للرجال الثلاثة، ولكن كيف كان ذلك؟!.

الضيفان أرادا الانصراف، لكن الشيخ أقسم ليقيان لتناول الغذاء، وضحك الحاج سويلم:

- ويتهمنا السمدانى بالانحياز إليك؟!.

وكان رد الشيخ جاهزا:

- أو يغير الطعام من هو فى مقامكم يا كبير العمد؟!.

وضجوا بالضحك، حتى الأبناء الذين كانوا جالسين فى المندرة الكبيرة، وحتى موسى الذى أزالت الفكاهة المتبادلة بين أبيه وبين الحاج سويلم الشىء الكثير من توتره.

بعد الغذاء انصرف الرجلان على وعد بأن يتركا هو ومساعد السمدانى العقدين اللذين وقعاهما للتحقيق فى الواقعة السابقة لدى الشيخ هيكل ويجريا التحقيق من جديد حول الواقعة الراهنة، ولأول مرة يرى الشيخ أحمد فيما حدث للرجال الثلاثة نفعا، فهذا هو مساعد يطلب الجلوس معه ثانية ويلح فى طلب ذلك، وربما يكون راغبا بحق فى إنهاء حالة العداء التى بدأها بنفسه، فلقد تأكد له أن التكلفة لن تكون هينة، ولكن ما يجعل عقل الشيخ يكاد يحترق هو السؤال الذى لا ينفك يطرحه على نفسه: هل وصل الأمر بأولاده بالفعل إلى الدرجة التى يقدمون فيها على هذا الفعل؟!، هل يقوون على قطع أرجل خصومهم وأيديهم وألسنتهم؟!، وعاودته ذكريات قديمة، واستعادت أذناه صوتا قديما كان قد نسيه أياما، صوت سن البلطة القديمة وهى تشق لنفسها طريقا فى دماغ المملوك القديم، ووجد نفسه يقول:

- نعم يقدرون.

البحث عن موسى بعد انصراف الضيفين كان متوقعا، لذا فإن موسى اصطحب أخواه إبراهيم ومحمد الطوخى وقصدوا إلى مندرة الغيط، وهناك وجدوا الرجال وقد قاموا على تنظيف المكان بحيث لم يعثروا على أثر لما حدث، وملابسهم التى غسلوها فى البوهية كانت قد جفت وارتدوها، والدم المتجلط فى المكان والذى تشربه التراب أزالوه عن آخره، دفنوه فى تراب حافة الخندق وغطوه بأتربة جافة، ثم رشوا فوقها الماء لإخفاء معالمها، أما طرطشات الدم التى طالت الجدران فقد كشطوها حتى زالت تماما، وقاموا على فرش الأرائك وغسلوها فى ماء البوهية أيضا، وقبل أن يؤذن للظهر كانت قد جفت وأضحت جاهزة للفرش من جديد.

لا تقول الحكايات إن موسى أخبر أباه بحقيقة ما حدث فى الليل عقب عودتهم من كفر غنام، ولا أخبره عن كيفية اصطياد الأعرابى البائس الذى قطع يده ولسانه بنفسه، لكننى أميل إلى تصديق ما قاله أبى:

- لا بد أنه أخبره.

تمعن كثيرا فى سؤالى قبل أن يجيب، وعاد إلى صمت متدبر ثم أردف:

- شيء مثل هذا لا يمكن إخفاؤه.

وكما لو أنه يضيف حجة أخرى:

- وإذا لم يقل هو فسيقول غيره.

لكن ما حدث بعد ذلك واستجابة الشيخ أحمد لما طلب موسى تقطع

بأنه عرف بكل ما جرى، وهذا محض اجتهاد منى وليس منسوبا إلى أحد ممن تلقيت عنهم حكايات أسرتنا.

تريثوا حتى يمر سبوع الطفل الجديد أحمد الضبع، وحتى تفرح زكية بمولودها، وغصت العزبة بأنساء الشيخ الذين قدموا من كفر عزام يهنئون بقدوم المولود وبزوال الغمة، وقدم معهم أطفال وأولاد فى عمر بعض الأبناء فتحولت العزبة الهادئة إلى كيان حقيقى فيه من التنوع ما يغرى بالمتابعة والرصد، وتعلم أولاد الشيخ ألعابا لم يسمعوا عنها من قبل، فلقد علمهم أطفال وصبية كفر عزام التحطيب والحمارة الطويلة وطاحت وأولها خرة والبطة والطاقية فى العب والعشرة والعشرين وعسكر ومنسر والاستغماية وصَلّح، كما لعبت البنات الآل والنطة والطاب وغيرها من اللعبات التى أطارت الألباب، حتى أن الكبار منهم، موسى وسيد احمد ومحمد الطوخى وإبراهيم وسليمان كانوا مبهورين بكل شىء، ولا يصدقون أن الدنيا فيها كل تلك الأشياء الرائعة.

وجاءت ليلة السبوع فرأى الأطفال الجمال قادمة من بعيد، ولما اقتربت رأوا فوق ظهورها رجالا ونساء يجلسون فوق أخراج كبيرة تحمل فى جيوبها الحَبّ والفول السودانى وأقماع السكر والدواجن التى راحت تخرج رؤوسها لتستطلع ما يدور من حولها، ومن خلفهم ربطت عجلة صغيرة إلى عُدّةِ واحد من الجمال، وكانت تمنع وترفض الانقياد، لكن الجمل كان يجرها جرا فتضطر إلى السير بضع خطوات قبل أن تعود إلى سيرتها ويعود الجمل إلى جرها، ذلك المنظر الجميل سينطبع فى عقول وقلوب كل الأبناء، كبارهم وصغارهم، فتلك كانت أول مرة يشعرون

فيها بأن لهم فى المنطقة أقارب يزورونهم ويحملون إليهم الهدايا، كما يفعل الناس فى كل مكان، ولما وصل الركب أناخ الرجال جمالهم، حملوا الأخراج من فوق ظهور الجمال وتسلم أحدهم العجلة وتوجه بها إلى الحظائر، وترجعت فى سماء العزبة زغاريد طويلة طاردت بقايا الكدر فى الأركان.

كل شيء جرى فى تلك الليلة البعيدة كانت له فى عقول وقلوب أبناء الشيخ أحمد السرسى معان جديدة ورائعة، حتى وقائع الاحتفال بالسبوع والتى عاشوها من قبل كانت لها فى تلك المرة معان جد مختلفة، لا تتعلق بالشموع الكثيرة التى أشعلوها، ولا الغربال الكبير الجديد والحبوب السبعة المخلوطة بجريش الملح الخشن، والتى نثروها هنا وهناك، قمح وشعير وفول وعدس وذرة وبرسيم وحلبة، ولا تلك الروائح التى انطلقت تعبق بشذاها أجواء الدور كلها، والتى يحدثها قلى عجوة البلح فى سمن الضأن، ولا رائحة شراب الحلبة والمغات اللذين يتناولونهما منذ يوم قدوم المولود الجديد، لا ولا تلك الأغانى الجميلة التى يغنونها والتى ألهبت حماس الأم الخبيرة فجلست على سريرها دون مساعدة من أحد وراحت هى الأخرى تغنى.

كل ذلك لم يكن هو فقط الذى أعطى لسبوع الطفل الجديد المعانى المختلفة، ولكنها أشياء عدة أسهمت فى إعطائه كل معانى روعته، فى أجواء ذلك اليوم اكتشف سيد احمد أنه كان مخطئا، أسر بهذا إلى جدته مريم وإلى أمه، وكاد يعترف به لأخيه الأكبر لولا ذلك الشىء اللعين الذى

يجعلهما يتواصلان عبر النظرات الشاردة نحو المجهول وليس عبر الكلمات، وفي تلك الأجواء أيضا اكتشف محمد الطوخي أنه قريب جدا من أخوته، وليس كما كان يظن عندما استسلم لغواية النقود التي يعاون أمه في عدها وإخفائها، وأنه يحب موسى أكثر من اى أحد آخر، وفيها أيضا أدرك الشيخ أحمد السرسي أن أبناءه لم يعودوا أطفالا، بل صاروا رجالا يمكنهم الذود عن عزبتهم، بل والفتك بخصومهم إذا لزم الأمر، وأدرك يقينا أن التنافر الحادث بين ولديه موسى وسيد احمد يمكن أن يتحول إلى تناغم يثرى الحياة في عزبتهم الصغيرة، كما اكتشفت مريم أن ابنها الشيخ الذى دخل من أقرب طريق إلى قلوب عمد المنطقة وأعيانها لما يزل في حاجة إليها، وهي التي أعجزها في السنوات القليلة الماضية الإحساس البغيض بعدم الجدوى، وبأنها لم تعد صاحبة السلطة الأولى في أمور العزبة، فلقد صارت بيوتا متعددة بعد أن كانت دارا واحدة.

لكن أهم ما جرى تلك النظرات التي صوبتها لموسى فتاة قدمت مع الركب القادم من كفر عزام، كانت راكبة فوق أحد الجمال وكادت تسقط وهم ينيخونه، أسرع ليمنع سقوطها وامتدت يده ليمسك بها، قسا عليها بقبضته فأرسلت إلى وجهه نظرة خجولة ومتألمة، نظرة جعلت قلبه ينفطر لحاله، ومنذ تلك اللحظة لم يعد الفتى كما كان من قبل، كيف رققت تلك النظرة من خشونة فتى الغيطان فجعلته يسرح في خيالات رحية وطيبة؟!، وكيف حرمت عليه النوم وجعلته يهوى الصمت والعزلة؟!، ويتمنى لو يسافر ليرى كل شيء ويتأمله من بعيد؟!، بل كيف جعلته يحب

كل شيء، ويغفر لكل من أساء إليه، حتى مساعد السمداني؟!، وكيف تاقت نفسه إلى حياة الحضر ورأى في الانعزال في الغيطان شيئا من الجهامة في وجه الحياة؟!.

أول من تنبه إلى التغير الذى حدث له كانت حورية، فالوجه الذى أيقظته في الصباح لم يكن أبدا وجه ابنها الذى اعتادته في السنوات الأخيرة، فيه شيء من العذوبة، أحسن حلاقة ذقنه، جلس بالأمس أمام داوود حلاق والده وطلب أن يزيل شعرها الخشن، ولما استيقظ في الصباح سوى شعره الذى كان على الدوام منكوشا، ابتسم في وجهها ابتسامة لا تخطئ دلالتها أم، وعندما بدل ملابس نومه ارتدى جلبابا جديدا لم يضعه على كتفيه من قبل فبدا شابا رائعا، دمعت لمرآه عيناها، و لم يلبث أن توجه إلى دار عمته زكية متعللا بالرغبة في رؤية الصغير أحمد الضبع الذى لم يتمكن من رؤيته وحمله بالأمس. استمهلته ليتناول فطوره فعاد وتناول شيئا منه وهو واقف على عجل، ثم انصرف إلى مقصده متلهفا.

هناك كانت عمته سرية تقوم ببعض الأعمال، رأته وهو يصفق بيديه مستأذنا في الدخول فابتسمت بطرف عينيها، ليس في العزبة كلها شخصا، رجلا كان أو امرأة في حدة إدراك عمته سرية، هي التي ستلهمه الصواب فيما ينتويه، وطالما هي هنا فلا بأس في أن يجاذبها أطراف الحديث، وفهمت العمة الأريبة مراده فقالت:

– عمتك لا تزال نائمة.

وسوت طرحتها فوق رأسها وأردفت:

– والضبع الصغير يغط في نوم لن يستيقظ منه قبل ساعة.

وضحكت ملء فمها واستطردت:

- أما الضيوف فقد رحلوا مع الفجر.

وعقدت لسانه الدهشة، وهمهم:

- رحلوا؟.

وبرغم أنها سمعت همهمته وأدركت مقصده إلا أنها هبطت إلى صحن الدار لتعلف الدواجن والحمائم التى تربيها زكية وتركته واقفا فى الصالة لا يعرف كيف يعود إلى نفسه.

الجميع كانوا فى تلك الحالة التى وجدوا أنفسهم عليها بالأمس، وأدركت مريم أن الظرف مناسب لتنفيذ خطتها فأرسلت فى استدعاء سيد احمد، جاءها يخطر فى جلباب جديد، طوله الفارع ونحافته البالغة جعلها تتمنى بصوت مسموع لو أنه يقبل على الطعام ليملأ هذا الطول، فسيد احمد لا يحب الطعام، ولا يقبل عليه إلا لسد رمقه وإسكات جوعه، وما عدا ذلك ليس شيئا ذا بال، لا يطلب أبدا أنواع بعينها من الأكل، ولا يفضل طعاما على طعام، كله طعام، فقيره ودسمه، جافه ولينه، ابتسم كعادته وقال:

- ألم تقولى إن الزواج سيفعل ذلك؟!.

أطلقت ضحكة رائعة وسألت:

- أوقعت على عروس؟.

فعابثها كعادته:

- ازيحى موسى من طريقى فأقع على العروس فى يوم واحد.

أخرجت من صدرها تنهيدة حارة:

– يتمنى أبوك لو يزوجكما في ليلة واحدة.

فابتسم:

– يفتح الله يا ستي، زوجوه أولا.

وأدركت أنه في حال تسمح بالمضي في خطتها فطلبت أن يرافقها إلى الغيط، فلقد حان وقت الاجتماع المتفق عليه.

وجدته أمام منبرة الغيط يستمتع بشمس شتوية، جالسا على حصيرة صغيرة ومسندا ظهره إلى مسند قطني يبعده عن صلابة الجدار، لم تعرفه لأول وهلة، وعندما هب واقفا ليستقبلها تعجبت، تبدلت هيئته في يومين اثنين، وتناول يدها ليقبلها فرأت شعره المرجل أسفل الطاقية التي أرجعها إلى الوراء، كان جميلا في ذلك الضحى البعيد، راحت تراجع نفسها فيما ظنته فيه، فلكم ظنت أنه نبت خشن لا يصلح إلا للغيطان، وهي الآن ترى حفيدا رائعا، يرتدي جلبابا صوفيا رماديا ويضع على رأسه طاقية من الوبر، وفي بنصر يده اليمنى خاتم من الفضة بفص رائع من العقيق الأحمر، وعند حافة الحصيرة بصطف مركوب من جلد السختيان الأحمر، لم تره لديه من قبل، وإذ رآها تنظر إلى هيئته متعجبة قال:

– ذهبت إلى السيلاوين، وعرفني صديقي حسن الكفراوي برجل له خان لبيع المراكيب يدعى أبو ستة، وقطعت هذا الجلباب من خان اسماعيل السروي وفصلته لدى العبادي الخياط.

جلست، و لم تجد إلا أن تقول:

– إذن فأنت من يجب أن يشترى الكسوة للأسرة.

جذبته من يده لتجلسه، كان عازفا عن الكلام منذ جاء إلى الغيط فى الصباح، وأجبره قدوم جدته على الحديث، فها هى تأتى إلى الغيط، وهى لا تأتى إلا لداع لا يحتمل التأجيل، وتساءل: ترى ما الداعى لقدومها؟!، ولم تتركه كثيرا لتخميناته.

يعرف أن جدته حصيفة، وقائدة يندر وجودها، لكنه لا يتصور أنها لا تزال تحمل فى قلبها هموم أسرتها الكبيرة، الدور الأربعة ونسائها وفتيانها وأطفالها، ونظرت فى عينيه الصافيتين تنتظر كلمته فأجابها:

– فات الوقت يا جدتى.

واطرق إلى الأرض آسفا، نحى طاقيته فظهر شعره المرجل فاحما، ومن أعلى رأسه تراقصت أهدابه الطويلة فخيل إليها أنها مبللة بالدموع، وبدلا من أن تتكلم هى انطلق يقول:

– سيد احمد ليس أخى الأصغر كما تقولون، هو قرينى ورفيق عمرى، ما بيننا بضعة أيام لا تستأهل ذلك القيد الكبير الذى تضعونه فى عنقه.

ورفع رأسه:

– لا أطلب أن يعاملنى على أننى أخوه الأكبر، أنتم الذين تطلبون، فإذا كان يستثقل فرضكم فإن العقل هو من يكون صاحب الفرض فى هذه المشكلة.

تساءلت مندهشة:

– تقول مشكلة؟!.

أجابها متحديا:

– نعم يا جدتى، مشكلة، وإذا شئت الدقة هى مشكلة كبيرة، قد تذهب بكل العرى بين الأخوة.

راحت تتمتم:

– لا حول ولا قوة إلا بالله.

وكان مصمما على المضى قدما:

– اتفقنا أن العقل هو صاحب الفرض فى هذه المشكلة، والعقل يقول إن استمرارنا أنا وهو فى نفس المركب سيغرقها، فلا هو سيرضى بأن أقود المركب، ولا بأن يقودها هو، وإن صار لها رئيسان تغرق، إذن...

وصمت قليلا فكاد قلبها يتوقف، ووجدته يقول:

– يقسم أبى الأرض بيننا، يعطينى نصيب أمى لأختص به أنا وإبراهيم والسيد، وليأخذ هو نصيب أمه ليختص بها هو وأخوته، وساعتها لن يكون بيننا إلا المودة والأخوة، ولا شيء غير.

لم تكن تعرف أن فتاهم البرى يمكنه الحديث بمثل المنطق الذى تحدث به، فلقد أدهشها كما فعل فى ذلك اليوم الذى أخذ منهم العقود وردها إلى أبيه، واليوم هو مصمم على الفراق ولكن بحجة منع تفاقم الموقف، وهى حجة بالغة الوضوح والصحة، فسيد احمد المتأرجح بين الانصياع لأخيه وبين الاستقلال عنه سينحاز إلى الاختيار الأخير فى النهاية، وبرغم وجاهة الفرض الذى يفرضه العقل كما يقول حفيدها فإن البائس الوحيد فيه لن يكون إلا ابنها، الشيخ الذى بلغ من السن نيفا وأربعين عاما، وبدلا

من أن يخلد إلى الراحة وينعم بثمار كفاحه ها هو يواجه انقساما فى أسرته وهو على قيد الحياة، بل وفى أوج قوته.

رأت عزم الفتى أكيدا، لا يرده شىء، اللهم إلا إذا رفض أبوه، ساعتها ستكون للموال نهاية حزينة، الاتفاق بينها وبين سيد احمد أنها إذا رأت تجاوبا من موسى مع مشروعها ترسل فى طلبه، لم تكن لتجمع الأخوين على لا شىء، ورأت أن تقترح شيئا قريبا مما قاله موسى، بدون قسوة، تعقد اللواء لموسى على أن يكون لسيد احمد الرأى فيما يقوم به، وبخاصة فى النزاعات التى تهم الأسرة كلها، وحسنا فعلت إذ هى اشترت من حفيدها قبل أن تبيع له أى شىء، فالذى قاله موسى لا ينبئ عن نفس تواقة إلى الرئاسة أو السيطرة، وإنما هى همة يراها موظفة لصالح الأسرة، لا يضجر منها إلا سيد احمد، الذى يملك القدرة على استمالتها إلى جانبه هى وأبيه، والذى قاله موسى يقطع الطريق على أى خلاف، ولكن كيف السبيل إلى مفاتحة ابنها فى الأمر؟.

لم ترسل فى طلب سيد احمد كما وعدت، أجهز موسى على مشروعها من الأساس، ورآها سيد احمد عائدة فدق قلبه من الجزع، أتراه رفض أن يسامحه؟!، أتراه توعده فغضبت وغادرت؟!، كل الأسئلة جالت بخاطره المهموم وهو يراها تكاد تنكفئ على وجهها وهى تسير فوق الطريق الضيقة، لكنها وصلت بعد مشقة، وقصدت من فورها إلى دار زكية، وفيما هى تحمل الرضيع بين يديها وجدته شاخصا قبالتها، زكية كانت تمارس أولى خطواتها خارج الدار، فهى منذ رحل ذووها بعد الفجر ملأت حجرتها بكاء، وألحت فى طلب بقاء عز ابنة أخيها لكن أمها

رفضت بشدة، فالدار التى تموج بهذا العدد من الشبان لا يصح أن تبقى فيها فتاة فى سن الزواج، هذا ما قالته، وكانت قد راقبت موسى وهو ينظر لحفيدتها وتخشى إن هى تركتها أن يزداد الأمر رسوخا ويوقع الفتى بها.

زكية احتفظت لنفسها بما قالته أمها عن موسى، فقط صححت لها مفاهيمها الخاطئة، قالت إنه لولاه لكانت العزبة كلها تحت رحمة السمدانى، وأضافت إنها لاتعرف لو أن فتى مثل موسى لم يكن هنا ما الذى كان يمكن أن يفعلوه. كل ذلك لم يشفع لطلبها، واصطحبت الأم العنيدة حفيدتها التى تمنت لو توافق جدتها على طلب عمتها، لكن الجدة التى لاحظت تلكؤها قرصتها فى ساعدها قرصة آلمتها، فانسحبت إلى خارج الدار والدموع تملأ عينيها، ورحلت مع الراحلين، حتى من دون أن تودع عمتها، وبعد أن هدأت نفسها ونظرت إلى الأمر فى روية فهمت زكية الأمر على حقيقته، ورأت رأى أمها، فلم يكن يليق أبدا بالفتاة – هكذا أكدت لنفسها – أن تبقى فى دار تغص بالشبان.

بودها لو استطاعت أن تحكى كل ما دار لحماتها، فمن جهة تقترب منها أكثر إذ تصارحها حتى بما يجمل أن تخفيه، ومن جهة تجس النبض حول رغبة موسى فى ابنة أخيها، فهو ليس مجرد شاب فى سن الزواج، وهو أيضا ليس مجرد شاب قوى مهيب يحسب له الناس ألف حساب، إنه ابن الشيخ أحمد السرسى، كل هذا كانت تعده لتقولها لحماتها، لكن مجىء سيد احمد منعها من الاسترسال، فأرجأت إكمال الحديث إلى وقت آخر، وحمدت لحماتها أن طلبت من سيد احمد أن يسبقها إلى الدار القديمة، إذ خرج الفتى على الفور متوجها إلى حيث قالت، ولكن بعد أن

انحنى بطوله الفارع فوق أخيه الوليد وطبع قبلة رقيقة فوق جبهته الحمراء المليئة بالزغب.

فهمت مريم سر التأنق الذى رأت عليه حفيدها الأكبر، وأدركت أنه مقبل على مشروعات عديدة، كبيرة ومتشابكة، الرغبة فى الزواج والاستقلال والانكفاء على الذات، وكل مشروع منها يكفى بذاته ليستغرق كل وقته، لكنها لم تستطع أبدا أن تفهم كيف لم تلحظ ما لاحظته جدة الفتاة وهى التى كانت محيطة بكل ما يدور فى حفل السبوع، أو هكذا كانت تظن، وتساءلت: أيكون ما قالته زكية صحيحا؟!، أم أنها وأمها تنسجان خيوطا حول الفتى وتلفتان نظره للفتاة؟!، ولم تنكر فى نفسها أنها هى الأخرى انبهرت بجمال الفتاة وخفرها، وبعودها الذى يشبه إلى حد كبير عودها وهى فى مثل سنها، وانبهرت أكثر بعينيها المكحولتين المشروطتين اللامعتين بذكاء أنثوى أخاذ، وتعجبت إن كان الفتى يرغب فيها حقا فلماذا لم يفاتحها أحد فى الأمر، ولكنها سرعان ما أجابت، فالأمر ابن يوم واحد، وربما يكون موسى فى مرحلة استجماع النفس ليرى ما يكون، وساعتها لا بد سيطلب عونها ومشورتها.

فى الدار القديمة كان سيد احمد يجالس أباه، كانا يتجاوران فوق كنبة صغيرة وضعت فى الصالة بين بابى حجرة الجدات وحجرة عمته حورية، وعندما دخلت ساد الصمت، ووضح أن الشيخ يبحث عن وجهة أخرى للحديث، وابتسمت فى داخلها، فما يخفيانه سيكون فى متناولها بعد دقائق، وحتى إذا لم يكن ما تتوقع فإن ما لديها يفوق بمراحل ما يحاول حفيدها وابنها أن يخفياه، وأزاحت الطرحة عن رأسها فبانت جدائلها

منسدلة على ظهرها، فيها ظهرت الشعيرات البيضاء فأعطت الضفائر لونا رماديا، وبعد أن تفقدت الأم الخبيرة في حجرتها سألت:

– أى سر تخفيانه عنى؟!.

وضحك الشيخ ضحكته الصافية، هو أعرف الجميع بأمه، فهى إذا أرادت أن تعرف شيئا تصنعت المزاح وهى فى الحقيقة تقصد ما تقول، ولكى لا يتفاقم الأمر أجابها:

– شأن من شئون سيد احمد سيسعدك.

فسألت مندهشة:

– لا تقل إنه يريد أن يتزوج هو الآخر!.

فأغرق الشيخ فى الضحك، وسأل:

– وهل من آخر يريد الزواج؟!.

فأجابت بصوت ملؤه البهجة:

– ألم تتمنى تزويجهما فى ليلة واحدة؟!.

ونظرت إلى وقع حديثها فى نفسيهما ثم قالت:

– إفرح يا ابن السرسى فموسى هو الآخر يريد أن يتزوج.

وعاد الشيخ ليسأل:

– هل قال من؟، أم طلب أن تبحثى له عن عروس؟.

فأجابت وهى ترقب أطياف القلق تدور فى وجهه وتتقاطر من لحيته:

– لا هذه ولا تلك.

- فزورة؟.

- ابدا، زكية أخبرتني أنه لم يرفع عينيه عن عز ابنة أخيها ليلة أمس.

واغرقت في ضحك قلق وهي تستطرد:

- وأصبح الصبح فإذا به وقد حلق ذقنه ولرتدى جلبابا صوفيا جديدا ووضع طاقية من الوبر على رأسه بعد أن رجل شعره إلى الخلف، ووضع خاتما في إصبعه، وفي رجليه مركوبا من عند أبي ستة.

نزل كلامها على رأسيهما كالصاعقة فأدركت على الفور ما كانا يتحدثان فيه، وحرصا على أن يخفياه عنها إلى حين.

ما قامت به مريم في ظهيرة ذلك اليوم البعيد سيظل في تاريخ أسرتنا من الأسرار التي لم تبح بها إلا قرب رحيلها. تقول الحكايات إنها ما أن أدركت ما كانا يتحدثان بشأنه حتى تداركت نفسها وعادت إلى مرحها، وراحت تقص عليهما ما كان من أمر الفتاة وجدتها، فلقد لّمحت زكية إلى أن الفتاة قد مالت هي الأخرى إلى موسى، وأنها وهي ترحل مع ذويها كانت تتلفت فلعلها تراه في أي مكان، في العزبة أو في الخلاء المحيط.

جزء كبير مما قالته لم يكن له أصل، فقط أرادت أن تقطع الطريق على معركة أخرى بين الأخوين، وبرغم أنها وهي تحكي رأت وجه سيد احمد يمتقع مرة ويحتقن مرة إلا أنها واصلت الحكي، فالمطلوب أن تجهز تماما على أي أمل له في الفتاة التي هفا إليها قلب أخيه، وستظل هذه الحكاية الرقيقة سرا من الأسرار الشديدة الخصوصية في محيط الأسرة القديمة، إلى أن تطلقها مريم من عقالها وتجعلها معروفة، وحتى بعد أن أطلقتها من عقالها

وعَرَّفَت بها احتفظت بخصوصيتها، حتى أنها لم ترد على لسان أحد من أبناء موسى، وصارت من خصوصيات أسرة سيد احمد، تقولها عنهم جدتي لأبي انتصافا لجدها سيد احمد «الثالث»، ويرددها أبي تحقيقا للتوازن الذى صرحت به فى الرواية الأولى «الخروج»، فلقد كان ينتمى إلى كلا الرجلين، موسى «الثانى» وسيد احمد «الثالث».

لم يعرف موسى أبدا بما دار بين جدته وأبيه وأخيه، فقط نقلوا إليه خبر حديث جدته مع أبيه حول مسألة إعطائه وسيد احمد أرض أبيهما ليتخفف منها، وليكون كل منهما مسئولا عنها، سواء تلك التى استصلحت وتمت زراعتها، أو الأخرى التى لا تزال تحت الإصلاح.

وكانت بعد انصراف سيد احمد الجريح قد فاتحت ابنها فى الأمر، على أنه من عندها هى وليس من لدن موسى، وكان ذلك التصرف منها هو الذى ساعد على أن يوافق الشيخ، ولكن بتعديلات، كان لما يزل واقعا تحت صدمة ما قصته عليه وعلى سيد احمد من أخبار رغبة موسى فى الزواج من عز فاستمهلها أسابيع ليضيف إلى الاقتراح التعديلات التى تدور فى ذهنه ولا يستطيع التعبير عنها فى ذلك الظرف.

تقول الحكايات إن سيد احمد سرعان ما تجاوز محنته وقتل فى داخله أية رغبة فى الفتاة التى اختارها أخوه لنفسه، وعندما اصطحبه أبوه ذات يوم إلى شبراهور ليريه فتاة هى ابنة أحد أصدقائه امتثل لمشورته، وأصر على اصطحاب موسى معهما، حتى إذا ما رأى الفتاة ورأى فى عيون أبيه وأخيه الأكبر أنها مناسبة أعلن أنه يقبل بها زوجة، لكن الشيخ رفض الإعلان عن رغبة ابنه قبل أن يعود إلى داره ويستشير أمه وجدته الأم الخبيرة، ويستشير

سرية التى أرادت أن تصاحبهم ولكن رغبتها ووجهت بالرفض، خشى الفتى أن تتعارض رغبة أبيه مع رأى أمه فى الفتاة، وقبل أن يغادروا إلى شراهور انتحى بأمه جانبا وانحنى يقبل يدها، ثم طلب منها فى أدب أن تبقى فى الدار ولا تذهب معهم، ومن بين دموعها - إذ كانت تدرك أزمة ابنها الحقيقية - وافقت على البقاء، واحتضنت ابنها طويلا لتسرى عنه.

فى الأسابيع التالية حدث كل شىء، تزوج الولدان فى ليلة واحدة، ودخل كل منهما بعروسه، موسى فى الدار القديمة حيث أفردوا العز حجرة مستقلة، وسيد احمد فى دار أمه حيث أفردوا الفاطمة حجرة مستقلة أيضا، على وعد بالبدء فى بناء دار جديدة لكل منهما فى القريب العاجل. فى تلك الليلة الشتوية البعيدة أضيف إلى الأسرة فتاتان كانتا تتنافسان فى كل شىء، حتى فى التباهى بزوجيهما، لكنهما سرعان ما انخرطتا فى أجواء الأسرة وتشربتا عاداتها وتقاليدها ومعتقداتها الخاصة، وعندما كانت إحداهما تفعل شيئا كانت ابنتا العم حورية وسرية تجتمعان لتقررا كيفية التصرف حيال ذلك، و لم تفلح واحدة منهما فى إثارة الفرقة بين ابنتى العم أو بين الأخوين، والتزمتا جادة الصواب، وسرعان ما حملت كل منهما فى مولود سيرى النور عما قريب.

تسلم موسى وسيد احمد الأرض التى أعطاهما إياها أبوهما، فبعد إجراء حسابات معقدة انتهى الشيخ إلى عبثية الفكرة التى ترمى إلى تسليم الشابين أرض أبيهما وترك الباقى له ليقوم على زراعته، فذلك هو بالتحديد ما كان قمينا بإفساد ابنى شام، محمد الطوخى وشقيقه إسماعيل، لذا وجد أن الأجدر بالاتباع هو أن يسلم الأرض كلها لأبنائه، كل حسب حصته،

وبعد أن أعطى كل من موسى وأخوته إبراهيم والسيد، وسيد احمد وأخوته سليمان وفاطمة وأم الرزق ربع الأرض المنزرعة وكانت تقريبا خمسة عشر فدانا لكل فريق، عاد وأعطى كل فريق أيضا خمسة أفدنة حصة كل من زوجتيه حورية وسرية في ميراث الجدة الكبرى الراحلة، ثم عاد وأعطى كل من الفريقين أيضا عشرة أفدنة من حصة أمه مريم يزرعونها لحسابها مقابل نصف محصولها، كما وأعطاهما أيضا خمسين فدانا من الأرض الغير مستصلحة لكل فريق خمسة وعشرين فدانا هو حصة أميهما بمقدار الربع، وأعطاهما كذلك خمسة عشر فدانا لكل فريق نصيب أميهما في تركة الجدة الكبرى الراحلة، فضلا عن اثنى عشر فدانا ونصف الفدان لكل فريق هي نصيبهما في حصة جدتهم مريم، يستصلحونها لحسابها ومقابل ذلك يحصلون على ربعها خمس سنوات بعد الاستصلاح.

صار بحوزة كل من الفريقين أرضا تربو على الثمانين فدانا منها ثلاثين تزرع وتنتج كل أنواع المحاصيل، وعاد ليقسم باقي الأرض على أبنائه الآخرين، أعطى لمحمد الطوخي وأخيه إسماعيل عشرة أفدنة من نصيب جدتهما مريم يزرعها محمد لحسابها، وفرض مثلها لطفل زكية، وأعطى لابني شام أيضا اثنى عشر فدانا ونصف الفدان من الأرض الغير مستصلحة ليصلحوها لحساب جدتهم مريم بنفس الشروط التي فرضها على أولاد حورية وسرية، وفرض مثلها كذلك لزكية وطفلها، وتبقى من الأرض المنزرعة أربعين فدانا، إذ كانت الأرض المنزرعة كلها مائة وعشرين فدانا، وبقى من الأرض الغير مستصلحة سبعين فدانا قسمها على أبنائه بالربع، فأعطى لكل فريق عشرة أفدنة منزرعة وسبعة عشر فدانا ونصف أرضا

غير مستصلحة، يزرعون الأولى لحسابه وحساب جدته الأم الخبيرة مقابل نصف المحصول ويستصلحون الثانية لحسابه أيضا ولحساب جدته الأم الخبيرة مقابل الحصول على ربعها خمس سنوات بعد إتمام زراعتها، وإذ تضررت زكية من الثلاثين فدانا الغير مستصلحة والمفروضة لابنها الرضيع أمر بإعطاء عشرة منها لموسى وإخوته ومثلها لسيد احمد وأخوته.

تلك كانت ملكيات الأسرة بأفرعها المختلفة، موسى وأخوته يحوزون مائة وعشرين فدانا، منها أربعين منزرعة، وسيد احمد وأخوته يحوزون مثلها، ومحمد الطوخي وشقيقه إسماعيل يحوزان خمسين فدانا منها عشرين منزرعة، فيما يحوز الشيخ أحمد باسم ابنه الرضيع أحمد الضبع ثلاثين فدانا منها عشرين منزرعة، وإذا جمعنا نصيب كل فريق تصبح الأرض جميعها ثلاثمائة وعشرين فدانا هي مساحة الأبعدية التي روينا قصتها، والتي نافحوا عنها بكل قوة، حتى أنه اضطروا إلى ارتكاب وقائع الضرب والنهم وبتر الأعضاء وقطع الألسنة ليذودوا عن اعتبار الأسرة وأرضها، وليردوا أي اعتداء عليها، ومن ثم يضمنوا لمسيرتهم المضي قدما في الطريق المأمول، وما أن راحوا يلعبون متبعين نفس القواعد التي ظن مساعد السمداني أن أحدا غيره لا يجيدها حتى كف عن المطالبة بالتحقيق في أمر رجله المعتدى عليه.

فى الطريق

فى ليلة صيفية من ليالى شهر يوليو من العام 1854، وبينما كانت القوات المصرية تخوض حربا شرسة ضد القوات الروسية المهاجمة التى تستهدف الامبراطورية العثمانية وسلطانها عُثِر على الوالى عباس مقتولا فى قصره، وكانت فرنسا هى الرابح الأول من إزاحته، تولى الحكم من بعده عمه محمد سعيد باشا، والذى سعى إلى إصلاح أحوال الفلاحين وقدم إليهم لائحته الشهيرة باسم اللائحة السعيدية، والتى صارت قاعدة التشريع الخاص بملكية الأراضى فى مصر، بموجبها تمتع الفلاحون بوجه عام بحق الملكية العقارية للأراضى الزراعية، بدءا من ملكية الرقبة وحتى انتقالها إلى الخلف بالميراث، واقترن ذلك بإلغاء الاحتكار فأصبح الفلاح حرا فى زراعة أرضه بما يشاء من المحاصيل وبيعها بالثمن الذى يرتضيه، وتنازلت الحكومة عن الديون وألغيت ضريبة الدخولية التى تجبى على الحاصلات والسلع المتبادلة فى داخل البلاد، وواكب ذلك العودة إلى إحياء بعض المشروعات الكبيرة، ولكن الوالى الجديد وبرغم استنارته كان مسلوب الإرادة أمام كل ما هو أجنبى، و لم يكن لديه ذلك الطموح الذى

ملأ أباه وأخاه إبراهيم فى إنشاء دولة عصرية مستقلة، وجنى على مصر جنايته الكبرى التى مهدت للتدخل الأجنبى، إذ منح صديقه ديليسيس امتياز حفر قناة السويس، وفتح باب الاستدانة من المصارف الأجنبية بفوائد تصل بالمبلغ المقترض إلى أضعاف أضعافه، وانفتح باب التدخل الأجنبى الأوروبى حتى صارت مصر فى عهده محط أنظار المغامرين والأفاقين وأصحاب المشروعات الوهمية، والباحثين عن الثروة من أى طريق.

لكن أخطر شيء كان تركه الفلاحين نهبا للمرابين الأجانب الذين تقاطروا على البلاد من كل صوب، فكأنما ألغى الاحتكار لتصير التجارة الداخلية فى أيدى الأجانب، الذين تهربوا من الضرائب مستفيدين من قيود الامتيازات الأجنبية، فإذا ما أضفنا إلى ذلك اتباعه لسياسة الباب المفتوح فى التجارة بنوعيها الخارجية والداخلية أمكننا معرفة الأسباب التى من أجلها تم القضاء على الصناعات المحلية الصغيرة قضاء مبرما.

لو أنك نظرت إلى عزبة الشيخ أحمد السرسى فى تلك الأيام البعيدة لعجبت من أمر أسرار الاجتماع الإنسانى بكل جوانبه، فها هى العزبة تنمو نموا كبيرا فى زمن قياسى، والدار القديمة التى صارت أربعا أصبحت الآن عشرا، بنيت على أساس أن تتحلق حول الدار القديمة والمندرة الكبيرة، فبالإضافة إلى موسى وسيد احمد تزوج محمد الطوخى وإبراهيم وسليمان، وبنى الشيخ أحمد أو سمح لكل واحد من أبنائه أن يبنى دارا مستقلة، يذهبون إليها وقت النوم، أما طوال اليوم فإن كل فريق كان يعيش فى كنف الأسرة التى تتبع الأم معيشة كاملة، يعملون معا ويطهون الطعام لأنفسهم

ولأنفار الزراعة فى الغيطان معا ويأكلون معا، وفى الغيطان يزرع كل فريق أرضه على السوية، وبالإضافة إلى ذلك كان موسى وسيد احمد يزرعان أرض أخيهما أحمد الضبع الذى كان فى ذلك الوقت طفلا تلاحقه أمه فى كل مكان، وتخشى عليه من مجرد الهواء، وتحسب لأى طارئ حتى ولو كان وهما، و لم تكن تكف عن ملاحقته بالطعام حتى صار بدنها ثقيل الحركة، و لم يفلح فى إثنائها عن ذلك كل محاولات ضرائرها وأخوة إبنها، بل إن محاولات الشيخ أحمد نفسه والجدة مريم ذهبت أدراج الرياح، إذ كانت زكية تواصل تقديم الطعام لطفلها فى الخفاء حتى «لا ينظر أحد فى اللقمة التى يتناولها»!!.

الناظر إلى العزبة فى تلك الأيام البعيدة أيضا سيدرك أن الأم الخبيرة رحلت، فالجدة مريم هى الوحيدة التى تسكن حجرة الجدات، تقوم على خدمتها البنتين فاطمة وأم الرزق بنتى سرية، وكان يحلو لها أن تنعم فى كل صبح برؤية أبناء أحفادها، فكانت عز زوجة موسى تحضر لها صغيريها زكريا وعبد الرحمن فيما تأتيها فاطمة زوجة سيد احمد بصغيريها يحيى ومريم، وتظل تلاعبهم لفترة، وقد تطعمهم بعض الحلوى، حتى إذا جاء وقت الظهيرة عادت الزوجتان لتأخذا أطفالهما، فالجدة مقبلة على استكمال طقوسها اليومية التى لا تتغير، فهى تستيقظ قبل الفجر بساعة، تتوضأ وتسلم وجهها للقبلة تدعو لابنها ولأحفادها ولأبناء أحفادها كل باسمه، ثم تدعو للأموات من أول جدها الأكبر سيد احمد الأول مرورا بكل الأسلاف اللاحقين، تنخرط فى صلاة الفجر ولا تفرغ منها إلا مع تباشير الصبح، عندما تصيح الديكة من دور ابنها وأحفادها، فتستلقى

على جنبها ساعة، قد تقضيها فى النوم أو فى التسابيح والأدعية التى توارثتها الجدات على مدى الأجيال، وتستيقظ عند طلوع الشمس، ويكون إفطارها جاهزا، تقدمه لها حورية أو سرية، وفى الغالب تقدمه لها الحفيدتان فاطمة وأم الرزق، وبعد أن تلهو قليلا مع أبناء حفيديها تكون الشمس قد علت فتوضأ من جديد وتصلى ركعتين للضحى، ثم تعود لتلهو مع الأطفال ساعة قبل أن تأمر بصرفهم لأميهم وتتهيأ لصلاة الظهر، ربما تنظر فى الحجرة من حولها بعد أن تفرغ من الصلاة فترى طيف جدتها الكبرى فى الركن البعيد أو تشم الروائح الزكية للأم الخبيرة فى السرير المقابل، ولا تشعر إلا وعيناها تذرفان الدمع، ففى هذه الحجرة بالذات، حجرة الجدات، تقررت كل مصائر العزبة، التى راحت تتسع يوما بعد يوم حتى صار الرائى لها من بعيد يدرك أنها عزبة حقيقية، وليست مجرد دار فى الخلاء.

ويجيء العصر فتكون قد نالت بعض النوم فى قيلولة قصيرة تعمل كل الأمهات على جعلها هادئة، وإلا ثار الشيخ لأنهم يمنعون أمه راحتها وينغصون عليها قيلولتها، لكنها لا تصلى العصر فى حجرتها، تأمر بأن يبسطوا المصلى فى شرفة الدار القديمة وتؤدى الصلاة أمام جميع من فى العزبة، من الأحفاد والزوجات والأطفال، وتظل جالسة هناك تدعو لكل من يخطر ببالها، من الأحياء والأموات، حتى إذا ما هدأت سورة الشمس فى الصيف أو مالت إلى الاصفرار فى الشتاء اعتمدت على كتف إحدى حفيداتها وهبطت السلمات القليلة وتجولت فى العزبة، تبدأ بدار شام، فتتفقد نظافتها وترتيبها، وقد تتفقد دواجنها وحمائمها، ثم تعرج على

دار زكية، وهناك تداعب أحمد الضبع قليلا، وقد يطلب منها الطفل المدلل أن تمكنه من الركوب على ظهرها لكنها فى كل مرة ترفض ضاحكة، وقد تقبض عليه وتداعب بطنه أو باطن قدمه فيغرق فى الضحك بعد أن تقول:

– قل لأمك أن تمنع عنك الطعام قليلا.

وكان هذا الحديث يحزن زكية، لكنها مرة بعد مرة اعتادت عليه و لم تعد تغضب، فلقد نبهها الشيخ أحمد ذات يوم إلى أن ما تفعله أمه فوق أى حساب، بل إنه يقبل التضحية بهم من أجل شعرة واحدة تسقط من رأسها، وكانت زوجاته كما كان أولاده يضحكون فى أنفسهم، فلطالما سمعوا هذا الحديث مرات ومرات، و لم يعص أحد منهم مرة أمرا للجدة مريم، و لم يتعرضوا مرة للتضحية بهم من أجل شىء لم يفعلوه.

وبعد أن تمر مرور الكرام بدور موسى وسيد احمد ومحمد الطوخى وإبراهيم وسليمان تعود إلى دار سرية، وهناك تتوضأ لصلاة المغرب، وفيما يجهزون طعام العشاء تكون هى قد أدت الصلاة فى الصالة وتهيأت للانصراف إلى الدار القديمة، حيث تلحق بها فاطمة أو أم الرزق وفى يدها طبق يحوى أشهى ما أعدته سرية لهذا المساء، تتناول العشاء فى صالة الدار القديمة هى وابنها الشيخ، الذى يلازمها من ذلك الوقت وحتى تهجع إلى حجرتها، حيث تصلى العشاء وتتهيأ للنوم، ولكنها لا تفعل إلا بعد أن تجاذب ابنها أطراف الحديث حول كل شىء رأته فى هذا اليوم، أو حول ما قد تراه من تحسينات يتوجب إدخالها على العزبة، أو من مشاريع ترى أن يسارعوا للبدء فيها، ومن تلك الجلسات الليلية شارك الشيخ فى

مطحنين بحق النصف، أحدهما في كفر غنام بالاشتراك مع واحد من عائلة هيكل، والثاني أقيم في الغيطان قرب أبي الشقوق بالاشتراك مع أسرة من الحجايزة، وكان المطحن الأخير يسمى ماكينة الغيط، وفي تلك الاجتماعات المغلقة عليهما تقررت مصائر جديدة وتفتحت أبواب هائلة للرأى بين الأم وابنها.

لكنى لم أستطع أبدا أن استوثق من أمرين كان بطلهما الجد الأكبر موسى «الثانى» إما وحده أو ومعه شقيقه إبراهيم، الأول حول واقعة رغم أهميتها وردت في الحكايات في صورة جملة عفوية، والثانية حول حكاية خرافية أفردت لها الحكايات فصلا من فصولها الرحبة.

لنبدأ بالواقعة ذات الدلالة وخطورة الشأن، ذلك أن الأم الخبيرة كانت وقبل رحيلها تعاني كما رأينا من تباريح الشوق، وكانت تعطي ظهرها لكل شيء وتبدأ في التجوال في شوارع سرس القديمة وأزقتها، وتتغزل في دورها ودواويرها ثم تقف عند بوابة الدار الكبيرة وتأخذ في مناداة كل شيء فيها، سلالمها الرخامية وعتباتها، ونوافذها العالية وأبوابها، وتنادى على غرفها غرفة غرفة، كأنها كائنات تسمع نداءاتها وتدرك مناجاتها وأشواقها، وبعد أن تتغزل في الدار من الخارج تلج إلى الداخل.

كل ذلك لم يفت في عضد مريم ولا في عضد الشيخ، فلقد مرت بهما سنوات عباس الأول كئيبة وثقيلة ومخيفة، وإذ خاضوا صراعا مريرا مع جارهم مساعد السمداني وصل إلى ما تعرفون فإن الخوف من تفاقم الأمور جعلهما يصمان الآذان في مواجهة النداءات اليائسة التي أطلقتها، وكان ذلك على نحو خاص يؤلم الأخوين موسى وسيد احمد، فهما

وحكايات سرس القديمة لما تزل على طزاجتها وعنفوانها كانا كبيرين بما فيه الكفاية، وبرغم أن واحدا منهما لم يرها أبدا و لم يمر حتى بجوارها أو ير أحدا من أهلها فإنهما كانا متضامنين مع جدتهما الأم الخبيرة، وكانا يبكيان لبكائها ويتمنيان لو استطاعا أن يعودا بها إلى هناك، ولو لمجرد أن تملأ صدرها لآخر مرة ببعض من هوائها.

في الشهور الأخيرة من حياتها دارت دنيا الأم الخبيرة في غرف الدار الكبيرة، حتى وهي تتناول طعامها، أو وهي تتجاوب مع الآخرين، إن كانت مريم أو حفيدها الشيخ أحمد أو زوجات حفيدها أو حتى أبناء حفيدها، كانت في كل ذلك قد صنعت مزجا رائعا بين الواقع والخيال، تمثل في إدراكها لكل ما يدور من حولها ومعرفة من يتحدثون إليها وصلتهم بها، كل ذلك كانت تدركه، ولكن على أنه يدور هناك، في الدار الكبيرة في سرس القديمة، وإذ أدرك موسى وسيد احمد ما صارت إليه حالها تحدثا إلى أبيهما في شأن أخذها لزيارة بلدهما القديم، وكان حديثهما فاتحة حالة من الوجد أصابت العزبة كلها، وما فسره الأخوان موسى وسيد احمد على أنه غضب أبيهما لطرحهما الأمر عليه كان في الحقيقة شجن بعثه الذكريات في نفسه، لم يصدق وولداه يحدثانه في الأمر أنه صار بالإمكان أن يعود أحد منهم إلى هناك.

وهي الحالة التي أصابت جدتهم مريم أيضا، كانت تتعثر في خطوها كأنها لم تعد معنية بالنظر إلى الأشياء، وإنما إلى ما ورائها، وكانت هي الأخرى ترنو ببصرها إلى بعيد، حيث تغلق أبواب الدار الكبيرة من ورائها وهي تتجول في الغرف الفسيحة، ثم تفتح النوافذ وتنظر من خلالها إلى

الغيطان البعيدة، والدور الواطئة المحملة بالأحطاب القديمة، ولكن شيئا جديدا طرأ على حالة الأم الخبيرة، ذات صباح أخذت تنادى على أبنائها الذين تبعثروا على طول الطريق من سرس القديمة إلى عزبة حفيدها، وهكذا لم يعد من مفر للتعامل مع الأمر بحسم، وبعد أن كانت الجدة مريم والشيخ أحمد يسوفان ويسوقان التبريرات، لم يعد بد من أن يقول الشيخ كلمته فى الاقتراح الذى اقترحه عليه ولداه، موسى وسيد احمد، وكان الاقتراح بسيطا إلى أبعد حد.

ماذا لو حملا جدتهما وذهبا إلى هناك؟!، يمران بها عبر شوارع القرية فى جولة يسيرة لتملأ رئتيها من هوائها ثم يعودون دون أن يلتقوا أحدا، أو يتحدثوا إلى أحد، وكما خرجوا من هناك على أنهم بدو يرعون قطعانهم لماذا لا يعودون وهم على نفس الهيئة، بدو ومعهم جدتهم، أو تجار يبيعون ويشترون، يقطعون بها القرية من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، ويمرون بالدار الكبيرة ودوارهم القديم ليروا ما الذى حدث فى غيبة طالت لأكثر من ربع قرن، وقد يتزيدون فيعاينون مشوار الخروج فى النهار، ويمرون بالمحلة فى طريق العودة ليروا إن كان هناك أثر لرجل القطعان، وبقطارس ليعرفوا ما كان من أمر رجل الاستطلاع، إذ قد يعرف أحد منهما شيئا عن العمين الذين تركا غيطان كفر عزام إلى غير رجعة.

مريم طلبت إرجاء الأمر عدة أيام، أتراها روادها الحنين فرأت نفسها تعود إلى هناك؟!، على كل فإنها على مدى أيام ثلاثة صلت صلاة الاستخارة قبل النوم، ورأت فى منامها رؤيا تكررت على مدى الأيام الثلاثة، رأت الأم الخبيرة تتجول فى أنحاء العزبة الوليدة التى لم تكن إلا سرس القديمة،

وتعجبت كثيرا، و لم تفارقها الدهشة فى كل مرة، إذ كانت شابة تدق الأرض بقدميها، وبعد تكرار الرؤيا مرات ثلاث اقترحت على ابنها فى حضور ولديه موسى وسيد احمد، وفى حضور حورية وسرية أيضا، أن يذهب بها واحد منهما فقط، وليس الاثنان، لم يكن هناك أى غموض فى اقتراحها، فالعزبة الناهضة لا تتحمل غيابهما معا، هذه واحدة، والثانية هى أنه إذا حدث لا قدر الله مكروه فلا يصيبهما معا، و لم يملك الشيخ إلا أن يصادق على اقتراح أمه فأصدر أوامره بإعداد العدة للسفر، واختار موسى ليرافق جدته فى رحلة العودة إلى هناك، ومعه إبراهيم.

فى تلك الأيام البعيدة كانت العلاقة بين موسى وصديقه حسن الكفراوى قد توطدت كثيرا، وإذ وقع الاختيار عليه للعودة بجدته إلى هناك استأذن فى السفر إلى ديرب حيث التقى صديقه وأسر إليه بما هو مقبل عليه، وطلب معاونته فى إتمام الرحلة على أكمل ما تكون، كما طلب تزويده بعربة يجرها حصانان لترافقهما فى الرحلة الطويلة، واقترح عليه صديقه أن تبدأ الرحلة من العزبة إلى السنبلاوين، ومن هناك يأخذ الطريق الذاهب إلى ميت غمر، حتى إذا ما عبر النيل إلى زفتى يأخذ الطريق الصاعد إلى حدود المنوفية، تقابلهم شبين الكوم، ومنها يتجهون إلى منوف، وهناك سيجدون سرس الليان لما تزل فى مكانها، لم تبرحه، ولكن هذا الطريق فى حاجة إلى صحبة، إذ قد يهاجمهم قطاع الطرق وينهبونهم، وقد يقتلونهم، واقترح عليه صديقه أن يستأجر ثلاثة من أبناء الليل الذين يقيمون عند أطراف ديرب، فيخرجون معه بخيولهم، حتى إذا ما فرغوا من الزيارة عادوا من نفس الطريق.

الحال مع السمدانى هادئة، والحدود الفاصلة بين الملكين امتلأت بالحشائش والغاب إلى درجة موحشة، امتلاك مساعد للأرض بموجب ما تقرر من قواعد فى اللائحة السعيدية جعله يقنع مؤقتا بما لديه، وكانت أكثر من خمسمائة فدان أمكن إصلاح الكثير منها باستخدام العنف مع الفلاحين، وإذا فروا بزوجاتهم وأبنائهم يأتى رجاله بآخرين، ويجبرونهم على الزراعة بأجور أقل من أن تفى بإطعامهم. كان الأعرابى فى ذلك الوقت غارقا حتى ذقنه فى أمور استصلاح المزيد من الأرض ليكافئ ما قام الشيخ أحمد السرسى بإصلاحه، وكان ذلك كفيلا بأن يهدئ الحال فى المنطقة التى كانت قبل سنوات مسرحا لصراع كبير وصل خبره إلى كل قرى السنبلاوين.

فى قلب الليل دخلت العربة ذات العجلات إلى العزبة، دخلت من جهة المقاطعة، و لم يرصدها من رجال السمدانى راصد، وفى زمن قياسى وضعوا الأم الخبيرة فوق العربة، ومن تحتها حشية من القطن حتى لا تؤذيها صلابتها، وفى وداع مهيب وصامت انطلق موسى وإبراهيم بجدتهما الأم الخبيرة فى اتجاه برقين، ومن هناك أخذوا الطريق الذاهب إلى السنبلاوين. الأم الخبيرة كانت ومنذ أسر لها سيد احمد فى أذنها بخبر الرحلة قد عادت إلى هدوئها، وبدلا من أن تنادى على الغائبين راحت تبتسم فى صمت، وترفع بيديها المرتعشتين حاجبيها لترى على قدر ما يمكنها، وبدلا من الصمت الذى ران عليها سنين أفلحت فى أن تخرج صوتها بشكل إرادى لتنادى على أحفادها وعلى مريم، وتمد ذراعيها الواهنين لتحتضنهم وهى تنطلق فى رحلتها التى أعادت إليها الحياة.

أربعة من بين المودعين من أهل عزبة الشيخ أحمد السرسى وقفوا عندما تحركت العجلات بالركب العائد إلى هناك في وداع الأم الخبيرة وقلوبهم تنخلع من أماكنها، الشيخ أحمد والجدة مريم والعمتين حورية وسرية، فلقد عاشوا هناك، وتنسموا عبير الحبية البعيدة، ربما يكونوا قد استغلوا الليل ليذرفوا الدمعات دون أن يدرى أحد، أصواتهم الخفيضة لم تكن لتفضح بكاءهم، كانوا يهمسون لبعضهم البعض وهم يودعون جزءا غاليا منهم، الأم الخبيرة، وموسى وإبراهيم اللذين كانا بصدد القيام بمغامرة ظلوا لأكثر من ربع قرن يتهيبون القيام بها. لا أشك أنهم مروا بأصابعهم وراحاتهم على عيونهم ليمسحوا الدمعات، حتى ليخيل إلى أنهم كانوا أقرب إلى حالة الأم الخبيرة عندما انطلقت تعيش بكليتها فى الدار الكبيرة وتنادى الغائبين.

فى الطريق إلى برقين تجنبوا الحديث إلى أحد ممن تصادف وجودهم على الطريق، وعندما نبحت عليهم الكلاب وطاردتهم وهم يمرون على القرى الراسية على الطريق كان ذلك مزعجا إلى حد بعيد، ومن مكانها فوق حشيتها اللينة فوق العربة التى يجرها حصانان جاءهما صوتها:

– تنبح على العائدين كما فعلت مع الخارجين.

إبراهيم طلب أن تحكى لهما قصة خروجهم من هناك، لكنها كانت مستغرقة بكليتها فى ذكريات بعيدة. و لم يكن ليخرجها أحد من البستان الذى تشم عبير أزهاره:

– كل الكلاب نبحت علينا إلا كلابها.

ولما سألها إبراهيم:

– كلاب من يا جدتى؟!.

أجابته هذه المرة:

– كلاب سرس أيها الأحمق.

وابتسـم موسى فى وجه الليل، فالأم الخبيرة تسـتعيد عافيتها، وهو لا يستبعد إذا ما وصلوا إلى هناك أن تترجل وتتركهم، وتهيم على وجهها فى القرية، وإذ تمثل له ما يمكن أن تفعل تعكر وجهه، ثم عاد إلى رشده قائلا: إنها الأم الخبيرة وليست أى أحد آخر، وصادق على ما قال: نعم، إنها الأم الخبيرة.

الرجال الثلاثة فى انتظاره عند بداية الطريق الصاعد من السنبلاوين إلى ميت غمر، يربطون خيولهم إلى شجرة جميز ضخمة، وشعروا بقدومهم فتأهبوا للرحيل، حلوا أربطة الخيول ووضعوا أرجلهم فى الرُكب واعتلوا ظهورها، كبيرهم يدعى حسن، وكان الصديق الكفراوى قد دفع لهم مقدم الأجر مبقيا جزءا منه لما بعد انتهاء المهمة. ما أن تعرفوا على موسى وإبراهيم حتى راحوا يتحدثون إلى بعضهم البعض، وتعجب موسى إذ لم يجد معهم علائف لخيولهم، ونظر إلى كيس التبن المخلوط بالجريش والذى يثوى فوق العربة بجوار جدته وقال فى نفسه: لن يكفى العلف للأحصنة الخمسة، وهز رأسه فى أسى: بالتأكيد لن يكفى، وقبل أن يكمل حديثه اقترب كبيرهم وسأل:

– أنت موسى إذن؟!.

فأجابه متعجبا:

- نعم، أنا هو.

بحاسته المتشككة أمعن النظر في السؤال، لم يكن هناك ما يريب، فصديقه حسن الكفراوى لا بد وأبلغهم بمن هو، والمؤكد أنه تحدث إليهم عن المشوار الذى هم بصدد الاندفاع لتحقيقه، الحديث الذى اتفق عليه معه حتى لا يعرف رجال المنسر أن الأسرة الهاربة تعود لتنسم عبير قريتها القديمة، وبرغم كل ذلك، وبتلك الحاسة التى فرضتها عليه الأيام وصقلتها الليالى الطوال في الغيطان وجد نفسه غائصا في بحيرة هائلة من الشك، قال لنفسه: هناك شيء غامض في هذا الأمر ولا بد عن كشفه، وقدر أن أسرع طريق للكشف عنه هو إبقاء رئيس المنسر إلى جواره، و لم يستطع إلا أن يتسم في داخله، فلقد واتته الشجاعة ليتصنع الهدوء برغم خوفه الشديد.

أخوه إبراهيم كان عملاقا من نوع خاص، فهو يمضى طوال الوقت على سجيته، وعندما يضطر إلى استخدام قوته يفعل ذلك ببساطة مدهشة، ودون مباهاة أو فخر، أو حتى إحساس بالتميز، يفتقر على الدوام إلى الإحساس بالخطر، وهذا ما جعل موسى يشعر بالخوف ويجتهد ليجعل كبير المنسر قريبا منه، فهو بذلك يأمن المختبئ خلف السؤال الغامض الذى وجهه إليه، وإذ شعر بحاجته إلى أن يكون إبراهيم مستيقظا مد يده خلسة وقرصه في أذنه قرصة أيقظته على الفور، ولكن إبراهيم ظل يبحث من حوله عن السبب الذى من أجله يشعر بألم شديد في أذنه، ولما لم يهتد إلى سبب عاد إلى نومه، لا يمنعه الحديث المضطرد الذى يدور بين أخيه وبين

كبير المنسر، والذى يحاول من ورائه أن يعرف سر السؤال الذى قلب مغامرته إلى مخاطرة تمنى للحظات لو أنه لم يقم بها.

ارتفع آذان الفجر فى بلد مروا به، ربما يكون كوم النور، وتعالى نباح الكلاب، فمع الليل المتأخر، وحتى مع الفجر تمر أمام أعينها خيالات تخيفها فيزداد هياجها، حتى إذا ما طلع الصبح وانقشع غبار التخيلات واطمأنت إلى أن الدنيا صارت آمنة هدأت وألقت برؤوسها عند أقدامها وأرخت آذانها وراحت فى النوم، كل ذلك شغل موسى للحظات، فمحطتهم الأولى ستكون فى ميت غمر، حيث يقفون هناك فى انتظار المعدية ليعبروا النيل، أو بعد أن يعبروه ويصيروا هناك فى زفتى، وسيقضون ساعة أو أكثر، يتناولون فيها طعامهم ويقدمون لخيولهم العلف والماء، ثم يرحلون بعد أن تكون الخيول قد نالت من الراحة ما يعينها على مواصلة الرحلة، تلك كانت الخطة، كما تحدث موسى معهم بشأنها، لكن اقتراب الرجل كثيرا منه جعله يشعر بالمزيد من الخطر، و لم يرجع إلى نفسه إلا عندما جلست الأم الخبيرة على العربة وشرعت تقدم لصلاة الفجر.

رجال المنسر تعجبوا من العجوز التى جلست فوق ظهر العربة تؤدى صلاتها، واستأذن منهم موسى، ثم انتحى جانبا وراح يصلى هو الآخر، صلاة قلقة، إذ لم يفلح فى أن يعيد إبراهيم إلى حالة الصحو، وكان كلما ركع أو سجد هيئ إليه أن أحدهم من خلفه ويهم بضربه على رأسه، أو بإطلاق النار عليه، أو بطعنه بسكين أو بخنجر، لكنه صبر حتى تمكن من إتمام صلاته، وإذ سلم منهيا الصلاة استدار حول نفسه دورة كاملة يطمئن بها على أن أحدا لا يوجد هناك، فلقد اختار مكانا بعيدا عن الرجال حتى

لا يعثروا عليه إن كانوا يريدون به شرا، وفى طريق عودته إليهم دار من حولهم دورة كاملة، كانوا يقفون من حول العربة فى انتظاره، ورأى كما لو أنهم يتهامسون، لكنه عجز عن أن يدرك حرفا واحدا مما يقولون.

بإمكانه لو أراد أن يصرفهم ويستغنى عن خدماتهم، ولكن ركبه سيكون طوال الطريق عرضة لأى هجوم، حتى ولو من قبل الخفراء فى القرى التى يمرون بها، والذين قد يوقفونهم لمعرفة هويتهم ووجهتهم، وكانوا قبل الانطلاق من العزبة قد اتفقوا على أنهم إذا ما أوقفوا سيقولون إنهم من السنبلاوين، وهم فى طريقهم إلى شبين الكوم حيث عمتهم المتزوجة هناك، وهم ذاهبون بجدتهم لترى ابنتها قبل أن تفارق، فاللقيا نصيب، وكانت سرية قد وضعت إلى جوار الأم الخبيرة فوق ظهر العربة سبتا كبيرا مملوءا بالفطير والعسل والجبن، وسبتا آخر به بعض البطات والفراريج، كأنهما فى طريقهما بالفعل لزيارة عمتهما، وهذه هى جدتهما، وتلك هى الهدايا التى سيقدمونها إليها، والرجال المصاحبون يقومون على حراستهم حتى لا يهاجمهم أحد فى الطريق.

عند النهر كانت المعدية تتأهب للمغادرة إلى الشاطئ الآخر، ونادوا على المعداوى فأعاد الألواح إلى مكانها، ووجدوا صعوبة كبيرة فى نقل العربة، فى البدء رفض المعداوى أن ينقلها، وعندما مُنِّىَ بأجر محترم عاون بنفسه فى سحب الخيول إلى المعدية، وكان إبراهيم قد حمل جدته إليها قبل أن يحاولوا بشأن الخيول والعربة، ولم يجد المعداوى بدا من أن يحمل الرجال العربة ويسيروا بها فوق الألواح حتى استقرت على ظهر المعدية، ولاقوا فى ذلك عناءً شديدا، وإذ أصبحوا عند الشاطئ الآخر نزلوا من

المعدية واختاروا مكانا ظليلا جلسوا عنده، الهواء ورجرجة العربة طوال الطريق أعادا إلى الأم الخبيرة الكثير من حيويتها، وبرغم الآلام التى تشعر بها فى عظامها لم تشك من شيء. وربطوا الحصانين اللذين يجران العربة إلى إحدى لأشجار وقدم لهما إبراهيم العلف، وفوجئوا برجال المنسر وقد أطلقوا خيولهم فى الغيطان القريبة، غير هيابين ولا متحسبين.

أفطروا جميعا كما لم يتناولوا إفطارا من قبل، وأقبلوا على الفطير والعسل والجبن والقشدة بنهم، لكن إبراهيم بزَّ رجال المنسر وجعلهم يتركون الطعام وينظرون إليه فى دهشة، كان يقطع الفطيرة الضخمة عدة لقم، وفى كل لقمة يحمل عليها نصف طبق الغموس قبل أن يدسها فى فمه، فتغيب بعد مضغها عدة مرات، واضطروا إلى العودة إلى تناول الطعام وكأنهم لم يروا شيئا، إذ لم يأبه إبراهيم لنظراتهم، واكتفى بالابتسام.

تبادل موسى وكبيرهم الحديث من جديد، لأول مرة منذ التقاهم فى جوف الليل يراهم ويعرف ملامحهم، كبيرهم المدعو حسن رجل نحيل طويل يرتدى جلبابا بلديا صوفيا، يضع فى قدميه نعلا أحمر وفوق رأسه عمامة بيضاء فوق طاقية من وبر الجمال الأحمر، كان مليحا، ولقد بادره موسى بأن قال:

– نعود إلى ما كنا بدأناه ونحن فى الطريق.

وتنبه الرجل لحديثه، وكان قد فرغ لتوه من تناول الطعام، وانحنى ورفع القلة على فمه وظل يجرع الماء بصوت مسموع، وبعد أن أنزل القلة نظر فى اتجاه موسى الذى واصل حديثه:

– تقول إنك تعرفنى من قبل أن يحدثك صديقى حسن الكفراوى عن مطلبى، فكيف عرفتنى؟!.

وتجشأ الرجل فى وقاحة، ثم أطرق إلى الأرض يبتلع لعابه ورفع رأسه ليقول:

– ألستَ من قاتل منسر صدقا وقبض عليهم وسلمهم للحكومة؟!.

أجاب موسى فى ذهول:

– هو أنا.

وابتسم الرجل وهو يردف:

– وتسألنى كيف عرفتك وممن سمعت عنك؟!.

سيرته إذن معروفة لدى المنسر فى المركز كله، وربما تكون معروفة لهم فى نطاق المديرية، كل ذلك لشهرة منسر صدقا، الذين كانوا مشهورين على نطاق واسع، وكانوا يستدعون من قبل كثيرين لأداء مأموريات فى طول الوجه البحرى وعرضه، قبل أن يقعوا فى مصيدة الليل والجشع وخيانة العهد.

لم يشأ أن يترك الرجل دون أن يفهم منه ما الذى يعرفه عن تلك الواقعة بالتحديد، فهما سيتصاحبان أياما عدة، وعليه أن يكسب وده، ولكن بحذر، أطرق إلى الأرض قليلا ثم اتكأ على إحدى ذراعيه وسأل:

– ما الذى حكوه لك عنى؟!.

ونظر الرجل إليه فى دهاء:

- دعك مما حكوه، فلقد حكوا الكثير.

وأشار إلى زميليه اللذين يجلسـان غير بعيد فانضما إليهما:

- جاء الوقت لنسـمع منك أنت.

ونظر إلى زميليه ثم قال:

- أنا لا أصدق تلك الحكايات التي تروى حول الجوزة وفي جلسـات الحشيش.

ونظروا إلى بعضهم البعض فيما اعتدل موسى وأخذ يقص حكايتهم مع السـمداني والمنسر، من ألفها إلى يائها، ومهد لقصته بذكر ما كان من أمر حربهم مع الأعرابي الهارب عبد الله الجياصي.

ارتفعت الشمس ودخل إبراهيم بجدته في الغيطان حيث قضت حاجتها، ثم صب عليها الماء فتوضأت وتهيأت لصلاة الضحى، لم يكن موسى قد فرغ بعد، وكان الرجال يتحلقون من حوله كأنهم يسمعون إلى منشد أو شاعر. اكتشف موسى في نفسه في ذلك اليوم القدرة على جذب انتباه من يتحدث إليهم، وأن لحديثه وقعا لدى سامعيه كان حتى ذلك الوقت يجهله. حكى عن الواقعة بتفصيلاتها وشواردها وسـوانحها ودقائقها، لم تفته همسة واحدة جرت، أو إيماءة صدرت عن أحدهم، وكانوا وهم يستمعون يقلبون النظر في وجوه بعضهم البعض ويمصمصون الشفاة ويقلبونها، وقد يستعيد الواحد منهم كلمة أو جملة لم يحسن سماعها وهو يعتدل في جلسته أو يكون قد طغت على سمعه أصوات طارئة على الطريق، من أناس يمرون بهم ودواب رائحة وغادية، وانتهى

من القص وهم فى ذهول، وإذ انتفض واقفا ونفض التراب عن ملابسه نهضوا هم الآخرون، وقبل أن يصل إلى العربة كان إبراهيم قد حمل جدته ووضعها فوق حشيتها بعد أن علق العربة إلى رقبتي الحصانين، واعتلى الرجال ظهور الجياد وتأهبوا لاستكمال المسير.

هناك

تقول الحكايات إنهم لما أبلغوا الأم الخبيرة بأنهم مقبلون على سرس رفعت جفنيها ونظرت في اتجاه القرية القريبة، ورأى الرجال دموعها تنساب من عينيها، وإن موسى مر بالعربة في الشوارع بحجة أنه تاجر جلود، يبحث عما قد يوجد منها لدى الناس ليشتريها، وإنه لما قصد إلى موضع الدار الكبيرة لم يجدها هناك، ورأى بقايا البوابة الكبيرة وآثار أبنية متهدمة ودورا جديدة يلعب أمامها أطفال صاخبون، وتمنى لو يوغل في قلب المشهد ليرى موضع دار الضيافة التى كانت مسرحا لعملية قتل المملوك القديم، لكنه خشى من مغبة ذلك، بل إن جدته التى رفعت جفنيها المنطبقين على عينيها وتمعنت فى المشهد وطلبت أن يتوقف برهة أمام بقايا البوابة الكبيرة هى التى عادت وطلبت منه أن يعود إلى التجوال.

وكانت عندما أوغلوا فى القرية قد أرهفت سمعها لتلتقط كل كلمة تقال فى الشارع، أو تأتى عبر ردهات البيوت، وأسلمت أذنيها لنداءات الأطفال وأحاديث الرجال وثرثرات النساء عند العتبات، تمنت لو أنها نزلت عن العربة وسارت فى الشوارع والأزقة وتحدثت إلى الناس ولكنها

خشيت على حفيديها، وعندما وجدت الدار الكبيرة ليست قائمة، وإنما تهدمت ونهبت تمنت لو عرفت كيف صارت إلى تلك الحال، لكنها ثابت إلى رشدها وذرفت على الأطلال دمعات أسالت الدمع من عيني إبراهيم، ونظر موسى عبر بقايا البوابة ورأى بعيني خياله أبوه وهو يفرد طوله في الهواء ويهوى على رأس المملوك القديم ببلطته، ورأى أناسا لم يعرفهم يشاركونه قتل المملوك، ورأى جدته مريم واقفة هناك تمني المملوك ليأتي إلى حيث يلقى مصيره.

مع صفار الشمس خرجوا من القرية التي دخلوها مع الصبح، وهناك عند المشارف سألها موسى:

- هل اكتفيت يا جدتي؟!.

فأجابته:

- الآن أستطيع ان أمضي وأنا مرتاحة.

وصمتت قليلا قبل أن تردف:

- هواهما واحد، له رائحة الزعفران.

وتمتمت كأنها تؤكد لنفسها:

- نعم، هما كذلك، هنا وهناك.

مكثوا أكثر من ساعة في انتظار قدوم الرجال الثلاثة، وكانوا قد فارقوهم عندما دخلوا القرية على وعد باللقاء قبل المغرب بساعة، وفي تلك الساعة التي انتظروها رأوا الفلاحين وهم يعودون إلى القرية مع المساء، يسوقون بهائمهم ومطاياهم ويتبادلون أحاديث بقايا اليوم، وعادت الأم الخبيرة

لترهف سمعها، فلطالما اشتاقت إلى لهجة أبناء سرس، وطريقتهم المحببة فى الاندهاش والسؤال والتعجب، وها هى تنتظر عند المشارف وتغرق فى خضم هائل من الأحاديث والنداءات وأحاديث ما قبل الليل، وتمنت لو يتأخر الرجال أكثر، وها هو الوقت يمر والناس لا يأتون، وها هى الشمس تنسحب من الأفق وتسقط هناك فى بحيرة الغروب، وفى ذلك الوقت صارت الأحاديث أكثر تسارعا والنداءات أكثر إلحاحا، وعندما هبط الظلام وانسحب الضوء تأهبا لأن يطبق الليل جاء الرجال الثلاثة وقدموا الاعتذار عن التأخير.

تمنت الأم الخبيرة لو يستطيعون أن يعودوا عبر الطريق الذى سلكوه فى رحلة الخروج، لكن رجال الحراسة أبوا إلا أن يعودوا من الطريق الذى قدموا منه، وطوال الطريق كان كبير النسر يحكى لموسى حكاياته التى لا تفرغ، عن غاراتهم هنا وهناك، وعن مغامراته مع النساء والزوجات اللائى تزوجهن الواحدة بعد الأخرى، ثم إنهم عندما شقوا طريقهم فى اتجاه الطريق الهابط إلى زفتى المقابلة لميت غمر كان الحديث بينه وبين موسى قد أخذ وضعا حميميا عجيبا، كأنهما صديقان عاشا مع بعضهما ردحا من الزمن، ولم يكن الليل ليخفى تلك النظرة المحبة التى لا ينفك يطلقها الرجل فى اتجاهه، فمنذ حكى له موسى كل شىء عن حقيقة منسر صدقا والرجل ينظر إلى الفتى نظرة إعجاب لا تخلو من دهشة، ربما تمنى لو يكون الفتى أحد رجاله، وربما تمنى أيضا أن يكون إبراهيم واحدا منهم.

مع الفجر وصلوا إلى زفتى، وفى انتظار طلوع الصبح ليعبروا إلى الشاطئ المقابل جلسوا فى نفس المكان الذى جلسوا فيه من قبل،

وأحست الخيول بنوع من الألفة فى المكان، وشعروا هم أيضا بنفس الألفة، كأن روائحهم لما تزل هناك، صلوا الصبح، الأم الخبيرة وموسى وإبراهيم، ثم استلقى إبراهيم نائما و لم يفلح شيء فى إثنائه عن ذلك، برغم أن موسى أخبره عن شكه فى رجال الحراسة المرافقين لهم، وإحساسه بأن من ورائهم سرا يخفونه عنه، ونبه عليه أن يتناوبوا النوم حتى لا يأخذهم المنسر على غرة، لكن إبراهيم بحسه المنعدم للخطر غرق فى النوم، وظل موسى مستيقظا، فهو لم ينم فى الأيام الأخيرة إلا الساعة التى قضوها فى انتظار عودة رجال المنسر إليهم عند مشارف سرس، ولما جاءوا وتأهبوا للعودة لم تغفل عيناه لحظة.

عبروا النهر فى اتجاه ميت غمر وسلكوا الطريق الهابط إلى السنبلاوين، تأهب رجال المنسر لمغادرة الركب. تعبت الخيول من المسير فراحت تبطئ من سيرها التقاطا للأنفاس، وعند مشارف السنبلاوين احتضن كبير المنسر موسى وصافح إبراهيم، وكان زميلاه قد سبقا إلى ذلك وانتظما بالفعل فى الطريق الصاعد فى اتجاه ديرب، وانتحى حسن بموسى:

– فكرت كثيرا قبل أن أخبرك بما سأقوله لك الآن.

ابيض وجه موسى كأنه يصارع الموت، وأردف الرجل:

– وُعِدْت بأجر لم أنله طيلة حياتى مقابل أن أقتلك.

وشد على يد موسى:

– لكنك صديق الكفراوى ولا حيلة لى.

وانطلق ليلحق بزميليه، وأمسك موسى بتلابيبه:

– عرفني من هو غريمي.

وأغرق الرجل في الضحك:

– أحقا لا تعرف؟!.

وأجابه موسى:

– أهو السمداني؟!.

وأومأ الرجل موافقاً، ورأى أن يقول وهو يغادر:

– خذ حذرك.

وانطلق في أعقاب رفيقيه.

الفتى الذي عاد إلى جدته حيث ترقد في سلام فوق حشيتها اللينة على العربة وإلى شقيقه إبراهيم الذي يمسك بمقود الحصانين لم يكن هو نفسه الذي رافقهما في الرحلة من حيث بدأت وإلى تلك اللحظة، كان مختلفا تماما، وجهه ممتقع بصورة دعت إبراهيم إلى أن يسأله عما به، وما الذي أخبره به كبير المنسر الذي انصرف لتوه، ونظر موسى في وجه أخيه ولم يجب، فالدنيا تدور به، وهو يوشك أن يفقد توازنه، وحتى لا يسقط على الأرض استند إلى حافة العربة، وعندما هم بالقفز ليأخذ موقعه منها خانته قواه فكاد يسقط، لولا أن يد إبراهيم أعانته على التوازن، ثم لما شعر بثقل أخيه مكنه من الصعود إلى موقعه، وما أن اطمأن إلى استقراره حتى بادر لتسليمه مقود الحصانين، لكن موسى ودون أن يتكلم أشار إليه ليظل محتفظا به.

الطريق من السبلاوين إلى عزبة الشيخ أحمد السرسي يستغرق مسير

ساعات، لكن الحصانين قطعاها في أقل من الوقت المنتظر، فموسى كان مستغرقا بالكلية في أفكاره الخاصة، فهذا الذى قاله كبير منسر ديرب نجم يستلزم أن يمعن النظر فيه، وإذا اهتدى إلى كيفية التصرف حياله عليه أن يعمل من منطلق أنه وحده المعنى بما حدث، فالبادى أن السمدانى حصر خلافه مع الأسرة فيه هو، ولا بد أنه علم بأمر الخلاف الذى ثار ذات يوم بينه وبين سيد احمد، ويتصرف على هدى من هذه المعرفة، يستأجر المنسر للتخلص منه وقتله، ثم إذا ما نجح يتولى تأديب الأسرة، وكيف لا وأسرته الغافلة ترى في مجرد الهدوء سلاما مقيما، وفي مجرد الهدنة أمانا لا يعكره خوف أو قلق، وهذا هو بيت القصيد، فكيف يرد الصاع للسمدانى صاعين ولا يتهم بأنه يجر أسرته جرا إلى الحرب؟!.

استلقى على ظهره فيما إبراهيم يقسو على الحصانين ليسرعا، وكانا متعبين إلى درجة أنهما كانا يتلكآن ويتظاهران بشم بقع الماء على الطريق، لكن إصرار إبراهيم جعلهما يستجيبان إلى حثه لهما فنهبا الطريق نهبا، وفي صفحة السماء الصافية أوحى الليل إلى موسى بأن يرمى من وراء ظهره كل الهموم، ورأى وجوها باسمة تطل عليه من هناك، من أصفى بقعة في السماء التى تصدح أنجمها بأناشيد علوية فاتنة، وسمع هاتفا يقول: إنهم أسلافك، من سيد احمد «الأول» الذى خرج في الركب القديم مصطحبا ابنه للأزهر الشريف، وحتى أحمد «الأول» الذى برق كالشهاب في حياة الأسرة ومضى في غموض، كلهم كانوا يتسمون له، ويتحدثون بكلمات لم يستطع تبينها، وبعد أن ذابوا في قطع السحاب المتفرقة جلس ليجد جدته مستيقظة، كانت ترفع جفنيها وتنظر في الغيطان عبر الطريق،

وسألها إن كانت رأت جدها سيد احمد «الأول» فأومأت بالإيجاب، وعاد ليسألها إن كانت هيئته كما رآها، وانطلق يصف ما رآه، كما وصف هيئات جده موسى «الأول» وسيد احمد «الثانى» وأحمد «الأول»، كأنه يراهم، والجدة التى تركت جفنيها من الدهشة كانت مبهوتة، فأوصافه للأجداد متطابقة تماما مع هيئاتهم، وسألته:

– من وصفهم لك؟!.

فأجابها:

– رأيتهم الآن.

– أين؟!.

– فى صفحة السماء.

– هل تحدثوا إليك؟!.

– قالوا كلاما لم أستطع أن أسمعه.

– وهل كانوا مهمومين؟، حزانى؟!.

– أبدا يا جدتى، أبدا.

فمدت يديها لتستقبله، واحتضنته وقبلت ما بين عينيه:

– لا تقص رؤياك على أحد.

وسألها متعجبا:

– لماذا؟!.

وأجابته:

- لن يصدقوك.

والتصق بها فشعرت بدفء جسده:

- هل تصدقينى أنت؟!.

وأشعت ابتسامة غريبة من وجهها:

- ومن غيرى يصدقك؟!.

وهناك عند مشارف العزبة كانوا يقفون جميعا فى انتظارهم، الشوق يلهب قلوب السراسوة الأقلمين، مريم وأحمد وحورية وسرية، وها هى الأم الخبيرة تعود من هناك، حاملة فى ثناياها روائح الجنة التى حرمت عليهم، و لم يلحظ الآخرون أنهم هم الأربعة بالذات كانوا وهم يتلقفون الأم الخبيرة لينزلوها من فوق العربة يتسمون عبير ثناياها الذى حملته من هناك، لينعموا هم أيضا به، و لم يلحظ أحد أيضا تلك الدموع التى جرت غزيرة تتخفى وراء اللهفة على اللقاء، دموع تباريح الشوق التى لا تذرف إلا فى الخفاء.

وقادت الرؤيا التى رآها موسى فى يقظته إلى اعتباره مباركا فى عرف جدته الأم الخبيرة، ومن يوم أن حكى لها عنها وتناول بالوصف جدوده الأوائل وحتى فارقت وهى تنافح عنه وتغضب لأجله وترد كل كلمة تقال فيه، بل وتأمر جدته مريم الا تدع باقى الأبناء يتجراون عليه، فهو أخوهم المبارك الذى يستطيع أن يرى أجداده رأى العين، بل ويراهم يتحدثون إليه وإن كان لا يسمع حديثهم، و لم تكن الجدة مريم قد رأت أحدا منهم، فلقد ماتوا جميعا قبل مجيئها للحياة، وعندما طلبت من موسى أن يصف

لها الهيئة التى رأى عليها جده أحمد «الأول» سقطت الدموع من عينيها وقامت لتضمه إلى صدرها، فلقد رأت زوجها الحبيب وهو يصفه شاخصا أمامها، و لم يلبث الشيخ أحمد أن عرف بأمر الرؤيا التى رآها ابنه فقال لمريم:

– موسى هو قلب هذه الأسرة وخيالها.

ولكن الشيخ كان على موعد مع خبر آخر، فلقد اهتدى موسى إلى ضرورة إبلاغ أبيه بما قاله رجل منسر ديرب، و لم يرض الشيخ بغير أن يسمع بأذنيه من فم الرجل، وفى ذات صباح، وبعد أن صلوا الفجر انطلقا متجهين إلى ديرب، الشيخ أحمد على حصانه وموسى على مطية رائعة جلبها من سوق الأحد واحد من عماله، ومع الضحى وصلوا إلى ديرب، وهناك فى دار حسن الكفراوى أرسلوا فى طلب كبير المنسر فجاء على عجل، وبدون أن يطلب حسن الكفراوى شيئا فهم الرجل بخبرته ما هو مطلوب منه، وقدم لحكايته بأن قال:

– ما قلته للفتى هو ما حدث.

وسأله الشيخ:

– كيف عرف بأنك ستلتقى ولدى؟!.

فأجابه:

– هو لم يستأجرنى لقتله عندكم.

وسأل حسن الكفراوى هذه المرة:

– أين إذن؟!.

فأشار الرجل إلى الأرض وقال:

– هنا.

وأكد:

– هنا في ديرب.

وانطلق يقص عليهم ظروف لقائه بمساعد، قال إنه ورجاله توجهوا معه مرات إلى الصحراء حيث شاركوا في نهب قوافل عديدة، وفي إحدى المرات كان رجال منسر صدقا معهم، بل إن رجال منسر السمارة كانوا معهم أيضا، وإنه في المرة الأخيرة اقترب منه كثيرا وسأله إن كان يعرف الفتى الذي يصاحب ابن الكفراوي فأجابه بالنفي، وحكى له عن ظروف خلافه مع أسرة الشيخ وكيف أن موسى قد وجه إليه صفعة لا يمحها إلا أن يسفك دمه، وفرض له مبالغ طائلة إن هو قتله، واقترح عليه أن يقتله وهو في زيارة لصديقه، وساعتها سيظن الشيخ أن ابنه قتل في صراع غامض في مكان بعيد، وفي ظروف لا يمكن الاستدلال منها على الحقيقة، وأنه قبض بالفعل جزءا من المبلغ ووعد بقبض الباقي بعد التنفيذ، وعندما طلبه ابن الكفراوي لمرافقة موسى في رحلته الغامضة عرف أنه لن يستطيع أن ينجز المهمة، فمهما كانت صلته بالسمداني إلا أن صلته بابن الكفراوي هي الأبقى، وأكد أنه بسبيله لإرجاع المبلغ لمساعد والاعتذار عن إتمام المهمة.

طوال الطريق وهما عائدان من ديرب لم يتبادلا كلمة واحدة، كل منهما كان مستغرقا في أفكاره، الشيخ مهموم إلى درجة أضافت إلى عمره سنوات، وموسى غارق حتى أذنيه في البحث عن سبيل للتعامل

مع الأعرابى الذى لن يهدأ كما قال كبير المنسر إلا بقتله، كل الاحتمالات كانت مطروحة، بدءا من الهجوم على المضارب وانتهاء باستئجار من يقتل السمدانى، ولو سئل موسى فى ذلك الوقت أى السبل يختار لفضل الهجوم على مضاربه، على طريقة ما فعله أبوه مع الأعرابى الطريد عبد الله الجياصى، لكن قواعد اللعبة التى توافقوا عليها بغير اتفاق تقضى بألا يتصرفوا على نحو عنيف وظاهر يستدعى تدخل الحكام، وإنما يمكنهم التصرف بنعومة، قاتلة نعم ولكنها فى النهاية ناعمة، لا تقلب حياة المنطقة ولا تنال من هدوئها الظاهر، ولا تورط أعيانها وعمدها فى صراع لا طائل من ورائه.

وكان الشيخ قد عوض كبير منسر ديرب بمبلغ يساوى تقريبا ما وعده به السمدانى، وطلب منه أن يبلغه بعلمهم بالأمر، عند هذه النقطة توقف كبير المنسر عن الحديث، فما يطلبه الشيخ لا يمكن إلا أن يكون إعلان حرب بينه وبين مساعد، وهذه الحرب وبرغم عدم جدواها، إذ منسر ديرب فى مكان ومساعد فى مكان آخر، ومنسر ديرب سائبين ومساعد مربوط فى مضاربه ومصالحه القائمة، إلا أن سمعة الرجل ستأذى كثيرا فى عالم الأعمال التى يطلب لها، فيما لو انتشرت الحكاية وأصبحت على لسان الأعيان والكبار والغرماء والخصوم الذين يطلبونه لمهام من مثل ما طلب مساعد، ولم يجد تدخل حسن الكفراوى فى تذليل العقبات بين الرجلين، الشيخ أحمد السرسى وكبير منسر ديرب، ورفض الرجل ما طلب الشيخ مقررا أن مسألة الانسحاب من الاتفاق وكيفية معالجة الأمر ترجع له هو وليس لأحد آخر.

وجدا الجميع في حالة وجوم، فيما كانت العيون مبللة بالدموع، فلقد رحلت الأم الخبيرة مع العصر، وكانت قد طلبت سيد احمد فجاءها على عجل، وقبل أن ينطق بكلمة عثرت أصابعها المرتعشة على يده فأمسكت بها، وقالت في وهن:

- أنت وموسى حياة هذه الأسرة.

ولما أراد أن يتحدث نحت وجهها جانبا وسقطت في بحيرة صافية، ابتسمت لأطياف تستقبلها، ولما انصرف سيد احمد انتحت به جدته مريم وسألته عما تريد، و لم يجبها، كان حانقا إلى درجة شعر فيها بالرغبة في الخروج من الدار القديمة في الحال، تصور أن أخاه قطع الطريق من العزبة إلى سرس القديمة ذهابا وعودة بعيئ جدته ضده، ويفهمها الأمور على غير حقيقتها، وإذ لم يقل شيئا للجدة مريم مما حدث من الأم الخبيرة له تركته ودخلت عليها الحجرة، وجدتها تنطق بالشهادتين بصوت مسموع، وتبش لاستقبال أحد لم تعرف إلا عندما سقطت رأسها على أحد الجانبين أنه ملك الموت.

دخلا حجرة الراحلة الرائعة، و لم يتمالك موسى فارتمى على سريرها، وضع رأسه فوق صدرها الضامر وذرف دموعه كلها، وقبل أن يستقيم نحى الملاءة من على الوجه، وبا لروعة ما رأى، كانت تبتسم في وداعة فيما الوجه خال من الغضون التي عرفوه بها، وهيئ إليه وهو يقبلها أنها تفعل معه بالمثل، استنهضته يد أبيه ومضيا بعد أن وضع الأب على الجبين المضيء قبلة أخيرة، وبعد أن سحب الملاءة البيضاء فوق الوجه من جديد.

الكلمات التي قالتها الأم الخبيرة لسيد احمد وهي تحتضر ستظل طي

الكمان حتى إلى ما بعد رحيل موسى، سيقولها سيد احمد فى وقت وموضع لا يجدى فيه الندم، لكن الكلمات التى قالتها بعد عودتها من رحلة الوداع ستظل محفورة فى أذهان أهل العزبة الصغيرة لأجيال عديدة، فلقد اجتمعوا من حولها وسألوها عما رأته هناك، فى سرس القديمة، فأجابتهم أنها رأت روحها ترفرف فى سماء الحبيبة، محفوفة بأرواح أسلاف لم تزل روائحهم هناك، وسمعت كلمات كأنها الأغانى، ينطقها الأطفال والأمهات والرجال العائدون من الغيطان، وسمعت نباح الكلاب الرؤوفة التى ليس كمثلها كلاب فى البر كله، ولما سألوها هل ارتوت ضحكت ملء فمها الخالى من الأسنان، وحمدت الله ثم قالت:

- شبعت وارتويت من كل شىء، حتى من الأيام.

أقاموا مأتمها فى سرادق اتسع لمن حضر من أهل المنطقة، سرادق ظل الناس يتناقلون أخباره سنوات طوال، جاءوا بمقرئين كبار من المنصورة والزقازيق، وذبحوا عجولا وخرافا وأطعموا كل من جاء يعزيهم، وكانوا قد دفنوها إلى جوار الجدة الكبرى، وأبت الجدة مريم إلا أن تصحبها حتى شفير القبر، وكان موسى هو الذى دخل القبر معها، وبعد أن جمع عظام جدته الكبرى ولملم ما تبقى من شعيرات وضعها فى مقطع قماشى جديد من الكتان، ونحاها جانبا، ثم سوى الرمال براحته، واستقبل جدته الأم الخبيرة بيديه وأرقدها على جانبها الأيمن، وكشف رأسها فوجدها لا تزال تواصل ابتسامتها، وبشاشتها التى أذهبت عن الوجه غضونه، ولما انحنى ليقبلها انبعث فى القبر عبير عطر عجيب، قالت الجدة مريم إنه عطر ربانى لا يشمه إلا المحبون.

في ليلة المأتم جاء كل الأصحاب، ومعظم أهالى المنطقة، من كفر عزام جاء آل عزام جميعهم، ومن شبراهور جاء أصهار سيد احمد، وكذلك جاء أصهار الشيخ أحمد والأبناء الآخرين، ومكثوا أيام المأتم الثلاثة، ثم رحلوا على أمل العودة فى الخميسين، وأيضا فى الأربعين الذى تحييه الأسرة وكأنه إحياء للمأتم من جديد.

وجاءت اللحظة التى انتظرها الشيخ، فلقد جاء مساعد السمدانى معزيا، دخل السرادق وسط جمع من رجاله كأنه يستعرض قوته، وبين دهشة الحضور احتضن الشيخ أحمد وشد على يديه طالبا منه على عادة المعزين أن يشد حيله، لم يشأ الشيخ أن يتعجل تنفيذ ما انتواه، فالسرادق غاص بالحضور وهو لا يرغب فى إفساد ليلة مأتم جدته، وكان فى الحقيقة يشبه العرس، أفردوا لمساعد مكانا بين الأعيان الذين اصطفوا فوق المقاعد المذهبة التى تحتل جوانب السرادق، ومن مكانه فى صف استقبال وتوديع المعزين نظر موسى إلى الرجل فى تمعن، تمنى لو يفطن إلى نظراته لكن مساعدا كان مشغولا بالعبث فى شاربه والنظر فى فراغ السرادق تيها وإعجابا، وقبل أن يختتم المقرئ الربع فوجئ موسى بسيد احمد يتوجه إلى مساعد ويسلم عليه مرحبا، وسط دهشة الجميع، فلم يكن سيد احمد واقفا فى الصف عند قدومه، وما أن فعل حتى التفت الشيخ أحمد إلى موسى وهمس فى أذنه:

– هو لا يعرف مما نعرف شيئا.

وافلحت كلمات الأب فى تهدئة خاطره قليلا، لكنه عاد لينظر فى اتجاه أخيه، ويتبعه أينما يذهب، وكانت العادة ولا تزال أن يمر أحد من

أهل المتوفى فى السرادق لتحية المعزين، بكلمات بسيطة تشكر سعيهم وبيدين مرفوعتين تحييهم قبل أن تربت على الصدر محبة وامتنانا، وذلك بطريقة تبادلية يقوم بها أهل المتوفى الواحد بعد الآخر، وحتى ينتهى العزاء، وكان سيد احمد وبعد أن قصد إلى مساعد بالذات وصافحه مرحبا قد انطلق يحيى المعزين ويشكر سعيهم ويمتن لحضورهم، وكان بطوله الفارع ونحافته المفرطة ينحنى وهو يمتن لهم ويحييهم، و لم تنقطع نظرات موسى إليه، ضاع أثر الكلمات التى قالها أبوه، وعاد ليشعر بالكثير من المرارة، ويتمنى لو أنه لم يولد على النحو الذى هو عليه، ولكن على نحو ما عليه أخوه، تمنى ألا يرى من الأشياء إلا ما يرغب فى رؤيته، ولا يهتم لشىء إلا لما يريد.

انتهى ربع القرآن فظل مساعد جالسا، لم ينصرف مع المنصرفين، ووضح أنه سيبقى لربع آخر. نسى الشيخ أمره مؤقتا وانشغل باستقبال المعزين الذين كانوا يشدون على يديه بصورة مبالغ فيها، تحت تأثير الانبهار بالترتيبات والأضواء التى تسطع فى المكان، والسرادق الضخم الذى يترامى فى الجرن الكبير، لكن موسى وبعد أن جاء سيد احمد ليقف إلى جواره ويستقبل المعزين تركه وانطلق إلى داخل السرادق يحيى المعزين ويمتن لهم، وبدأ فى التلويح بيديه وشكر المساعى حتى إذا ما بلغ الموضع الذى يجلس فيه مساعد وقف قبالته، نظر فى وجهه مليا ثم انصرف دون أن يتحدث بكلمة واحدة، نظرة فهم منها مساعد أن ما يفعله وإن انطلى على الآخرين لا ينطلى عليه هو، وأن تحديه له سيمتد إلى ما لا نهاية، وربما يكون مساعد قد فهم أن الفتى يعلم شيئا مما دبره له.

وجاء الوقت مع نهاية الربع الثانى، لكن مساعدا لم ينصرف أيضا، وظل جالسا هناك لحضور ربع ثالث، وانتهى الربع الثالث و لم ينصرف، وفهم الشيخ أن الرجل يريد أن يراه فى العزاء كل أهالى المنطقة، حرافيشها وأعيانها، صغارها وكبارها، حتى إذا ما تمكن من ابنه أشهد الجميع على أنه تصرف مع جيرانه على نحو لا يفعله إلا الجار الحقيقى، فلقد اعتبر أن المأتم مأتمه، وظل جالسا فى العزاء طوال الليل، وهو نفس ما أدركه موسى، وكاد يفقد صبره واتزانه، لكن نظرات أبيه المحذرة منعته من التصرف على نحو يسىء إلى الأسرة كلها، وكان سيد احمد مبهورا ببقاء الرجل فى مأتمهم طول الليل، ولا ينفك ينبه أباه إلى هذه الحقيقة، كما لو أن أباه لا يدرك أن الرجل ظل جالسا هناك فى صدر السرادق من بعد آذان العشاء وحتى انتهاء العزاء.

انصرف المعزون فى نهاية السهرة، وانشغل الرجال فى جمع المقاعد والبسط والمناضد، وصعدوا ليحلوا أربطة قطع السرادق الطولية المزخرفة، وإذا بمساعد يقوم ومعه أعوانه، يتحلقون حوله فى مظاهرة مفضوحة، وتقدم إلى الصف الذى يقف فيه الشيخ أحمد وأولاده موسى وسيد احمد وإبراهيم ومحمد الطوخى وسليمان، وغير بعيد وقف السيد وإسماعيل، وما أن وصل إلى الصف حتى توقف المصاحبون وفتح الرجل يديه بمهد لاحتضان الشيخ، لكن الشيخ اكتفى بمد يده ليصافحه، وفهم مساعد أن الشيخ راغب عن احتضانه، وأسر الشيخ فى أذنه:

– أعرف تدبيرك مع حسن الديربى يا مساعد.

وانصرف الرجل دون مصافحة الواقفين فى الصف كالمعتاد.

جميع من فى الصف لاحظ ما دار بين الشيخ والأعرابى، وفهم إبراهيم والسيد ومحمد الطوخى كل شىء، وكانوا على علم بكل ما جرى من كبير منسر ديرب، وما أبلغ به أباهم، الوحيد عدا الأطفال الذى لم يكن يعلم هو سيد احمد، وإذ رأى أن الجميع يعرفون ما يدور امتلأ بالغضب وترك السرادق وانصرف إلى داره.

تقدير الشيخ أحمد السرسى أن مساعدا سيسلك ردا على ما جرى واحدا من طريقين، إما يدعى عدم العلم بما جرى حتى ليقسم بأن ما بلغهم هو الكذب بعينه، وإما يتجاهل الأمر ولا يعيره انتباها، وتصرفهم سيعتمد على أى الطريقين يتبع، فإن كان الأول فإنهم لن يقبلوا تحقيقا فى الأمر، وسيعتبرون أن إنكاره يكفى مؤقتا للتجاوز عن الموقف والرجوع إلى حالة الهدنة، فالشيخ لا يظن أن الرجل من الغباء بحيث يسرع من وتيرة الاعتداء وهو الذى يحرص على أن يبدو بريئا، أما إذا كان الثانى فإنه ما يطلبه موسى من إعداد العدة للهجوم على المضارب أو رد الصاع فى الخفاء، لمساعد نفسه، وبالطريقة التى اتبعها مع ولده.

كلهم كانوا فى ذلك الصباح البعيد حاضرين، حتى الفتيان والأطفال، وحول نوافذ المندرة الكبيرة وقفت النساء وعلى أكتافهن الأطفال الرضع، كان يوما عظيما بحق فى تاريخ عزبة السرسى، ذلك اليوم الذى جمع فيه الشيخ كل أبنائه ليعرض عليهم ما كان من أمر مساعد مع أخيهم الأكبر موسى، فى ذلك اللقاء المشهود والذى تفرد له الحكايات مساحة عظيمة أعلن موسى فى حضور أبيه وجدته مريم أن ما فعله الأب إذ قام بتوزيع الأرض بينهم لم يكن ليفتت وحدتهم ويفرق جمعهم، ولكن ليعالج

اعتبارات تتعلق بنمو الأرض المستصلحة وخلق حالة منافسة بينهم لصالح الجميع، وأن صراعه مع مساعد ليس شخصيا ولا يمكن أن يكون كذلك، فالأعرابى يهدف إلى قتله ليتمكن منهم كلهم وليس هو بمفرده، وأن من يتعامل من أخوته مع الأعرابى لن يكون له به صلة إلى أن يموت.

طلب سيد احمد أن يوضح أخوه كلامه، ويبين من يقصد بهذا التحذير، وأجاب موسى فى هدوء:

- لا أحد بعينه يا ابن أبى.

ورمق الشيخ سيد احمد بنظرة معاتبة، فهو لم يعد صغيرا ليشق الأسرة فى وقت هى أحوج ما تكون فيه إلى الوحدة، وما قاله موسى بالنظر إلى ما يتعرض له من مؤامرات الأعرابى مُبَرَّراً، لا، بل مطلوبا، حتى لا تضيع المعانى فى التراب وتسقط العزبة فى هاوية الانحدار ويكتب عليها أن تتشتت من جديد، لكن سيد احمد لم يكن راضيا عما اعتبره تعريضا به، هكذا على الملأ، وأمام زوجته التى كانت تمسك بيحيى بإحدى يديها وتضع على كتفها صغيرتها مريم التى راحت تتابع ما يدور فى براءة وتدس قبضتها فى فمها، ولما وجد أن اعتراضه لا يحظى بإقرار الجميع اندفع خارجا، ووجد الشيخ نفسه مضطرا إلى مطالبته بالبقاء، ولكن بحسم هذه المرة، وعندما لم يمتثل للطلب زعق فيه زعقة ألجمته، وجعلته يقف حيث هو، ثم يعود إلى مكانه صاغرا، وجلس هناك ينظر بين يديه ويغالب الرغبة فى البكاء.

كل من كانوا فى المندرة الكبيرة أو متحلقين حول نوافذها فى ذلك

اليوم البعيد عرفوا أن الأعرابى استأجر رجالا لقتل موسى، لكن الرجال رفضوا المضى فى المؤامرة، وأيقنوا أن موسى يتعرض لتهديد حقيقى بالقتل، وإذا أصيب بسوء فإنها بداية النهاية لوجودهم فى المكان، وإن هى إلا سنوات أو شهور حتى يعودوا إلى الشتات من جديد، ولكن هذه المرة بدون الجسارة التى كانت، والبطولة التى كانت، واللحمة التى كانت، والإرادة التى كانت، ومن مكانها فى المندرة الكبيرة طلبت الجدة مريم أن يبدى سيد احمد رأيه، كانت تبحث عن وسيلة لإعادته إلى قطيع الأسرة الكبيرة، والعزبة التى تنمو بطريقة رائعة، وكان سيد احمد عازفا عن الكلام، إن هى إلا خشيته من غضب أبيه التى جعلته يقف ويقول:

– جميعكم تأخذون على رغبتى فى مسالمة السمدانى، لكنكم تتجاهلون أن تلك الرغبة لا يقصد منها التفريط فى حق أو التجاوز عن إساءة، كل ما هنالك أننى أرغب فى أن يمكننا الهدوء والاستقرار من استصلاح المزيد من الأرض، والتوسع أكثر فى البناء، حتى يكون لكل منا داره ودواره ومخازنه وحظائره، وحتى تصير هذه العزبة الصغيرة قرية عمدتها واحد من أبنائنا أو أحفادنا.

وقاطعه أبوه:

– ما رأيك فيما قام به السمدانى.

وسأل سيد احمد:

– بخصوص ماذا؟.

فقال الشيخ حانقا:

- بخصوص استجار من يقتل أخاك.

وانبرى سيد احمد:

- نطلبه للتحقيق لنرى إن كان ما قاله رجل المنسر حقا.

وهم موسى ليرد، لكن إشارة من مريم ألجمته، كانت وهى تودع الأم الخبيرة قد فقدت كثيرا من رونقها وعافيتها، وصارت عجوزا إلى حد أن ابنها وأحفادها لم يصدقوا أن من تجلس هناك وتتحدث هى مريم، الجميلة العفية التى تقهر الزمن، قالت فى وهن:

- لم تتقدم كثيرا يا ابن إبنى، طلبتك لتتحدث بما يقوى عزيمة أخيك، وليس بما يناهضها، بما يعين أباك على أن يرى رأيه لا بما يسلب قدرته.

وتدخلت سرية، كانت واقفة هناك عند الباب، وإلى جوارها وقفت حورية ودموعها تنساب حزنا على ابنها وإشفاقا:

- سيد احمد ليس إلا أخ موسى الأصغر، وما يراه أبوه وأخوه طوق فى رقبته.

ونظرت لابنها معاتبة، و لم يجد سيد احمد بدا من أن يقف ويصادق على ما قالته، ويردده بحروفه، وانتهوا فى ذلك اليوم إلى نتيجة حاسمة، فالأعرابى ليس إلا عدوا للأسرة كلها، والتعامل معه عن غير طريق الأب مرفوض، وكانوا قد قرروا أن يرسلوا فى طلب الشيخ دسوقى والحاج سويلم ليعرضوا عليهما الأمر، وليشاركا فى إقرار ما يجب فعله.

بغلة الليل

هي غواية القص، أو استراحة محارب، أو هي قيلولة تعود بعدها الأمور إلى مجرياتها ويستقيم الراجل ليكمل مشواره. لست مدفوعا بالغواية وحدها، كما ولا أرغب في الخروج عن السياق، أنا فقط تواق لأن أقص حكاية صغيرة لتكمل حكايات الأسرة، فأنا وبرغم كل شيء لم أستطع تجاهلها، أو التظاهر بأنها ليست هناك، قابعة في ثنايا الحكايات، وهي وإن استعصت على أن أضفرها ضمن السياق لتكون فصلا من فصول الحكاية الكبرى إلا أن ذلك لا ينكر عليها الحق في كونها حكاية من حكايات أسرتي، قائمة هناك في قلب وعقل وذاكرة الحكائين، فهي بالذات لم ترو أبدا ضمن السياق، فقط نحكيها عندما نتطرق إلى الحديث عن الجن.

تفتتح الحكاية بابتسامة ذات معنى، أو بضحكة قصيرة، كأنما ليوحي الحكاء للسامعين أن ما سيبدأ في قصه عليهم هو شيء مغاير، أو لنقل إنه حدث فانتازى قد لا يكون صحيحا، وإن كانت له في داخل الحكايات الأسرية قيمة يفيها الحكاؤون بمعيار الطلب عليها، فما قصصته حتى الآن من أخبار وحكايات أسرتي وغطى زمنا يزيد على مائة عام لم يتضمن

حكاية من هذا النوع، فمنذ خرج الركب القديم فى منتصف خمسينات القرن الثامن عشر وحتى اجتماع الأسرة للبحث فى كيفية الرد على ما فعله مساعد السمدانى فى بداية ستينات القرن التاسع عشر يكون قد مر أكثر من قرن من الزمان، وطوال تلك الرحلة الطويلة لم نصادف مثل هذه الحكاية.

فى تلك الأيام البعيدة كان جدنا الأكبر موسى «الثانى» معتادا على أن يغادر العزبة ويتسلل إلى مندرة الغيط، يتفقد الخندق الكبير وغيطانه فى سكون الليل وظلمته، وينفرد بنفسه ليتأمل أحوال الدنيا وتصاريف القدر، لم يعد الأمر متعلقا بأمور يقوم بها نيابة عن الأسرة، فكل فريق من الأخوة كان قائما على زراعة أرضه واستصلاح ما يقدر على استصلاحه، لكن موسى كان عاشقا للخوض فى غمار الليل، ينفرد ويرى من خلال الظلمة حقائق الليل والنفس، ويتدبر أحوال البشر والدنيا، وربما يجد العزاء لما جرى له من الخصوم والأخوة على حد سواء. مولد أبناء الليل والاستعانة بهم انفض، فمنذ قسم الشيخ أراضى عزبته على أبنائه رفضوا الإسهام فى تكلفة الاستعانة بالمنسر، و لم يعد هناك من أحد إلا رجلين أو ثلاثة تكفل موسى بأجرهم ليقوموا على حراسة حظائره وأدواته وأجرانه.

كان جالسا هناك عند ركن المندرة يمعن النظر فى الليل، وإذا به يسمع نخيرا آتيا من مكان قريب، لرهف السمع وحدق فى الظلام فرأى شبحا يقف غير بعيد، عند حافة الخندق، وتحقق منه مليا، وعندما اعتاد النظر إليه تأكد له أن ذلك الكائن العجيب ليس إلا بغلة تنقل أقدامها فى توتر وتنخر بمنخريها وهى تواصل التقاط شىء من الأرض كأنه طعام، شىء ما أقعده

عن النهوض لاستطلاع أمر تلك البغلة العجيبة، ظل جالسا فى موضعه يتأمل حركتها ويتعجب من أفاعيل الليل فى بقعته الرائعة. أدركت البغلة أن موسى لا يحرك ساكنا فظلت واقفة هناك تتناول ما قد يكون طعامًا وتدق الأرض بقدميها الأماميتين، وتنخر بمنخريها طاردة الهواء فى وجه الليل الساكن.

ما الذى ظنه موسى فى ذلك الوقت البعيد؟!، ما الذى دعاه لأن يعجب من معجزة الليل التى تقف على أقدام أربع وتجد الطعام فى حافة قاحلة جرداء، وتتظاهر بالتغافل عن الجالس هناك عند الركن يرقب الليل ويرقبها، ويتمعن فى الظلام؟!، ما الذى دعاها لأن تقترب وتستعرض نفسها أمامه كأنها الغواية؟!، كل ذلك كان يجرى وهو جالس عند الركن، فاردا رجليه على استقامتهما ومسندا ظهرة إلى الجدار ومستسلما لإحساس مفعم بالغموض والسحر، وعندما اقتربت أكثر لمع شعرها الداكن بانعكاسات الأنجم البعيدة، ودارت دورة كاملة تعرض نفسها عليه حتى طالت أقدامها رجليه المفرودتين ومست وجهه شعيرات ذيلها الطويل وصفرت فى أذنيه حركة ذيلها تنش به اللاشىء فى قلب الليل.

أتراه عرف فى تلك اللحظة أنها هى ولا أحد غيرها؟!، أم تراه ظل جالسا هناك يشاهد الاستعراض الغريب الذى يجرى بين بغلة الليل والإنسان؟!، تقول الحكاية إنه فطن إلى الأمر منذ اقتربت ومست قدميه، وبحث عما يعينه عليها فعثر فى جيب صديريه على مسلة يستخدمها فى رتق أجولة الحبوب وأكياس التبن، وما أن تيقن من وجودها فى يده حتى قام فى هدوء واقترب منها، كل شىء منذ قام من مكانه تغير، فالبغلة

الليلية الرائعة وقفت بمحاذاته وأناخت ظهرها لتغريه بركوبها، وموسى اقترب منها حتى لفحت أنفاسها المتوترة وجهه، نظر فى عينيها ورأى التماع نفاذ الصبر وبريق الترقب، ومر براحته على كفلها فاقشعر جلدها وأطلقت مئات التوترات الصغيرة التى سرت فى جسدها متابعة كموج البحر، ثم مدت رقبتها نحو الأرض تمهد ليعتليها.

فى قفزة واحدة مفاجئة صار فوق ظهرها العارى من أى شىء إلا شعرها الدافئ، أحاطت رجلاه ببطنها الضامر، وما أن شعرت به فوقها حتى انقلبت إلى مارد رهيب، رفعت قائميها الخلفيين ورفست بهما رفسة هائلة جعلته يطير فى الهواء، لكنه عاد إلى موضعه من الظهر المقشعر كأنه الشوك، وظلت تتلوى فى عنف وتجاهد لتلقيه من فوق ظهرها، لكن يده الممسكة بالمسلة كانت الأسبق، وبضربة واحدة انغرست المسلة فى كتفها الأيمن، وشعر بالجسد المارد تسكن حدته، وتهدأ ثورته، ومن خلال أنفاسها المتلاحقة شعر بجسدها المتقلص المتصبب عرقا يستقيم، والتفتت تنظر إليه، وفى عينيها رأى دمعتين، فلقد تمكن منها و لم تعد أبدا تلك الجنية التى تغرى المرصود بالركوب فتقتله، لقد تمكن منها الشاب الذى طالما رصدته وتمنت لو تقضى عليه لتنعم بمواصلة الحياة.

تقول الحكايات إن البغلة التى كانت جنية من جنيات الليل عاهدت موسى على أن تظل مطيته طالما هو حى، وتمنت عليه أن يحررها إذا شعر بدنو أجله، أو بقرب رحيله، وإنه رفض أن يعاهدها على ما طلبت، فلا عهد لإنسان مع الجن، وإن كان قد مد أصابعه ومسح دمعتيها المنحدرتين فوق الصدغين الرائعين، وكانت قد تبدت له فى صورة أخرى ذات مرة،

ولكنه أفلت من غوايتها وندائها فأعادت الكرة، ولكن فى صورة بغلة رائعة تغريه على ركوبها.

فى المرة السابقة كانت جالسة هناك، عند شاطئ ترعة البوهية، امرأة ترتدى السواد تقعى إلى جوار جرة مملوءة بالماء، كان الليل بهيما والطريق خالية إلا منهما، ابتعد عنها وجلا وواصل سيره، لكنها نادته، صوتها كان واهنا كأنها عجوز:

- موسى... موسى.

ولما وقف غير بعيد قالت:

- أعنى على حمل الجرة يا ولدى.

وداخله شك فى حقيقتها، ما الذى يأت بامرأة مثلها فى ذلك المكان وفى ذلك الوقت؟!، لكنها كانت تتوسل إليه:

- ارجوك يا ولدى أعنى على حملها.

واقترب ليساعد فى رفع الجرة فوق رأسها فإذا بعينيها المشقوقتين تخرج منهما النار، وإذا بذيل طويل يلعب تحت جلبابها فقفز مبتعدا، وإذ لم تتمكن منه راحت تلعنه بصوت عجوز متقطع، وتتوعد بألا تتركه يحيى.

تقول الحكايات إن البغلة الشهيرة، بغلة جدنا موسى «الثانى» لم تكن فى الحقيقة إلا تلك الجنية التى روضها بغرس المسلة فى كتفها فى تلك الليلة البعيدة، وإنها ظلت على عهدها معه حتى فقدت فى أحداث جسام سيأتى ذكرها، لكن تلك الحكايات هى نفسها التى تقول إنه لم يأت بها

أبدا إلى العزبة، بنى من أجلها عريشة إلى جوار مندرة الغيط، وكان يتركها هناك فى الليل بعد أن يملأ مزودها بالعلف ويعود إليها فى الصباح فيجدها كما هى، ولشهرتها ومعرفة الناس بحكايتها خافوا الاقتراب منها، كما خشوا التلصص عليها لرؤيتها والاطلاع على أحوالها.

تلكم هى حكاية جنية الليل مع موسى، وهى على ما ترون حكاية غير مسبوقة ولا ملحوقة فى تاريخ الأسرة القديمة، فنحن على ما أسلفنا نعرف أن أساس هذه الأسرة رجال تربوا فى مناخ علم دينى راشد، بعيدا عن حكايات العفاريت والجن وكائنات الليل العنيدة التى تستهدف الإنسان، لكننى عثرت على أسباب لوجود تلك الحكاية بالذات فى تاريخ الأسرة القديمة، ولتعلقها بموسى بالذات، فالذى نعرفه أن موسى كان مستهدفا بالقتل من قبل مساعد السمدانى، وكانت أول محاولة للنيل منه فى تلك الليلة الرهيبة التى وقع فيها الهجوم على مندرة الغيط لخطفه وقتله، أما الثانية فكانت عندما استأجر الأعرابى رجال منسر ديرب لتنفيذها، وكانت هاتان العمليتان فى حياة أبيه الشيخ أحمد السرسى، وأبى الشيخ إلا أن يُعَرِّف أبناءه وعلى الرأس منهم سيد احمد بتفصيلات محاولات الأعرابى لقتل أخيهم، حتى إذا ما رحل يجتمعوا من حوله ولا يمكنوا الرجل منه، فالذى كان الشيخ أحمد على ثقة منه أن مساعدا يعد موسى العقبة الرئيسة فى طريقه لاستلاب أرضهم وضمها إلى أملاكه، كعادة الأعراب فى ذلك الوقت، وهى عادة راجعة إلى النظرة المتعالية التى كان الجميع ينظرون بها إلى الفلاح المصرى، باعتبار أنه الأقل قيمة، وأنه يتصف بصفات تجعله الأدنى، كذلك شعر العثمانيون الأتراك، والمماليك والبدو،

حتى الدلاة والمغاربة والشوام والأحباش والأرناؤود والأرمن، ومن بعدهم الأوروبيون من فرنسيين وانجليز وهولنديين وبلجيك وإيطاليين وغيرهم وغيرهم ممن تعاقبوا على البلاد لنهب خيراتها والاستعلاء على أهلها.

لكن كل محاولات مساعد لقتل موسى ذهبت سدى، ولا أستبعد أن تكون الحكاية التي جاءت مواكبة لتلك المحاولات الفاشلة قد توطنت في نفوس أبناء عزبة الشيخ أحمد السرسي تبريرا لفشل المحاولات، فإذا كان الجن قد انطاع لأمره أوَ يقدر أحد حتى ولو كان مساعد السمداني على النيل منه؟!، أظن أن ذلك هي أصل الحكاية، وإن كانت كل الحكايات التي تتعلق بكائنات الليل الغامضة لا يمكن إرجاعها إلى أسباب معروفة أو محددة.

أنشودة الصعود

في تلك الأيام المشحونة بحكايات الليل ومحاولات النيل من موسى وقع الشيخ أحمد مريضا، ولزم الفراش في الدار القديمة، قامت على رعايته ابنتا عمه، حورية وسرية، وزاحمتهما شام وزكية في محاولة للقيام بأى دور، وجلست عند قدميه أمه الجدة مريم وقد ربطت رأسها بطرحتها، كانت قد تبدلت، لم تعد هي مريم التي يعرفونها، ومثلما كان وجه الأم الخبيرة في بداية قعودها امتدت الغضون إلى وجهها، وحفرت لنفسها أخاديد تمتد من كل مكان لتتجمع عند زاويتى فمها الذى تساقطت أسنانه.

قبل أيام قليلة من سقوطه مريضا شارك الشيخ في قياس الأراضي التي تقع إلى الغرب من أبعديته وتتماس مع زمام شبراسندى، اشترتها من مدير المديرية امرأة تدعى عقيلة هانم الفائغ، وهى امرأة من أصل تركى يشاع أنه ينتهى إلى السلطان سليمان الفائغ، ومتزوجة من رجل مصرى لقبه مرسال، وتقيم مع زوجها في «مصر» المحروسة. فور أن تم الشراء جاء القياسون لقياس الأرض، وحضر الشيخ أحمد لوضع الحدود الفاصلة بين الملكين، وشرعوا في بناء عدة دور لما يسمى الآن بعزبة الفائغ.

ليس هناك من سبب معلوم لما أصاب الشيخ، فالحياة كانت تمضى كعادتها بحلوها ومرها، وحلوها لديه فى تلك الأيام كان أكثر من مرها، وكذلك لدى أسرته، حيث أكمل موسى استصلاح الأرض التى يحوزها هو وأخوته إبراهيم والسيد، كما وأتم سيد احمد استصلاح ما يحوزته هو وسليمان وفاطمة وأم الرزق، وإن كان محمد الطوخى وإسماعيل والشيخ نفسه لم ينجزوا شيئا يذكر بخصوص استصلاح ما يضعون الأيدى عليه، وكان الأبناء يمضون فى حياتهم دون عقبات كثيرة تعوق تقدمهم وتحققهم فى المكان، وبين الناس الذين ينظرون إليهم نظرة إكبار واحترام وود.

الأحوال فى البلاد كلها كانت طيبة، إلى حد معقول، فالحرب الأهلية الأمريكية التى اندلعت ما بين العامين 1861 و1865 منعت القطن الأمريكى من الوصول إلى أسواق العالم، واتجهت إلى الاستعاضة عنه بالقطن المصرى، وزاد سعر القطن إلى درجة أن القنطار الواحد بيع باثنى عشر جنيها، وهو لم يكن يباع قبلها بأكثر من جنيه، وترتب على ذلك أن تراكمت الأموال فى أيدى الأعيان وفى خزينة الخديوى الجديد إسماعيل، الذى راح ينفق ببذخ على مشاريعه بتعديل قواعد وراثة الحكم وحصرها فى أكبر أبنائه وليس فى أكبر الذكور من نسل محمد على باشا كما كان مقررا من قبل، وأيضا فى منحه حق وضع القوانين والأنظمة الداخلية وعقد القروض الخارجية وغيرها، وقد حصل على ما يريد عن طريق الرشاوى التى دفعها للسلطان وللصدر الأعظم ولغيرهم من أصحاب النفوذ فى الآستانة.

فى ذلك اليوم البعيد كان الشيخ أحمد فى دار زكية، إلى جواره يجلس

صغيره أحمد الضبع الذى حرصت أمه على أن تجنبه العمل مع أخوته فى الغيطان، وفجأة وفيما هى تقضى شأنا من شئونها فى صحن الدار سمعت صرخة ابنها فجاءت مسرعة، كان الشيخ قد سقط على أحد جانبيه وأمسك بصدره، الآلام التى تهاجمه تبدو على وجهه المتقلص بشدة، وظنت لوهلة أنه يموت، لكنه بالكاد أشار إليها لتنادى أحدا من الدار القديمة، فخرجت مسرعة، وهناك أبلغت سيد احمد الذى عبر المسافة بين الدارين فى بضع خطوات. لا يعرف أحد كيف انتشر الخبر فى العزبة، وتقاطر الأبناء جميعهم، وإن هى إلا دقائق حتى كانت المطايا جاهزة للذهاب إلى السنبلاوين، طلبا للطبيب الشامى الذى افتتح هناك عيادة منذ شهور، ولم يفت موسى أن يسارع بالذهاب إلى قرية أبى داوود السباخ فى طلب رجل يلجأ إليه الناس فى مثل تلك الحالات، يدعى الحاج منصور.

سرعان ما عاد موسى وبرفقته الحاج منصور، وكانت حالة الشيخ قد استقرت، لكن الآلام لا تزال تهاجمه فى يسار صدره وكتفه وذراعه الأيسر وإن بدرجة أقل حدة، قال الحاج منصور إنها علة فى القلب، وإنه فى أمس الحاجة إلى راحة تامة لعدة أسابيع، لا يتحرك فيها ولا يتكلم، ولا يكلمه أحد أو يزوره، فقط يتركوه لينام، وأوصى بمنع الطعام عنه مكتفيا بإعطائه سوائل وماء لمدة أيام ثلاثة، وأخرج من حقيبة يحملها قارورة أعطى منها للشيخ سائلا شربه، ومكث أكثر من ساعة ملازما له ثم أعطاه جرعة ثانية، وقبل أن يستغرق فى النوم طلب الشيخ بأحرف غير مسموعة أن ينقلوه إلى الدار القديمة ليكون إلى جوار أمه، وحمله إبراهيم وأوصله إلى هناك، وما أن استقر فوق سريره حتى راح فى النوم.

يبدو أن العقار الذى أعطاه منه الحاج منصور كان يبعث على النوم، إذ ظل الشيخ نائما حتى عاد سيد احمد من السنبلاوين وبرفقته الطبيب الشامى، و لم يكن الحاج منصور قد انصرف، إذ لما عرف بأنهم أرسلوا فى طلب الطبيب الشامى بقى فى انتظاره، وبالدهشة الجميع عندما رأوا الطبيب الشامى وهو يحتضن الحاج منصور، ويمتدح الفكرة التى جعلتهم يستعينون به، وجلس الطبيبان يتحدثان، شرح له الحاج منصور رأيه فى مرض الشيخ والعقار الذى أعطاه إياه، وإذ اطمأن الطبيب الشامى إلى أن الشيخ قد لقى إسعافا مناسبا أخرج سماعته وراح يضعها على صدره وظهره، وبعد أن فرغ من ذلك أخرج قارورة صغيرة وأخذ منها بعضا من السائل فى حقنة وحقنها فى جسده، وكان الشيخ قد استيقظ لما أرادوا تهيئته لكى يكشف عليه الطبيب.

أيام عديدة كان الشيخ أحمد ينام فيها طوال اليوم، من حوله تناوب الأبناء التواجد، حتى كان يوم دخلت حورية لتجده جالسا فى السرير يطلب الطعام، لم يكن طلبه معتادا، فطوال فترة المرض كان عازفا عن الطعام، ولا يقبل حتى رائحته، والآن هو يطلب الطعام بفمه، وأسرعت فأعدت فروجا طهته بدون ملح كأمر الطبيبين، وقدمته مع قليل من مرقه فتناول جزءا منه راضيا، وشكر ربه، وعاد الحاج منصور الداوودى لعيادته، وأوصى بأن يظل فى حجرته ولا يخرج منها أسبوعا آخر، وبألا يجاذب زائريه أطراف الحديث، وأن يتحلى أهل الدار بالشجاعة فيُعَرِّفوا الزائرين بحرج حالته وحاجته إلى الراحة والهدوء، وإذ خشى موسى أن يتهاونوا لزم بنفسه الدار، ونام أمام باب حجرته الأيام السبعة المطلوبة.

في ذلك الأسبوع حدث شيء استلزم جدالا محتدما بين الأبناء، جاء سيد احمد ذات ظهيرة بخبر طلب مساعد السمداني عيادة الشيخ في مرضه، خشي لو أنه سمح للرجل بالحضور أن ينفجر الوضع ويجد الشيخ نفسه وسط صراع لا يتحمل وطأته فينتكس، أو أن يُعْتَدى عليه، وعندما امعن الفكر رأى أن يفاتح جدته مريم.

أجملت الحكايات الأمر في صورة تؤسس للخلافات بين الأخوين موسى وسيد احمد، و لم تنس أن تضع من التفصيلات ما تجعل الصورة داخل الإطار واضحة إلى درجة يستحيل معها تغافل ما تعطيه من دلالات، أول هذه الدلالات هي الأسئلة التي عاشت في أدمغة الأبناء موسى والسيد ومحمد الطوخي، لماذا اختار مساعد سيد احمد بالذات ليوسل معه في طلب السماح له بعيادة الشيخ؟!، كيف التقاه؟!، ومتى؟!، هل أرسل في طلبه فذهب سيد احمد إليه في مضاربه؟!، أم التقاه في مكان آخر؟!، وإذا كان الأخير فأين التقيا؟!.

مريم لم تكن في حاجة لأن تطرح على حفيدها كل هذه الأسئلة، اكتفت بالنظر إليه وتعجبت:

– ما حكايتك مع الأعرابي يا أبا يحيى؟!.

فقلب كفيه متعجبا، يعترض على منطق السؤال، وعادت لتسأل:

– كيف تلتقي رجلا يحاول أن يقتل أخاك؟!.

شعر سيد احمد بأنه يفقد آخر سند له في الأسرة، سند له من القوة ما يستطيع أن يعوض به فقدان اى شخص آخر، حتى ولو كان أباه، فأبوه

أمامها إذا جد الجد ليس إلا ابنا يلتزم رأى أمه، ولعل الجدة مريم كانت تعرف ذلك، وتعرف أن حفيدها يتمتع بخصال تؤهله لأن يكون رجلا عظيما، لولا حالة الخلاف مع أخيه الأكبر، وإذ أدرك أن جدته لن تطرح أسئلة أخرى أجابها:

– أنا لم ألتقه، جاءنى أحد رجاله وسألنى إن كان يمكن للرجل أن يعود أبى فى مرضه.

ونظر فى وجه جدته ليعرف أثر حديثه، ولما رأى تباشير انفراجة فى الملامح المجهدة أردف:

– لم أشأ أن أجيبه بلا، فقد يكون لكم ولأبى رأى آخر، و لم يكن من الممكن أن أجيب بنعم للسبب الذى تعرفين.

وإذ هدأت ثورة غضب الجدة قالت:

– قل لرجله إننا لا نستقبل فى دورنا من يستأجر المنسر ليقتل أبناءنا.

موسى أدرك أن هناك سرا بين سيد احمد وجدته، وخمن أن يكون السر متعلقا بغريمه الأعرابى، وربما يكون قد أدرك أن الأعرابى يطلب أن يعود الشيخ فى مرضه، وعلى الفور جمع أخوته وحرضهم على رفض الزيارة، ومضى يوم وراء يوم، والجدة ترافق ابنها الشيخ وتنام عند رجليه حتى وجدته ذات صباح جالسا هناك على حصيرة صغيرة فى ركن الحجرة، لا تعرف كيف أخذها النوم إلى أعماقه فلم تشعر به وهو ينهض، ثم وهو يتخطاها فوق السرير ويهبط إلى الأرض، وإذ وجدته جالسا هناك مسحت عينيها وهبطت إلى الأرض هى الأخرى وجلست إلى جواره،

وكأنما كان فى انتظار أن تستيقظ إذ سألها بالطريقة التى حرصته عليها قديما والتى تحبها منه:

- ما العمل الآن يا مريم؟.

لم تنزعج، فهى تعرف أنه عندما يكون فى حاجة إلى الفضفضة يبادرها بمثل هذا السؤال، وبالطبع لم تكن هناك إلا إجابة فى صورة سؤال:

- فيم يا شيخ أحمد؟!.

مد قدميه معتذرا وانطلق يفضفض.

طالت جلسة الفضفضة إلى ما بعد العصر، وعندما قدموا له الطعام عزف عنه، كان فى حاجة لأن يستكمل حديثه لأمه، وظلت الأم الرائعة تحتفظ لنفسها بأحاديث إبنها لا تخرج منها إلا بقدر الحاجة، لكنها فى ذلك اليوم البعيد كانت تعرف أنه يودعها، يأتمنها على ما ينغص عليه صفوه، ربما استطاعت أن تتدارك ما عجز عنه، وكانت قد توضأت وصلت الظهر، ثم عادت لتصلى العصر، وعندما انتهى من حديثه، أو لنقل عندما شعر بالتعب وفضل أن يستريح قليلا خرجت لتقضى حاجة، و لم تغب إلا دقائق معدودات ثم عادت لتجده منكبا على وجهه يعتصر صدره من الألم، أنهضته من كبوته وجلست من خلفه وأسندته إلى صدرها، كان مدركا لكل شىء، وأن أمه جاءت لتأخذه إلى صدرها فنطق بالشهادتين، ثم أغمض عينيه واستسلم للموت.

إن ما فعلته الجدة مريم فى ذلك الأصيل البعيد هو عين ما فعلته جدات أخريات فى تاريخ هذه الأسرة القديمة، فعندما ثقل فوق صدرها وتراخى

جسده أدركت أنه مات، شيء ما انقطع في داخلها، وكان لانقطاعه دويا مؤلما، لم تشعر بمثله من قبل في حياتها، شيء متعلق بكينونتها، وبرؤيتها لكل شيء في الحياة الغادرة، التي تقلب الإنسان على كافة الوجوه، ومن أذنيها انبعث طنين غريب جعل رأسها يدور في الفراغ، شعرت بأن صدرها مملوء بالنار، وأن لظاها ينبعث من عينيها المحشوتين بالرمال، ووجدت نفسها ترتعد من الخوف وتنطق بكلمات لا تعرف كيف أو متى تعلمتها، وبعد قليل أدركت أنها لا تزال تحتضنه بشدة، كأنها تستبقيه، أو تتمنى لو تحمله بداخلها من جديد، انسحبت وهي تتمتم بكلمات غامضة، وأراحته إلى الأرض، كان كالنائم فمسحت بأصابعها فوق عينيه حتى تأكدت من إغلاقهما، ثم قامت إلى السرير وسحبت الملاءة وغطته بكامله.

لم يدرك أحد ممن كانوا في الخارج ما يدور بداخل الحجرة، فلقد كانا يتحدثان منذ دقائق، و لم يكن الجزع الذي ترتعد من أجله مريم مسموعا، كان كالرعد يترجع في جنباتها الخاوية، فيما اللسان لا يمل تكرار الكلمات التي تعلمتها ذات يوم، ربما في الواقع وربما في الحلم، وربما في تجربة سابقة كانت بين الحقيقة والحلم، وبعد أن فعلت من أجله ما تعلمته طوال حياتها خرجت عليهم، قالت إن أباهم الشيخ قد أسلم الروح، وإنه ينام الآن غير هياب أو جزع، وإنها لا ترغب في أن يصوت أحد من النساء لموته، ليبكوا ما شاء لهم البكاء، رجالا ونساء، ولكن بلا صويت أو نواح، وقبل أن تكمل حديثها اندفع الأبناء إلى داخل الحجرة ووجدوا أباهم راقدا فوق

الحصيرة فكشفوا وجهه، وانهالوا يقبلونه، يقبلون وجهه وجبهته ولحيته الرمادية الجميلة، التي تضيء ملامحه بنور غامض.

رحيل الشيخ أحمد السرسى البناء العظيم والمؤسس الأول لعزبة السرسى من أعمال مركز السنبلاوين أكبر مراكز مديرية الدقهلية كان فى حوالى العام 1865، أى بعد عامين اثنين من رحيل الخديوى محمد سعيد باشا ومجيء ابن أخيه الخديوى اسماعيل. لا أظن أننى كنت أقدر على تصور جنازة الشيخ أحمد السرسى ما لم أكن قد مررت بتجربة مماثلة، فعندما وقفت فى جبانة الحجايزة لأتلقى العزاء ممن جاءوا ليشيعوا أبى إلى مثواه الأخير غرقت فى بحر من البشر، جعلنى وأنا واقف أسلم بيدى أو كفى أو حتى أصابعى لهؤلاء المشيعين أتصور ما قاله أبى نقلا عن عمه زكريا الذى رأى جنازة جده رأى العين، فلقد وصفها على نحو ما رأيت فى جنازة أبى، طوفان من البشر تموج بهم الجبانة الفسيحة، والطرق المؤدية إليها، حتى أن الناس فى غزالة والحجايزة وكفر سعد، ومن قبل فى العزب التى يمر بها الطريق المتجه إلى الجبانة، صعدوا إلى الأسطح ليشاهدوا تلك الجمهرة العظيمة التى لم يروا مثيلا لها فى حياتهم، والتى تتبع نعش أبى الذى عرفوه لأربعة وثمانين عاما.

فى مأتم الشيخ أحمد السرسى جاء الناس من كل البلاد، ورأى أبناءه لأول مرة رجالا جاءوا من بقطارس، قالوا إنهم أبناء عمومتهم، وظل السرادق مقاما أياما ثلاثة، حتى إذا ما هدأت حركة الناس وعاد الأبناء إلى أنفسهم جمعتهم جدتهم فى حجرتها، صغيرهم قبل كبيرهم، وإناثهم

قبل ذكورهم، أبناء حورية: موسى وإبراهيم والسيد، وأبناء سرية: سيد احمد وسليمان وفاطمة وأم الرزق، وأبناء شام: محمد الطوخي وإسماعيل الطوخي، وابن زكية: أحمد الضبع، ثمانية من الذكور وبنات لا أعرف عددهن، جميع الذكور عدا السيد وإسماعيل الطوخي وأحمد الضبع متزوجون، ولهم من زوجاتهم أبناء.

في ذلك الاجتماع عادت مريم مضطرة إلى موقعها من الأسرة، تعلم أن ترك الأمر لمجريات الأحداث سيوقع الفشل في صفوف أحفادها، خاصة إذا ما وضعت في الاعتبار أن المال يجرى في أيديهم جميعا، وبغير استثناء، فما حدث في مأتم أبيهم جعل سيد احمد يعرض عن موسى وينأى بجانبه، فبرغم أن الجدة مريم لم تبلغ أحدا من أحفادها عما قاله سيد احمد عن رغبة مساعد في عيادة أبيه في مرضه، إلا أن الجميع عرفوا بالأمر كأنه حادث أمامهم، وعندما انتقل الشيخ إلى رحاب ربه أرسل موسى إلى مضارب السمداني من يطلب منه عدم الحضور للعزاء، وهكذا ظل سيد احمد يتلفت حواليه طوال الليل ويتعجب كيف لم يحضر الرجل ليعزيهم، وعندما أصبح الصبح أرسل مساعد من يخبر سيد احمد بما حدث فثارت ثائرته، و لم يهدأ إلا عندما هددته جدته باتخاذ ما يمكنها من تدابير لمنعه من تدمير الأسرة وكسر شوكتها.

في ذلك الاجتماع قالت إن عدوهم هو من يريدهم جميعا أو أحدا منهم بسوء، ومساعد السمداني يريدهم جميعا بسوء، ولكنه يخفي ذلك، وبدلا من أن يواجههم في وضح النهار يعمل في الخفاء على الانتقام من أخيهم الأكبر موسى، ويستأجر المنسر لقتله، مرة في مندرة الغيط ومرة في

رحلة العودة بالأم الخبيرة إلى سرس القديمة، ونقلت إليهم قبسا مما أوصاها به أبوهم يوم رحيله، كانوا جميعا يتحلقون حولها في صالة الدار القديمة، قالت إنه طلب منها أن تجمعهم من حولها إذا قدر الله له أن يرحل قبلها، وأن تأتى بحزمة من أعواد الحطب، حزمة قوية وتحكم ربطها إلى بعضها البعض، وتطلب من كل واحد بمفرده أن يكسرها، وإذا عجزوا عن ذلك وسيعجزون تحل رباطها وتعطى كل واحد عودا ليكسره.

إبراهيم هو الذى أحضر حزمة الحطب، انتقاها من أعواد قوية وجمعها إلى بعضها وربطها فى إحكام، وكان موسى هو أول من دعى، وبرغم أنه يعرف هدف جدته - فلقد سبق وقرأ له أبوه تلك الحكاية فى أحد كتبه - إلا أنه احتراما لذكراه مضى ينفذ ما طلبته منه جدته، حاول أن يكسر حزمة الأحطاب لكنه لم يستطع، وكذلك فعل سيد احمد وإبراهيم والسيد وسليمان ومحمد الطوخى وإسماعيل الطوخى، حتى أحمد الضبع، كلهم فشلوا فى تحطيم الحزمة القوية، وعندما أمرت السيد بحل رباطها أعطت لكل واحد منهم عودا وطلبت أن يكسره، على الفور كانت الأعواد ترقد هناك فى أرضية الصالة عند أرجلهم، مكسورة بغير عناء.

لاحظت الجدة أن سيد احمد لم يَصْفُ لأخيه تماما فانتهزت الفرصة واستبقتهما لديها بعد انصراف الآخرين، وإذ كانت الدار تعج بالمتواجدين و لم تستطع أن تختلى بهما طلبت أن يصحباها إلى مندرة الغيط لترى آثار ابنها الراحل من بعيد، ولتعرف كيف استطاع أن يؤسس الصرح الذى ينعمون بخيراته ويأمنون فى دوره وينهلون من ينابيعه، وكانا يعرفان أنها تريد أن تبعد بهما عن الباقين مثلما أرادت أن تفعل ذات يوم، وكان

السـيد وبناء على طلبها قد أحضر العربة التي ذهبت بالأم الخبيرة إلى سرس القديمة، وفرش فوقها حشية لينة وأعان جدته على الصعود إليها بعد أن علقها إلى مطية نشيطة، وما أن صعدت إلى العربة حتى انطلقت الركوبة في اتجاه مندرة الغيط، كأنها تدرك ما تريده الجدة.

لم تعد مندرة الغيط كما كانت في الأيام الخوالي، لم تعد كنباتها وثيرة ونوافذها محكمة وبابها ينتصب في شموخ، كانت في ذلك اليوم البعيد تشكو الإهمال، وتحكي نوافذها وفرشها هجران أصحابها وتركها بغير اعتناء، لكنهما وجدا طريقة لتمهيد المكان خارجها، وضعوا المساند من خلف جدتهم بعد أن فرشوا حصيرة وأجلسوها هناك، كل شيء كان في ذلك اليوم البعيد يدرك أن المؤسس العظيم قد رحل عن الدنيا، الزروع المنكسة، والسماء الملبدة، والهواء الحزين، والأفق المصطبغ بلون الدم والدخان، والذي يعجز المرء عن سبر أغواره، وكذلك الخندق الكبير الذي امتدت إليه يد الإهمال فتكسرت حوافه وانهال ترابها في قعره فامتلأ به، حتى القناة التي حملت إليه ولا تزال ماء البوهية كانت تشكو الإهمال هي الأخرى، فلقد تركوها بغير تطهير أو اعتناء حتى صار بطنها بارتفاع شاطئيها.

لكن تغيرا كبيرا جرى في المكان، فها هي الخضرة تغمر كل الأرض، من موضعها وحتى نهاية أرض موسى وإخوته، وأيضا حتى نهاية أرض سيد احمد وإخوته، ووجدتها فرصة لتبدأ حديثها بالقول:

– بعد رحيل أبيكم لن تقوم لكم قائمة إلا إذا مد كلاكما يده لأخيه.

كانا صامتين ينتظران المزيد من الحديث، فما يمكن أن يقولاه بتوقف

على ماهية ما ستثيره من أمور، وهي في الحقيقة لا تريد أن تفتح أبوابا قد لا تغلق، فموسى على حق، لكن سيد احمد عنيد، وهو على الدوام يشكو إغفال أخيه لحقه في أن يشارك في اتخاذ القرار، وبرغم أنها أبطلت حجته من زمن عندما اقترحت بناء على طلب موسى أن توزع الأرض بين أحفادها واستجاب لرجائها ابنها الراحل، أقول برغم ذلك فإن سيد احمد لم يبرأ من حساسيته تجاه أي شيء يتعلق بأخيه، وظنت أنه يجعل من الأمر حجة ليخالفه.

موسى بادر إلى القول:

– لم يعد هناك ما يبرر الخلف يا جدتي، لنا سنوات كل واحد منا يتصرف في أرضه وزراعته وداره باستقلال.

وكأنما انتظر سيد احمد أن يتحدث أخوه فقال:

– نعم، ولكنك تواصل الاستهانة بي وجعلي عرضة لسخرية الآخرين.

واحتق القول موسى:

– إعطنا مثلا.

وأجاب سيد احمد بعد قليل من التردد:

– كان من الواجب أن تخبرني بأنك سترسل لمنع الشيخ مساعد من القدوم للعزاء.

ولاحظ موسى أن أخاه يجل غريمه على نحو يغضبه، وها هو يتجاوز عن كل شيء فعله الأعرابي ويقف عند ترهات من مثل إخباره برغبته

فى منع الرجل من القدوم للعزاء، و لم يعرف كيف يجيب فنظر إلى جدته وابتسم فى أسى وأطرق إلى الأرض.

ران صمت ثقيل، لم يستطع أى منهما أن يفلت من وطأته، وكذلك شعرت الجدة مريم بشيء من الغضب، ذلك أن سيد احمد وبدلا من أن يقترب من أخيه يحافظ للابتعاد عنه، لم يناقش ما ارتكبه الأعرابى فى حق موسى، ولا يستطيع أن يدعى عدم علمه بما فعل الرجل، فلقد وضعه أبوه ذات يوم فى الصورة وأحاطه علما بتفاصيل الرحلة إلى ديرب لرؤية كبير المنسر والوقوف على حقيقة استجاره من قبل مساعد لقتل أخيه، لكنها لم تشأ أن تطلق لغضبها العنان، فما هم مقبلون عليه يتطلب منها أن تقوم فضلا عن دور الجدة بدور الأب، فحفيداها اللذان يجلسان أمامها يحتاجان إلى من يقومهما ويردهما إلى جادة الصواب، وكأنما علم موسى ما يدور فى رأسها فقام إلى أخيه وأمسك برأسه وقبله، وقبل أن يعود إلى مكانه قال:

– لا أقصد أن أتجاوزك أو اهينك، أنت أول من يعرف أننى أقدر رأيك، وألتمسه كلما احتجت إليه.

ثم وهو ينظر فى اتجاه جدته:

– وأعدك بألا أقرر أمرا قبل إطلاعك عليه والتباحث معك بشأنه.

الجدة مريم مذهولة من البساطة التى تعامل بها موسى مع الموقف، وكانت وهى تنقل البصر بين حفيديها تتمنى لو تحتضن الشابين وتمزجهما ليصيرا كيانا واحدا، رجلا واحدا، يتسم بالإقدام والشجاعة والقوة

والايثار والسخاء والرغبة فى المسالمة والعناد معا، ولم تكد تفرغ من تأملاتها حتى كان سيد احمد قد تناول راس أخيه وقبلها هو الآخر، وانخرطا فى البكاء.

الصعيدى

برحيل الشيخ تغيرت الكثير من الأمور، انتقلت عز زوجة موسى للعيش مع حورية والجدة مريم، وامتلأت الدار القديمة من جديد بالأبناء، وحدث تعديل، التحقت حورية بحجرة الجدة مريم فيما أخليت حجرتها للزوجين موسى وعز، وشغل الأبناء الحجرة الثالثة، وصارت دار موسى مخزنا للحبوب وللقطن الذى تنتجه أراضيه هو وأخوته.

علاقة موسى بسيد احمد تتراوح بين المضى قدما والتعثر، شعر سيد احمد بشىء من الحرية بعد رحيل أبيه، وصار إذا أراد ينطوى تحت جناح أخيه، وإذا لم يرد يزور عنه ويمضى فى حياته مستقلا، وشيئا فشيئا صارت الأمور تأخذ طريقها نحو تقسيم العزبة بصورة تبعث على الأسى، لكنهم سرعان ما تأقلموا على الأوضاع الجديدة، ولم يعودوا يجتمعون إلا فى مناسبات بعينها، كأن تمرض الجدة مريم فيجتمعون من حولها، أو تلد إحدى الزوجات فيحضرون عقيقة المولود، وينعمون بليلة أخرى من ليالى وحدة الأسرة واجتماع شملها.

ظلت سرية تتواجد فى الدار القديمة أكثر من تواجدها فى دارها،

وصارت إذا ما طلع الصبح تترك دارها للفتاتين فاطمة وأم الرزق وتأتى لتطمئن على عمتها، وتشرف على إطعامها ونظافتها، لا يسعدها ابتعاد ابنها الأكبر عن أخيه، كما ولا يسعدها امتناع موسى عن محاولة التقرب منه، وإذ لم تستطع أن تفعل شيئا اكتفت بالدعاء ومراقبة ما يدور، لا تملك إلا مصمصة الشفاة والدعوة من قلبها أن يوقع الهدى بين الأخوين.

شام لم تعد سعيدة بانحياز ابنها الأكبر محمد الطوخى إلى جانب موسى على طول الخط، تمنت لو استطاع أن يكون محايدا، لكن انبهاره بموسى أفشل مخططها فى سحبه إلى الطريق الذى تريد، وكذلك فعل سيد احمد مع إبراهيم وإسماعيل الطوخى، اقترب كثيرا منهما حتى صارا يلازمانه ولا يتركان مجلسه، وحفز هذا الأمر السيد، فازداد التصاقا بأخيه الأكبر موسى، وصار كلما سنحت الفرصة يجتهد ليسحب إبراهيم من جانب سيد احمد، لكن الأمور تحددت على نحو لا يرجى تغييره فى أمد منظور.

وخرجت علاقة سيد احمد بالأعرابى مساعد السمدانى إلى النور، تبادلا الزيارات فى العلن، الأمر الذى أدهش الكثيرين وجعلهم يأخذونه عليه، حتى أن سرية – وهى أمه – لم تخف استياءها، وتحمل موسى كل ذلك فى شجاعة، تعامل مع الأمر بعقلانية حسدته عليها جدته مريم، وأشفقت عليه منها أمه وعمته سرية، وتمنت شام وزكية لو يثوب سيد احمد إلى رشده، ويعيد للأسرة تماسكها ووحدتها.

وجاء رمضان فنزل موسى إلى المندرة الكبيرة، أعاد إليها رونقها، جدد فرشها وحصائرها واشترى لمبات كبيرة تضاء بالزيت وعلقها فى سقفها،

واستقدم شيخا ليقرأ القرآن طوال الشهر، وأرسل إلى إخوته ليشاركوه الإفطار فاستجابوا لدعوته، ومثلما كانوا يفعلون فى حياة أبيهم صاروا يجتمعون على مائدة الإفطار طوال الشهر، وعلى مائدة السحور أيضا، ويشاركون فى السهرة طوال الليل ولا ينصرفون إلا بعد أن يصلوا الفجر. اجتمع من حولهم الرجال من العمال والكلاف والفلاحين، حتى أن المندرة فى وقت الإفطار كانت تغص بالرجال إلى درجة تسر العين وتفرح الخاطر، وتجعل مما يجرى دليلا على عودة الحياة فى العزبة إلى مجرياتها.

وضعت الحرب الأهلية الأمريكية أوزارها، وعاد القطن الأمريكى إلى الأسواق فقل الطلب على القطن المصرى، وعاد الكساد ليعبث فى البلاد طولا وعرضا، واستدان الناس من المرابين الأجانب الذين انتشروا فى البلاد، ولما عجزوا عن السداد استولى هؤلاء على أراضيهم، وواكب ذلك حاجة الخديوى اسماعيل إلى المزيد من المال فعاد إلى فرض الضرائب الباهظة، ولما عجز الفلاحون عن السداد هجروا الأرض وتنقلوا من مكان إلى مكان بحثا عن لقمة خبز يقيمون بها أودهم وأود أطفالهم، و لم يقف الأمر عند هذا الحد، فلقد تعسفت الحكومة فى جمع الضرائب إلى حد توقيع عقوبة الجلد على العمد المتقاعسين عن جمعها، وتناقلت الحكايات أخبار جلد بعض العمد فى المنطقة، ممن أوقعهم حظهم العاثر فى طريق الحاجة الماسة إلى المال لتغطية النفقات الباهظة للخديوى المتلاف.

فى تلك الأثناء لم يكن يمر يوم دون أن يأتى إلى العزبة رجال يطلبون أن يعملوا ولو بلقمتهم، ولما كانت العزبة تغص بعمال أكثر من طاقتها لم يجدوا بدا من الانصراف للبحث فى مكان جديد، وجاء رجل صعيدى،

وجدوه فى نهار رمضان جالسا عند ركن مندرة الغيط فجاء به أحدهم ليتناول معهم طعام الإفطار، يحمل على كتفه صرة فيها ملابسه وأغراضه، ويتكئ على عصا من الشوم، وقدم نفسه على أنه من مديرية أسيوط، و لم يضف إلى ما قال حرفا واحدا.

أيام ثلاثة قضاها الرجل فى ضيافة موسى، يأتى الصباح فيذهب إلى مندرة الغيط، ويظل هناك حتى يأتى وقت الغروب فيعود إلى العزبة، وشيئا فشيئا عرف الجميع أنه يتقن أعمال تطهير القنوات والمصارف وتعيين الحدود وقياس الأرض بالقصبة الجديدة، بل وبناء الأفران البلدية والكوانين وصنع المقاطف والقفف والبرانيط من الخوص، وفتل الأحبال من التيل، وغيرها من الأمور التى كانت العزبة فى أمس الحاجة إليها. بعد أسبوع واحد من مجيئه عادت الحياة إلى مندرة الغيط، امتلأت بالخوص وكومات التيل، وبالفئوس والكواريك والمناجل وكل ما يلزم لأن يؤدى الرجل عمله.

لم تتح لموسى الفرصة ليتحدث للرجل إلا عندما ركب مهرة أبيه ذات أصيل وانطلق يتفقد أحوال أرضه، هناك عند حدود أرضهم مع مساعد وجدهما يجلسان سويا، الأعرابى وسيد احمد، لم يأبها لرؤيته، وطالت جلستهما حتى كاد الغروب يلحق بهما، وفى طريق العودة صحب الرجل الصعيدى موسى وتحدث معه لأول مرة، قال إنه من فرشوط، وإنه مطارد لثأر عليه، وإن قدماه قادتاه إلى هذا المكان، و لم يكن موسى ليقل عن الرجل شغفا بمواصلة الحديث، وهكذا، فبعد أن تناولا فطورهما وصليا

المغرب والعشاء انطلقا إلى الغيطان من جديد، وفى مندرة الغيط أعطى موسى للرجل أذنيه كاملتين.

ملامح صداقة رائعة كانت تبدو فى الأفق بين موسى المحاصر بأفعال أخيه وبين الصعيدى الحاذق الفار من قدره، صداقة كان موسى فى أمس الحاجة إليها، فمهما كانت علاقته القوية بأخويه السيد ومحمد الطوخى، إلا أنه لم يشأ أن يسر إليهما بما يوغر صدريهما ضد أخيهما فيزداد تفكك الأسرة، كانت كلمات الصعيدى ممزوجة بأسى غريب، أعطى للأحرف ألوانا قاتمة، وللزفرات أطيافا تستدر الدمع، ووجد موسى نفسه ولأول مرة يحكى للرجل حكايته مع أخيه سيد احمد، ومع الأعرابى الذى يتحين الفرصة للنيل منه.

تقارب من نوع خاص جدا جمع بين الرجلين، موسى والصعيدى الهارب من قدره، وقرب نهاية رمضان كان الرجل يقوم من أجل صديقه بأشياء لا تخطر على البال، يشرف على إطعام الضيوف الذين يأتى بهم موسى من على قارعة الطريق، فيتناولون فطورهم ويمضون إلى حال سبيلهم، ويشعل المواقد ويدس فيها أباريق القهوة، ويفصد الدم من أفواه المطايا فيما يعرف باسم «التحنيكة» ويستخرج منها الشوك الذى يمنعها من الإقبال على الطعام، يخصى الجديان ليسمنوها للذبح، يقلم حوافر الخيل والمطايا والبهائم ويزيل منها البثور وأوساخ الطريق، ويطهر أرحامها بالزيت والشيح ويفتح مغاليقها لتحمل فى جحوش وعجول جديدة، وكان آخر شىء فعله هو صنع معجنة من الطمى النقى تمهيدا لطلاء الدور والمندرة الكبيرة بعد عيد الفطر.

مع انتهاء رمضان انطلق الصعيدى يؤدى أعماله المؤجلة، صارت العزبة فى وجوده أفضل كثيرا مما كانت، حتى أن الأطفال والصبيان كانوا يتحلقون من حوله فى الليل فيحكى لهم حكايات رائعة، ويلعب معهم ألعابا غريبة، وبفضله صارت العزبة حقيقية إلى حد أن الأطفال أخذوا يعتادون الخروج من الدور والالتقاء فى الأجران لممارسة اللهو واللعب، قبل أن تنادى عليهم أمهاتهم ليهجعوا إلى مضاجعهم ويستسلموا للنوم انتظارا ليوم جديد.

لم يأت عيد الأضحى إلا وصار للصعيدى شأن كبير فى حياة العزبة، تعلم كيف يسرح إلى الغيطان ويقوم عن موسى بتفقد أراضيه ومزروعاته، وعندما حان وقت الفيضان طهر القناة الآخذة من البوهية وأعاد الحياة إلى الخندق، وفى ذات ليلة قطع جسر البوهية و لم يأت الصباح إلا وقد امتلأ الخندق عن آخره، وكان هو الذى اجتذب أحمد الضبع ليذهب إلى الغيط وشجعه على العمل، ولما فشل فى تعليمه كيفية الإمساك بالفأس والمنجل والكوريك والعمل بها علمه صنع المقاطف والقفف والبرانيط من الخوص، وصنع السلال وأطباق الخبز وبطانات القلل التى تحفظ على مائها برودته وتحميها من التلوث بالطين، وصنع مع إبراهيم ثنائيا جبارا كفيلا بحمل أية أثقال، بالغة ما بلغت، وكانا يتباريان فى قوة الاحتمال فيغلب الواحد منهم مرة وينهزم مرة.

وأهم ما حققه وجوده إلى جانبه هو تمكين موسى من التواجد فى العزبة لأطول وقت، فضلا عن إمكانية السفر إلى الأصدقاء ليوم أو ليومين، وقد تمتد الزيارة لعدة أيام دون أن يقلق، فالصعيدى يقوم عنه بكل شىء ويرعى

مصالحه، ومن وراء ظهر موسى اعتاد الجميع أن يعهدوا إليه بالكثير من مصالحهم، فكان يجد الوقت ليقوم عنهم بما يريدون، حتى أن الجدة مريم والتى اعترضت فى البداية على استخدامه لأنهم لا يعرفون عنه شيئا، وقد تكون وراءه مصيبة لاقبل لهم بها، حتى هى اعتادت أن تأنس إلى وجوده فى العزبة، وراحت تكلفه بمهام لحسابها وحساب الأسرة جميعها، الأمر الذى جعل من وجوده وقيامه عنهم بما يعهدون إليه من مهام ضرورة لا تنفك تتضح مع مرور الأيام.

الأرض المزروعة فى العزبة تربو على المائتين وخمسين فدانا، وهى مساحة شاسعة لا يمكن لأحد أن يديرها بمفرده، ولا بد من رجال أقوياء يعينونه على إدارتها، وكتبة يسجلون مصاريفها وتكاليفها، وعمال يرعون ثيرانها ومحاريثها وطنابيرها، ويقومون على تجهيز أجرانها ومخازنها، ويقودون تلك الجيوش الجرارة من عمال الزراعة وتنقية الحشائش والديدان وجمع الأقطان وقطع الأحطاب، هذا غير أنفار الرى والعمل فى إدارة الطنابير ومجارى السواقى وغيرهم وغيرهم، والصعيدى الذى هبط عليهم ذات يوم أمكنه متابعة كل ذلك، لكنه ذات يوم طلب أن يستعين بأحد ممن يحسنون الكتابة والحساب فجاءه موسى بفتى من السنبلاوين اسمه عبد العال، وهو ابن لرجل يدعى داوود كان يحلق لأبيه الشيخ أحمد السرسى، وكان الرجل يتردد على العزبة مرة فى كل شهر، يحلق للشيخ وللأبناء ويعالج الأشياء البسيطة، مثل القوب والدمامل وبثور الرؤوس، وكان فى كل مرة يأتى فيها يصطحب ولده هذا، لذا فإن عبد العال داوود لم يكن غريبا على المكان، حتى أن نساء الأسرة كن أيضا يعرفنه، فكم

كلفنه بإحضار أشياء من أجلهن من السنبلاوين، وبحضوره اكتملت دائرة الصديق الصعيدى وصار بحق ناظرا لزراعة أبناء الشيخ أحمد السرسى، أو لنقل إنه كان على الأقل ناظرا لزراعة موسى وسيد احمد، إذ رفض محمد الطوخى أن يشارك فى أجر الرجلين على سند من أن مساحة أرضه هو وأخيه لا تستأهل ناظرا لزراعتها، وهو نفس الأمر الذى رفضته زكية وفضلت أن تواصل العمل على زراعة أرض ابنها بنفسها أو بمعونة من إخوته، وليس عن طريق ناظر للزراعة يكلفها الكثير.

لم تشأ الجدة مريم أن تترك الأمر دون تدخل منها، وفوجئ الصعيدى النابه بها تقتحم عليه المندرة الكبيرة، وتطلب إليه وهو واقف بين يديها ينظر فى الأرض أن يضم أرض حفيدها أحمد الضبع إلى أراضى نظارته، وستكفل بأجره الذى يطلبه مقابل ذلك، و لم يملك الصعيدى إلا أن يوافق الجدة على طلبها، لكن الفتى عبد العال داوود تململ، ولما انصرفت قال للصعيدى إنه لا يمكنه أن يساعد فى هذا الأمر، ما لم يعرف الأجر الذى سيناله فى المقابل.

وجاء وقت جنى القطن فأرسل حسن الكفراوى إلى موسى ثلاث مائة رجل وامرأة من ديرب نجم، أقاموا فى العزبة طوال موسم الجنى، واحتاج ذلك لأن يدبر موسى مكانا لإقامة هؤلاء، فلقد قدموا بصررهم المليئة بالخبز الأصفر الغريب والمش والبصل الجاف، طعامهم الذى سيقتاتون عليه طوال أيام العمل التى تمتد إلى أسابيع، وبفضل من نظارة الصعيدى وحسابات عبد العال أمكن لأول مرة جنى القطن جميعه من الأرض، فلقد كانوا يجنون الجنية الأولى ثم لا يجدون مفرا من تقطيع الأحطاب

حتى يعدوا الأرض للزراعة الشتوية، الآن صاروا يجنون القطن مرة ومرتين، بل وثلاث مرات حتى تقف الأحطاب جرداء لا تحمل أثرا لندفة قطن واحدة، فى تلك المساحات الشاسعة التى تمتد من زمام برقين إلى قرب المقاطعة.

وجاءهم عبد العال داوود بخبر أدخل السرور إلى قلوبهم، فلقد وفد إلى السنبلاوين يهودى يونانى يدعى بنايوتى، اشترى مساحة كبيرة من الأرض عند أطراف المدينة من جهة شريط السكة الحديد ليقيم عليها محلجا للقطن ومضربا للأرز، الذى كانت زراعته قد بدأت فى الانتشار بالمناطق القريبة من الترع الرئيسة، وهذا يعنى أنهم بدلا من أن ينتظروا مجىء تجار القطن من المنصورة أو الزقازيق سيكون المشترى قريبا منهم، خاصة وأن تجارة القطن كانت قد تراجعت بتراجع الطلب عليه فى الأسواق الخارجية.

أخلوا مندرة الغيط وجعلوها مكانا لمبيت النساء، وكانوا قد جددوا سقفها وأعادوا تغطيتها بطبقة من الطين المخلوط بالتبن والقش، وطلوا جدرانها بطبقة رقيقة من الطمى، ولأن الفتاتين فاطمة وأم الرزق كبرتا بما فيه الكفاية كانت الجدة مريم هى من وقفت فى طريق جعل أجران العزبة مكانا لمبيت هؤلاء العمال، فالجدة الأريبة تعرف أن النساء العاملات فى الحقول فى سبيل أن تمضى بهن الحياة المريرة إلى غايتها يتحدن الحديث بغير تحفظ، ويشاركن الرجال أحاديث مكشوفة عن العلاقات بين الرجال والنساء، وهو ما سبق وأن عاينته بنفسها فى سرس القديمة، عندما كانت وهى صغيرة تحاول الاقتراب من عمال التراحيل القادمين إليهم من بعيد، كانت تحب قصصهم وحكاياتهم وألعابهم الغريبة، وجرأتهم، لكنها

اكتشفت مع الوقت أن الأمور لديهم ليست محدودة بحدود، إلا فيما يتعلق بأرزاقهم التى لا تقيم الأود، ونصيبهم المنعدم من مباهج الحياة.

ربما تكون الجدة مريم هى التى فكرت فى الأمر، إذ افترضت أن الحياة يمكنها أن تمضى إلى الأحسن إن هى استبقت الفتى الصعيدى إلى جوار أبنائها، وربما تكون هى التى لفتت نظر سرية إلى أن الفتى سيكون زوجا مناسبا لابنتها فاطمة، فمن جهة سيظل ملتصقا بالأسرة ويقوم من أجلها بما يقوم به، ولن تتجزأ أرض العزبة قبل الأوان، ومن جهة لن تخرج الفتاة من نطاق العزبة، وستظل مقيمة فيها وتتقدم فى الحياة أمام أعين أخوتها، وستنجب أطفالا ينتمون إلى الأسرة التى لن يعرفوا لهم أسرة سواها.

استدعى الأمر أن تجرى نقاشا مع سيد احمد، حتى إذا استوثقت من موافقته فاتحت موسى وباقى الإخوة، ورأت سرية أن تترك لها الجدة أمر مفاتحة ابنها، خشيت أن يبادر إلى رفض الفكرة ويقف عند حدود الرفض لا يبرحها، ومن ثم يُجْهَض الموضوع قبل أن يبدأ، ورأت الجدة فى طلبها وجاهة فأجابتها إليه، ومر يوم ويومان وثلاثة و لم تعد إليها بجواب، وبدت كأنها أهملت الموضوع من الأصل، وفى اليوم الرابع التقطتها الجدة مريم وهى تعبر الصالة تحاول التسلل إلى الخارج. نادتها فوقفت مستسلمة، وأرخت ذراعيها وغمغمت:

– تلقى وعدك يا سرية.

قالت:

– أراهن أنك لم تفاتحى ابنك فى الأمر.

أجابتها:

- بل فاتحته يا عمتى.

سألت:

- ورفض؟.

- طلب وقتا ليفكر.

هزت الجدة رأسها وقالت مؤكدة:

- يريد أن يستوثق إن كان موسى هو الذى يطلب ذلك.

لكن سيد احمد لم ينظر إلى الأمر من تلك الزاوية، فالذى لا تعرفانه أن سيد احمد كان من داخله رافضا لأسباب ترجع إلى غموض موقف الفتى، وحرج وضعه كرجل مطارد، وبرغم التحفظات التى يحملها فى داخله تجاه أخيه الأكبر لجأ إليه طلبا للنصيحة، و لم تكن معارضة موسى بأقل من معارضته، فلقد تصارح الأخوان، صحيح أن العزبة تغيرت كثيرا بوجود الفتى، والأعمال التى كانت تدار بالمجالدة والتصميم صارت تدار بتخطيط ودراية وتنظيم، لكن تسيير أمور العزبة شىء ومصاهرتهم شىء آخر، فغموض موقف الفتى والثأر الذى يلاحقه يجعله وفاطمة إن هم وافقوا على زواجها منه فى خطر لا ينتهى طوال حياتهما، بل ويمتد إلى أبنائهما.

الجدة مريم لم تستسلم، قررت أن تفاتح سيد احمد بنفسها، ففاطمة بلغت من العمر خمس عشرة سنة، وهذا فى عرف الأسرة سن خطرة، إذ لم يتحدث بشأنها أحد، لا مع الشيخ قبل رحيله ولا مع أى من أخويها

موسى وسيد احمد، وهما لا يشعران بوطأة بلوغ أختهما هذه السن، ولا بملاحقة أم الرزق لها، والتي لا تصغرها إلا بسنة واحدة، من يشعر بهذه الوطأة هي الجدة التي نظرت في تاريخ الأسرة فلم تجد فتاة وصلت إلى هذه السن دون زواج، وأم الرزق تلاحقها حذو النعل بالنعل، وتطاردها بلا فكاك.

رأت أن تتريث قليلا، فمن يدريها أن يكون الفتى الصعيدي على استعداد للزواج والإقامة في العزبة إلى الأبد، أليس من المحتمل أن يكون متزوجا وله أبناء في بلاده البعيدة، خاصة وأن الصعايدة يعتادون على الغربة بعيدا عن زوجاتهم وأولادهم، والفتى في عمر أكبر أحفادها أو يكبره بسنوات، وهذه السن تفرض كل الاحتمالات، ولكن كيف تتأكد من أنه ليس متزوجا من امرأة في بلده البعيد؟، وأنه على استعداد للزواج والقبول بمبدأ الإقامة في العزبة إلى الأبد؟.

اختارت محمدا الطوخي لاستدراجه لمعرفة ما إذا كان متزوجا، وفي إحدى روحاته إلى الغيط اقترب منه إلى درجة سمحت بأن يختصه بأسرار تتعلق بأسرته، تلك أول مرة يقترب فيها أحدهم منه إلى حد النجوى، وبدون أن يفطن سأله محمد إن كانت له زوجة أو أبناء في بلاده البعيدة، وبعد تردد انطلق الفتى يحكي عن ابنة عمه التي قرأوا فتحتها وهي طفلة، لكنه فر من بلده بعد قتل رجلين من خصوم أسرته أخذا بثار أبيه، وقبل أن يخرج لقتلهما أطلق عمه من قيد الفاتحة، وطلب أن يزوج ابنته لمن يرتضيه زوجا لها، وأنهى إلى محمد أن من هو مثله لا يمكن أن يتزوج ويقيم حياة مستقرة، فهذا لا يعني إلا أنه يمكن خصومه منه، إذ سيفرض عليه الزواج

الاستقرار فى مكان واحد، وسيعطى إنجابه الأطفال لمطارديه بدائل لتنفيذ مآربهم.

فى المساء كان كل ذلك مطروحا على بساط البحث بين الجدة مريم وسرية، وأشركتا فى الأمر حورية، واضطرب قلب سرية من حديث الفتى عن أن أبناءه القادمين سيكونون فرصة لخصومه للعثور على بدائل معتبرة لتنفيذ القتل، فهى وإن أعجبت بالفتى وهمته إلا أن فكرة أن يستيقظوا ذات يوم فلا يجدوه بينهم جعلتها تجفل، وتمنى من داخلها لو تقف عمتها عند هذا الحد ولا تتقدم خطوة أخرى.

اقترحت حورية أن تتحدث عمتها إلى موسى، فالفتى بكل المقاييس عريس مناسب، ونصيب فاطمة فى الأرض وفى العزبة سيجعل من الزوجين أسرة مستورة، هذا بالإضافة إلى ما يقوم به الفتى من أعمال أعجزت من قبله العصبة من الرجال، ووحده موسى هو من سيحسن تقدير ما تفكرن فيه.

لم تشعر فاطمة بأى شىء مما يدور فى حجرة جدتها، و لم تلفت نظرها الاجتماعات التى لا تنفك تنعقد فى الحجرة التى يغلق بابها فى كل اجتماع، ولا التصرفات المريبة التى تجعل أمها وجدتها وعمتها حورية يصمتن كلما اقتربت منهن، وتواصلن الحديث إذا ما ابتعدت، و لم تفطن إلى دلالة أن تدفعها أمها دفعا إلى المغالاة فى غسل وجهها، وأن تجيئ لها بأنواع من الصابون تثير حرائق فى وجهها وتجعله يبدو مثل حبة الطماطم الحمراء، وأن تأمرها بارتداء الملابس الجديدة التى يحضر قماشها من المنصورة كاتب الحسابات عبد العال داوود وتحيكها من أجلها خياطة

ماهرة في السـنبلاوين تدعى معزوزة، و لم يثر خيالها قيام أمها بتمشيط شعرها بنفسها بعد دهانه بشيء من الزيت الغريب الذى يحمل روائح عطرية، لكن أم الرزق سمعت تثار أحاديث بين أمها وعمتها حورية، وفهمت منها أن عربيـا يريد أن يتزوج أختها فاسرعت لتخبرها.

لم تضطرب لسماعها ما أبلغته به أختها الصغرى، فلقد شبت غير مبالية بما يثير خيال الفتيات في مثل سنها، فقط كانت تحسن العمل في أى شيء تعلمته من جدتها وأمها، وكانت وحتى وفاة أبيها تحســن خدمته عندما يكون في دار أمها، أو عندما يكون في دار عمتها حورية ويتطلب الأمر أن تكون هناك في خدمة جدتها، و لم يكن يثير غيرتها خفة أختها أم الرزق ولا تفكيرها الدائم في نفسها وأنوثتها، وعندما تجرأت أم الرزق وسألتها عن الرجل الذى تتمنى أن يتزوجها استنكرت أن تتحدث في مثل تلك الأمور، ثم لم تلبث أن قالت:

– من ساكون من نصيبه سيرضيني.

وعابتها أختها:

– وإذا كان دميما؟!.

فأجابتها:

– الرجل لا يعيبه شكله.

كانت ضحية الأحاديث التى طالما سمعتها منذ كانت طفلة، شأنها شأن كل البنات اللاتى تربين على القوالب الكلامية التى تمجد الرجل في كل أحواله، وتجعل من المرأة بجرد جارية عند قدميه، وبرغم أن تلك القوالب

القولية لم تكن لتلغى شخصية أية فتاة أو امرأة إلا أنها بحسها الساذج وبساطة روحها لم تعادل بشخصيتها تلك القوالب، وصدقتها، وآمنت بأن نصيبها فى الحياة مقدر، وأنها لن تستطيع مهما فعلت أن تغيره.

لم تصدقها أم الرزق عندما أخبرتها أنها لا تعرف شكل الفتى الصعيدى الذى يتحدثون عنه، وسألتها إن كان يشبه الشاب مطاوع الذى جاءهم منذ أشهر ليشترى القمح الناتج عن زراعتهم، والذى مكث لديهم عدة أيام وكانت تقدم له الطعام فى المندرة الكبيرة، وتجاذب معها فى حضور إخوتها أحاديث بسيطة مكنتها من النظر فى وجهه، لكن أم الرزق قالت إن الصعيدى الذى يتحدثون عنه لا يشبهه، فهو طويل ونحيل، ويميل إلى السمرة، وبإمكانه أن يطلق البارودة بيد واحدة، فى حين أن مطاوع الذى تعنيه أقصر قليلا وأبيض البشرة، وفيه كما قالت أثر من ظل ثقيل، لكن فاطمة نهرتها، فالشكل كما قالت لا يعيب الرجل، وكذلك الفقر وتواضع النسب، وعندما سألتها عما يمكن أن يعيب الرجل فى نظرها هزت كتفيها ومطت شفتيها ثم قالت:

– الرجل لا يعيبه أى شىء.

لكنها فهمت لماذا تحرص أمها على أن تجعلها تبدو فى كامل زينتها، وتعجبت كيف تشعر أمها بالجزع لشىء لا دخل للبشر فيه.

اقترب موعد عودة أنفار الجنى إلى ديرب، وجاءهم حسن الكفراوى صديق موسى، جاءهم هو وزوجته وأطفاله، ومكثوا عندهم أياما لعب فيها الأطفال معا، وركبوا الحمير وقطعوا المسافات فوق السكك المتخللة للأرض الشاسعة، والتى اخضرت كلها عدا تلك التى كانت من نصيب

أبناء شام وزكية، وإذ كان موسى عالما برغبة جدته في تزويج فاطمة من الصعيدى وجد أن يستشير صديقه، وكان الصديق مبهورا بالتنظيم الذى رآه في كل مكان، في الغيطان والمخازن والحظائر والأجران، فأثنى على رؤية الجدة للأمر، وتمنى لو يجد شخصا مثله فيستبقيه لديه، ولو بتزويجه أخته أو ابنته.

لكن شيئا ما كان يواصل الرفض في داخل سيد احمد، فالمعضلة الرئيسة لم تحل، وهي كيف يطمئن على أخته؟، وكيف يتوايم مع الأخطار التي ستواجهها في الحياة كونها زوجة لرجل مطارد وبلا غد؟!، لم يكن مثل هذا الشيء هينا بحيث يمكن التجاوز عنه، و لم يناقش أحد من الرجال ما إذا كان الفتى يشعر بالفعل بحاجة إلى الاستقرار والزواج أم لا.

ظلت الأسرة تدور حول نفسها، والكفراوى عاد إلى ديرب بزوجته وأبنائه على وعد بأن يرد موسى الزيارة، كما دعا سيد احمد لزيارته هو الآخر، ولأول مرة في وجود هذا الصديق شعرت الجدة مريم بأن العلاقة بين الأخوين المتنافرين تعود إلى طبيعتها، إذ كانا يذهبان إلى الغيطان معا ويتفقدان كل شيء معا، بل ويقضيان اليوم بطوله في معية الصديق، حتى أنها صلت لله شكرا ونذرت إن اكتمل الأمر ووصل الأخوان إلى توافق يتجاوز خلافهما في الرأى لتحملن الأسرة بكبارها وصغارها رجالها ونسائها وتذهب لزيارة مقام السيد أحمد البدوى، ولتبيتن هناك هي وأسرتها وتطعم الفقراء والدراويش أياما ثلاثة، لكن الكفراوى عاد إلى بلده وسرعان ما عادت الحال إلى ما كانت عليه، وتنافر الأخوان كأن ما ربطهما في الأيام القليلة الماضية ذهب إلى غير رجعة.

خشيت أن يتسبب الخلاف فى تعويق العمل فى إدارة العزبة، ومن ثم فرار الفتى الصعيدى، ولكى تستبق الأحداث ناقشت سيد احمد فى أمر زواج الفتى من فاطمة، فسمعت منه التحفظات التى سبق وأبداها، وبعد قليل من الصمت سألته:

– أيعنى هذا أنك ترفض؟.

لكنه صمت و لم يحر جوابا، فالحقيقة التى لا يستطيع هو نفسه أن ينكرها أن حاجته إلى وجود الفتى تفوق حاجة أى أحد آخر، حتى موسى، والجدة مريم التى عركتها الأيام وأعطتها خبرات هائلة تعرف أن حفيدها يحتاج إلى من يتخذ القرار عنه، ففى كل مرة يتراوح فيها بين الإقدام والإحجام، بين القبول والرفض، كانت دائما هناك، تتخذ عنه القرار الذى ترى أنه فى صالحه، وهى فى ذلك الأصيل كانت تعرف أنها مطالبة بأن تنوب عنه فى اتخاذ القرار، و لم تجد بدا من أن تقول:

– إذن دع الأمر لى.

تقول الحكايات إن محمدا الطوخى كان هو من أبلغ الفتى الصعيدى بالهمهمة التى دارت فى الدار القديمة حول الرغبة فى البحث له عن زوجة، ولما كان الفتى لبيبا فقد أدرك أن الأسرة التى يعمل فى خدمتها والتى أطلعته على الكثير من أسرارها ترغب فى تزويجه إحدى بناتها، لم يتجاسر على السؤال عمن وقع عليها الاختيار، فالذى لا شك فيه أنه باستثناء أم الرزق لا يعرف أحدا من أهل العزبة من النساء أو الفتيات، فلقد رأى أم الرزق عدة مرات فى مناسبات سريعة مكنته من تكوين فكرة عنها، وفوجئ ذات صباح باستدعائه لمقابلة الجدة مريم.

الأعمال فى الغيطان كانت قد انتهت تقريبا، فبعد أن فرغوا من تقطيع الأحطاب وقلبوا الأرض وحرثوها بذروا القمح، ثم زَحّفوا الأرض قبل أن يغمروها بالماء، وها هى النباتات تخرج من تحت الأرض معلنة عن موسم ناجح لزراعة القمح، وأمدهم الخندق بالماء الكافى لرى المحصول طوال الشتاء، وكان سيد احمد وبعد أن اشترى أقطان إخوته بمن فيهم موسى قد نجح فى انتهاز فرصة بيع الخديوى لأقطانه وباع قطنه هو الآخر، وانتهز موسى الفرصة وسافر مع زوجته وأبنائه إلى ديرب لزيارة صديقه، كما أخبر جدته أنه سيعرج على شبراهور لزيارة أصدقائه هناك أيضا، وانتهزت الجدة مريم فرصة انشغال حفيديها بأشغالهما وأرسلت محمد الطوخى لا ستدعاء الصعيدى.

اللقاء كان فى المندرة الكبيرة، اختار سيد احمد أن يذهب إلى السنبلاوين فى ذلك الصباح، أما السيد وسليمان وإبراهيم فإنهم كانوا فى دورهم لا يعلمون من أمر المقابلة الشيء الكثير، وجدته قادما بقامته المديده وجسده النحيل، وكان مطرقا إلى الأرض لا يقيم عينيه فيها، طلبت إليه أن يجلس فأبى، ولما ألحت جلس عند طرف أريكة بجوار الباب، وجدها تسأل إن كان يمكن أن يقص عليها قصته، فراح يقص ما سبق وحكاه لموسى، ولمحمد الطوخى، طوف بحكاية الثأر، وعاد إلى ظروف قتل أبيه وخطبة ابنة عمه، ثم ألمح إلى أخذه لثأر أبيه ورحيله عن بلاده، كما حكى عن البلاد التى تنقل فيها والأعمال التى عمل بها، وأخيرا ومن باب الأدب انتهى إلى أنه طوال رحلة فراره لم يشعر بالأمان إلا من اللحظة التى وطأت

فيها قدماه أرض العزبة، و لم يشعر بالطمأنينة إلا عندما تعرف إلى موسى وعاهده بأن يكون له الأخ والصديق.

دون أن تشير لما كان بينه وبين حفيدها محمد الطوخى من حديث سألته:

– كم عمرك الآن؟!.

أجاب وهو مطرق إلى الأرض:

– أقترب من الثلاثين.

واندهشت:

– و لم تتزوج؟!.

فاضطر إلى رفع رأسه قليلا، لكن بصره كان متجها إلى بعيد، فالنظر زائغ والأيدى التى عملت كل تلك الأعمال فى العزبة والغيطان أصابتها رعشة غامضة:

– مثلى لا يجب أن يتزوج يا ست الحاجة.

– و لم لا؟!.

وابتسم فى غموض:

– أنا يا سيدتى رجل ميت.

جادلته:

– لك معنا أكثر من سنة، وكنت من قبلها تجوب البلاد طوال تسعة أعوام، ولا زلت تحيا.

فأجاب:

– لإن أحيا بمفردى خير من أن أموت أنا وأبنائى.

ووجدت نفسها مضطرة لأن تصارحه:

– نرغب فى تزويجك إحدى بناتنا.

وحتى تضفى جوا من المرح على الجلسة المتوترة سألته:

– ألا تريد أن تكون صهرا لموسى؟!.

لكن الحديث ظل يراوح مكانه، ولا يكاد يخرج من النفق الذى حرص الفتى على أن يبقيه فيه، وانتهى إلى طلب أن تسمح له بأن يخلو إلى نفسه ويرى إن كان يستحق هذا الشرف.

وفى مساء اليوم التالى أرسل فى طلب لقاء الجدة وسيد احمد، ولما كانا على ثقة من أنه سيطلب أن ينتسب إلى الأسرة استقبلاه فى صالة الدار القديمة، موسى كان لما يزل غائبا فى زيارة أصدقائه، والصالة القديمة لم يكن فيها سوى الجدة مريم وسيد احمد، فيما حجرة الجدة فيها سرية وحورية ترهفان السمع إلى ما سيكون، وعلى غير توقع من الجميع رفض الفتى أن يجلس، تحاشى النظر فى وجه الجدة مريم ونظر إلى سيد احمد وقال:

– أنا لا أستحق أن أنتسب إليكم، فلقد جئت إلى هنا لأقتل أخاك، وبعد أن خالطتكم وعرفتكم أتمنى لو كنت ميتا قبل اليوم الذى قبلت فيه هذه المهمة.

كل الألسنة كانت منعقدة من الدهشة، الجدة التى سرحت الغضون فى ملامحها انسحب الدم من وجهها، لم تكن الكلمات واصلة إلى إدراك سيد

احمد كما هى، بل كانت تتضخم وتمتد أحرفها وتتجوف بصورة عبثية، وكانها تسأل: ما الذى يقوله هذا الفتى؟، ووجدت مريم أخيرا أنها قادرة لأن تسأل:

- تقول تقتل من؟!.

فأجابها وهو مطرق إلى الأرض:

- موسى يا سيدتى.

وكأنما عثر سيد احمد على لسانه فأمكنه أن يسأل:

- من استأجرك؟!.

فرفع الرجل رأسه، ونظر فى عينى سيد احمد وأجاب:

- انتم تعرفون من هو.

وفى لمح البصر اختفى من أمامهما.

لم تمض دقائق حتى كان وسط ذهول الجميع يغادر العزبة، و لم يستطع محمد الطوخى أن يمنع نفسه من مرافقته لخطوات، وإذ استقل الفتى أن ينظر فى وجهه طلب منه أن يبلغ موسى بأسفه، وبأن ما منعه من تنفيذ طلب مساعد السمدانى هو تمكنهم من قلبه، لما اقترب منهم ورأى من امورهم ما رأى.

ليلٌ آخر بهيم

أحدث اعتراف الصعيدى زلزالا فى أركان العزبة، لكن رحيله وموسى لما يزل غائبا جعل الجدة مريم تشعر بالخوف، ولما لم يمكنهم إجبار الفتى على البقاء حتى قدوم موسى طلبت من أحفادها أن يذهبوا ليعودوا بأخيهم وأسرته من لدن أصدقائه، إما فى دبرب نجم أو فى شبراهور، لم تستطع أن تحفظ السر، فحورية وسرية كانتا هناك فى حجرة الجدات، وأم الرزق الصغيرة كانت هناك أيضا تسمع ما يقال فى الصالة، وقبل أن يؤذن للعشاء كانت العزبة كلها تعرف بأمر الاعتراف المذهل، ولم يطق السيد صبرا فانطلق إلى ديرب نجم ليكون فى معية أخيه وأسرته فى طريق العودة، ورافقه إبراهيم، خشيت جدته أن يتعرض السيد لمكروه وهو ذاهب للبحث عن أخيه فأمرت بأن يرافقه، فيما شكل سيد احمد وبأمر من جدته أيضا فريق حراسة على العزبة، منه ومن سليمان ومحمد الطوخى وأحمد الضبع، ومعهم العمال الذين كانوا أكثر ذهولا من أى أحد آخر.

وموسى الذى صعقه الخبر وأخرسه ليومين كاملين تمنى لو كان قابل الصعيدى وجها لوجه، ليعرف منه حقيقته، من أين هو؟!، وما اسمه

الحقيق؟، ولماذا ظل عاما كاملا في معيتهم و لم ينفذ مهمته؟!، لكن محمدا الطوخي الذي أصر على مرافقة الفتى حتى مشارف برقين عرف منه أشياء كثيرة، فقد أخبره أن السمداني طلب منه ألا يسارع بقتل موسى حتى لا تفشل مهمته، وإنما يخالطه حتى يأمن له ولا يقدر على الاستغناء عنه، ومن ثم يقتله، وساعتها لن يستطيع أحد أن يتهمه فيه، لكنه وهو يخالط موسى أيقن أن رجلا مثله لا يكون جزاؤه القتل، وأن أسرة لها ما لأسرته من خصال لا تستأهل أن يقتل قائدها عدوانا وغيلة، وعلى طريقته الخاصة أصر محمد الطوخي على أن الرجل طوال الطريق كان يبكي بدموع حقيقية، وكان يطلب من موسى أن يسامحه.

عبثا بحثوا عنه ليعيدوه، وليسمع منه موسى بأذنيه، لكنهم لم يعثروا له على أثر، كأنه لم يعش بينهم عاما بأكمله، يأكل مما يأكلون ويشرب مما يشربون، ولقد جاب عبد العال داوود قرى المركز بحثا عنه فلم يجده. وفي النهاية أوقفوا البحث، ورأت الجدة مريم أن تجتمع الأسرة لبحث كيفية الرد على ما فعله السمداني، وعندما طلب موسى ترك الأمر له ليتعامل معه بمفرده اغرورقت عيناها، قالت:

– أنا الرابط الأخير الذي يربط بينكم.

وبدون أن تتوقف أردفت:

– لا تتطلب مني أبدا أن أكون خارج الأمر.

في الموعد المحدد لاجتماع العائلة فاجأ سيد احمد جدته بعرض تقدم به مساعد السمداني، لم يشعر أحد بالإهانة بقدر ما شعر موسى،

والجدة مريم، فأن يعرض مساعد القسم على كتاب الله أنه بعيد عما زعمه الصعيدى، أو أن يعرض إحضار البشعة ليلحسها وينجو إن كان صادقا، أو يحترق إن كان يكذب، وأن يطلب هذا عن طريق سيد احمد بالذات أعاد الموضوع إلى المربع الأسبق، يوم أن أصر سيد احمد على أن يعطوه الفرصة ليبرئ ساحته على حساب الحقيقة، وبغير حاجة إلى أى إجراء شعر موسى بأن أخاه ربما لا يصدق من داخله ما قاله لهم الفتى الصعيدى، والذى لم يستطع أن يواجهه هو فآثر الابتعاد قبل أن يعود من رحلة زيارته لأصدقائه.

العرض الذى أتى به سيد احمد فتح الباب على المصراعين للتساؤلات التى لا تنتهى، إذ من أخبر مساعدا بخبر الفتى الصعيدى وما اعترف لهم به؟!، وحتى إذا كان إبراهيم – على ما علموا بعد ذلك – هو الذى أخبر أحد رجال السمدانى بطلب من سيد احمد فإن الدافع من وراء ذلك لا بد وأن يتضح للجميع، كبارا وصغارا، رجالا ونساء، إذ ما الذى كان يقصده سيد احمد من إبلاغ الرجل بالأمر؟!، وكيف يقدم على شيء مثل هذا دون أن يستشير أخاه الأكبر والمتضرر الحقيقى؟!، أو أى أحدا آخر؟!، فالذى كان معلوما للكافة فى تلك الأثناء البعيدة أن وجود الفتى الصعيدى قرّب سيد احمد من ابراهيم إلى درجة أن الأخير لم يكن يبتعد عنه إلا إذا كان فى مهمة بتكليف منه أيضا، وصارت خصوصيات دار إبراهيم تغمض حتى على أمه فى الوقت الذى كانت فيه متاحة أمام سيد احمد، يعلم بها وبدقائقها، ويعالجها على نحو ما يرى.

ما أثيره من أمور من الآن فصاعدا يمضى فى طريق شائك، لكننى أمضى

فيه وأنا راض عما أفعل، فتاريخ أسرتى لأسباب تاريخية، وأخرى متعلقة بالمصادفات السياسية والاجتماعية يعد بصورة أو بأخرى نصا فى تاريخ الوطن، ذلك أن مراحل نمو الأسرة وتطورها منذ فجر العصر الحديث وحتى اليوم واكبت وتفاعلت مع الأحداث العظام والجسام التى جرت فى مصر منذ جاءت الحملة الفرنسية وحتى قامت ثورة يوليو فى العام 1952، بل وما بعدها، وإنى لإن أسهبت فى رصد ووصف تطورات نمو الأسرة فى موطنها الجديد فإنما لأضفر تاريخها فى تاريخ الوطن ككل، منتشيا(*) بفعل الكتابة، وملتفتا عن الأعراض التى يمكن أن تبدو على أى كاتب يجعل من أحداث حقيقية وأشخاص حقيقيين مادة لكتابة روايته.

الأثر المباشر للعرض الذى جاء به سيد احمد كان فشل الاجتماع الذى دعت إليه الجدة مريم، ربما لم يعرف أحد ممن اجتمعوا من حولها فى الدار القديمة سر تينك الدمعتين اللتين انحدرتا فوق الخدين الضامرين، ووجدتا طريقهما للتفرق بين الأخاديد التى صنعتها الغضون المتزايدة، وتسربتا إلى ركنى الفم الذى أدرك فيهما طعم الملوحة والمرارة، راحت تنظر إلى أحفادها الذين فجعهم عرض الأعرابى، وإصرار سيد احمد على السماح له بتبرئة ساحته والضحك علي ذقونهم مرة أخرى، وأخذت تقارن بين الاجتماع العاجز الذى يحتجون فيه على فعلة أخيهم ويزأرون فى وجهه ولكن بلا أنياب حقيقية أو مخالب، وبلا إمكانيات لوضع الأمر فى نصابه، وبين ذلك الاجتماع الذى جرى قبل نيف وثلاثين عاما فى بهو الدار

(*) نقلا عن صديقى الكاتب الجميل جار النبى الحلو فإنه ذات مرة كان يجالس الراحل يحيى الطاهر عبد الله وكانا فى مطلع حياتهما الأدبية، وتبادلا الشكاية من ندرة فرص النشر فقال له يحيى الطاهر عبد الله "يكفينا أننا انتشينا بفعل الكتابة".

الكبيرة في سرس القديمة، والذى لم يقولوا فيه كلمة واحدة، فقط تباحثوا بمجرد النظر، وقرأوا في عيون بعضهم البعض ما يريدون أن يقولوه، بلا زيادة أو نقصان، نعم، تلكما الدمعتان كانتا تبحثان عن مخرج لحالة العجز التي أصابت الأسرة، ولما لم تعثرا على ذلك المخرج عبرتا بجلاء عن العجز في الوصول إلى حل.

خرج موسى من تلك التجربة مجروحا بشدة، وبدون أن يستشير أحدا راح يخطط لنفسه، ويحرص على أن يكون ما يفعله سرا على الجميع، عدا شقيقه السيد الذى كان يتكتم تحركاته وبموهها، فلقد فقد الشقيقان الثقة في قدرة اجتماع الأسرة على إنجاز شيء، واحتاج التدبير إلى السفر في اتجاه ديرب من جديد، مرة ومرتين قبل أن تهدأ الحركة ويعود السلام إلى نفسيهما، وعبثا حاولت حورية أن تتدارك الأمر وتعيد ابنيها إلى حظيرة الأسرة المجتمعة إلا أنها فشلت، فالذى فعله سيد احمد أفقد ولديها الثقة في اجتماع الأسرة وتماسكها، وكما استحل سيد احمد لنفسه التعامل مع الأعرابي من وراء ظهور أخوته فإن موسى والسيد يستحلان لنفسيهما أيضا التعامل في شئونهما خارج الدائرة الجهنمية التي ليس من ورائها إلا الخسران.

ولما انقسم الأبناء إلى معسكرين توقفت كل المشروعات المشتركة، وفقد الخندق الكبير أهميته، بل إن الأرض التي نجحوا في استصلاحها في الأعوام القليلة التي سبقت عادت بفعل نقص مياه إلى حالة البوار، وعاد موسى يسافر في اتجاه ديرب نجم وشبراهور والبهو فريك، حيث أصدقائه الذين يجد في صحبتهم شيئا من الأمان الذى يفتقده في عزبته وعزبة أبيه،

وكانت الجدة مريم وهى ترى تكتم موسى والسيد أسرار تحركاتهما تأمل فى أن يكون الوضع مؤقتا، وتراهن على أن يعودا إلى الهدوء ويريا بعيون مفتوحة الحقائق كما هى، فإذا كان سيد احمد قد تصرف على نحو جرح أخاه فإن الجميع لم يوافقوه، بل إن سريه نفسها عنفت ابنها على ما فعل وقالت إنها خجلى مما فعل.

وانتهت أشهر الشتاء فمال القمح نحو الاصفرار، وشرع موسى فى إقامة مصلى أمام داره، فى الحقيقة كان موزعا بين الدار القديمة وداره هو، وكان كلما ذهب إلى الدار القديمة يواجه بسيل من الأسئلة عن حقيقة ما يقوم به هو وشقيقه السيد، توجهها إليه جدته وأمه، فقل على نحو ملحوظ من توجهه إلى هناك، وصار يقضى معظم أوقاته إما فى داره أو فى دار شقيقه السيد.

مهدوا الأرض للمصلى وفرشوها بالقش، وصار موسى يخرج فى كل يوم للصلاة فيها، فى الفجر يأمر فيؤذن السيد للصلاة، وكذلك فى الظهر والعصر والمغرب والعشاء، وقالت الجدة مريم:

– أخيرا صار فى العزبة مسجد.

وجاءوا برجل من الحجايزة يحفظ بعضا من القرآن ليخطب فيهم ويصلى بهم الجمعة، ولما جاء الرجل ورُفع الأذان خرجوا من الدور بقضهم وقضيضهم حتى يكتمل للصلاة الجامعة نصابها، وتخلف سيد احمد عن أول صلاة، وكان تخلفه ملحوظا من الجميع، حتى من شقيقه سليمان الذى أطرق إلى الأرض عندما سأله إخوته عن سر تخلفه.

بعد الصلاة تحدث موسي إلى إخوته، يحاول منذ فترة أن يجد طريقا

للتجاوز عما فعله أخوه، وفي كل مرة يظن أنه اهتدى إلى طريق يجده في الحقيقة مجرد سراب، فإذا كانت التجربة قد علمته شيئا فقد علمته أن عدوه مساعدا السمداني وقد منى بالفشل في النيل منه عن طريق الغرباء سيحقق مأربه عن طريق أخيه، لذا فهو يريد أن يحتكم إليهم، فإما يكون سيد احمد على صواب ومن ثم ينضوون تحت لوائه، وإما يكون على خطأ فيعتذر أمامهم ويبتعد بالكلية عن أى اتصال بعدوه، ريثما يجدوا طريقة للتعامل مع الأمر.

الطير فوق الرؤوس، تلك كانت الحالة التى وصفتها الحكايات، فالأخوة الذين كانوا فى مصلاهم فى ذلك اليوم جلسوا بعد الصلاة مهمومين، وبرغم ان اخاهم الأكبر يطلب تدخلهم لرأب الصدع إلا أنهم كانوا واقعين فى بحيرة آسنة من الصمت، يعرفون أن سيد احمد أخطأ فى حقه وحقهم، وفى حق ذكرى أبيهم، ويعرفون أن ما يطلبه موسى هو أن يساندوه، ولا يعرضونه للطعن فى الظهر فيما هو يواجه عدوه بصدره، ويعرفون أيضا أن دونهم وموافقة سيد احمد على طلب أخيه عقبات قد تنتهى بهم إلى اليأس، وأن تدخلهم السافر إلى جوار أخيهم الأكبر لن يحل المعضلة التى تواجهها الأسرة، بل قد يزيدها تعقيدا، لذا فإنهم فى تلك الظهيرة البعيدة كانوا يجلسون فى مصلاهم ويستمعون إلى أخيهم الأكبر والطير يحلق فوق الرؤوس.

وحدث تطور أضاف إلى معضلة الخلاف أبعادا جديدة، فلقد أعلن عبد العال داوود كاتب العزبة أنه سيقصر عمله على أرض سيد احمد، ولما ناقشه موسى ألقى بمفاجأة، إذ هو لم يفعل ما فعل إلا بناء على طلب سيد

احمد نفسه. موسى كان موزعا بين سبيلين لا يدرى أيها يسلك، فهو إن ترك ابن الحلاق القديم ينفذ أوامر سيد احمد سينتهى بهم الأمر إلى حالة من الخصومة يشارك فيها أناس من خارج العائلة، خاصة وأن المناسبة التى أفصح فيها عبد العال عن توجيه سيد احمد له كانت استثنائية تماما، ففى خضم الأحداث المؤسفة بين الأخوين رفض الكاتب تنفيذ طلب لموسى بتعلة اقتصار عمله على مصالح سيد احمد، وهذا يعنى أنه لا بد وأن يطرده من العزبة فلا يعود إليها، لكن ذلك الأمر قد يؤجج بين الأخوين صراعا من نوع جديد، ويقود إلى حرب لن تنتهى إلا بتدمير العزبة على كل الرؤوس.

وجد موسى طريقا للتعامل مع الكاتب المتمرد، اكتفى بالتنبيه عليه بالامتناع عن الحضور إلى العزبة أياما حتى ينتهى الخلف بينه وبين أخيه، ومن ثم يرسل فى طلبه، وطلب ألا يخبر سيد احمد بذلك حتى لا يفاقم الخلاف، وكان فيما طلبه من الكاتب يستخدم كل أرصدته من المكر الحسن، فإذا انصاع الرجل لرغبته وابتعد قليلا دلل على حسن نيته ورغبته فى الإسهام فى حل الخلاف، أما إذا نقل الحديث إلى سيد احمد فإن طرده من العزبة وإلى الأبد سيكون هو الحل الأمثل.

لم يرحل عبد العال إلا بعد أن أبلغ سيد احمد بكل ما قاله موسى، ونبه عليه سيد احمد أن يظل فى عمله ولا يكترث لشىء، وفى نهاية اليوم وجده موسى يجرى جردا فى مخازن سيد احمد فأرسل فى طلب السيد وإبراهيم، وأمرهما بأن يحملا الرجل من يديه وقدميه ويقذفان به خارج العزبة، تلك كانت المرة الأولى التي تستخدم فيها القوة فى حل خلاف

بين أهل العزبة الناشئة، وإذ رأى الكاتب المتمرد إبراهيم بجسده الهائل والسيد بتصميمه المحتدم قادمين فى اتجاهه أدرك ما يراد به وأطلق عقيرته ينادى سيد احمد لينقذه من أيديهما، لكن سيد احمد لم يخرج من داره، وكان منظر الأخوين إبراهيم والسيد وهما يحملان الكاتب ويلقيان به على الأرض خارج العزبة باعثا على تجمع الأطفال، ومثيرا لضحكاتهم الصغيرة التى لا تدرك حجم المشكلة التى تثيرها عملية الطرد القسرية.

الجدة مريم لم تكن بعيدة عن مجريات ما يدور، تماما مثلما كانت فى تلك الأيام القليلة التى تفاقم فيها الوضع واستفحل الخلاف بين الأخوين، ولما أرادت أن تتدخل لتضع حدا لما يجرى لم تجد إلا حورية وسرية لتجتمع بهما، ودت لو تستطيع أن تنفس عن كربها بالبكاء بين أيديهما، ولكنها تماسكت، فانهيارها لا يعنى إلا شيئا واحدا، هو انهيار العزبة بأكملها، وإذ كانت تدرك أن صبر موسى لم يعد فى قوسه منزع رجت أن تتدخل سرية وتلزم ابنها بالموافقة على التواجد فى الجلسة التى اقترحها أخوه، ولكن فى حضور أعيان المنطقة وليس بالاكتفاء بوجود الإخوة، فهى أول من تعلم أن أحفادها لا يمكنهم حل الخلاف، إذ يفترض فيمن يتدخل القدرة عند اللزوم على فرض الحل على الطرفين، وأحفادها لا يملكون فى مواجهة الأخوين أية قدرة على الفرض.

محاولات سرية باءت بالفشل، طلب منها سيد احمد أن تغلق باب الحديث فى أمر الخلاف بينه وبين أخيه، وتعجب من تحاملها عليه وانحيازها إلى موسى، وسألها متهكما إن كانت أمه بحق، وإن كان سليمان شقيقه بحق، وإن كانتا فاطمة وأم الرزق أختيه، وهددها إذا عادت لمثل ذلك

أن تصحو ذات صباح فلا تجده فى العزبة كلها، هو وزوجته وأولاده، واجتمع إليه أشقاؤه، سليمان وفاطمة وأم الرزق، لكنه كان حانقا بشدة، وكان يفهم الأمور على نحو يختلف عما يفعلون، فما فعله إبراهيم والسيد بكاتبه عبد العال داوود اعتداء سافر، أما علاقته مع الأعرابى الذى يستأجر القتلة للنيل من أخيه فلا يرى فيها أى اعتداء، واختصاص نفسه بعمل كاتب العزبة دون استشارة شركائه فى عمله لا يجب أن يغضب أحدا، وهذا بالضبط ما اضطرت أمه إلى أن تقوله له، أمام سليمان الذى جلس مطرقا إلى الأرض آسفا، وفى حضور الفتاتين، فاطمة التى لا تدرك مما يدور الشىء الكثير، وأم الرزق التى لا يعجبها فعل أخيها لكنها تحتفظ لنفسها بما ترى.

اضطرت الجدة مريم لأن تعلن غضبها من سيد احمد، الحفيد الذى كان يوما الأعز من بين الجميع، لم تدع مجالا للنعى على ما قام به إلا وفعلت، حتى صارت العزبة كلها بأهلها وعمالها لا حديث لها إلا ما قاله أو فعله، فلقد قررت أن تخوض الحرب حتى نهايتها، و لم يفت ذلك فى عضد سيد احمد، صعر خده ونظر إلى محاولات الجدة باستهانة أججت غضبها، وشيئا فشيئا صار يتحدث عن العزبة التى تريد الجدة أن تتحكم فى مصيرها مثلما فعلت ذات يوم، عندما أجبرت أهلها على قتل المملوك القديم، وتسببت فى خروجهم من بلدهم القديم وتشتيت أبناء عمها فى أصقاع الأرض، وعلى طول الطريق من سرس القديمة وحتى عزبة أبيه.

ذلك كان آخر الشوط بين الجدة وبين حفيدها، أدركت أنه سيصل بهم إلى حد الاحتراب، ورأت بعينى حدسها أن حالة الاحتراب تلوح بالفعل

فى الأفق، فلم تكن تتخيل أن يقدر أحد على فعل مثل ما فعل حفيدها، فلقد مارس تأثيره على الجميع إلى درجة أنهم جميعا، سليمان وزوجته وفاطمة وأم الرزق، فضلا عن أمه وزوجته وأطفاله اعتزلوا العزبة، وردا على هجوم الجدة امتنعوا عن التحدث إلى الباقين، ولما كانت زكية راغبة فى أن تضمن لابنها الوحيد عزوة تعضده وتشد من أزره ووجدتها فى سيد احمد فإنها دفعت بابنها فى اتجاه أخيه الغاضب، بدلا من أن تدفعه فى اتجاه موسى زوج ابنة أخيها، وكانت لعلاقتها بسرية تأثير كبير فى ذلك التوجه، وأصبحت العزبة ذات صباح على أحمد الضبع وهو يفعل كما يفعل سيد احمد وسليمان، فلقد امتنع عن التحدث إلى أحد من الفريق الآخر، بل وامتنع كما يفعل سيد احمد عن الذهاب إلى الدار القديمة لزيارة جدته.

استقطاب حاد حدث فى صفوف الأسرة المتناحرة، فالجدة التى أصابتها كلمات حفيدها بجرح غائر لم تستطع أن تمنع نفسها من البكاء، وبعد أن افرغت حزنها فى الدموع جمعت أحفادها من حولها، وحرصت على أن يجلس الأطفال بالقرب منها ليسمعوا كل الحكايات القديمة، من أول الركب القديم الذى قاده فى فجر يوم بعيد جدهم الأكبر سيد احمد "الأول" إلى "مصر" ليلحق ابنه موسى "الأول" بالجامع الأزهر، وحتى اللحظة التى اتهمها فيها حفيدها بالتحكم فى مصير الأسرة وتفريق شملها من جديد، وشددت على حكاية الخروج القديمة التى استند إليها سيد احمد وهو بصدد الهجوم عليها.

كلهم كانوا هناك، فى حجرة الجدات فى الدار القديمة، موسى وزوجته

وأبناؤه، وإبراهيم وزوجته وأبناؤه، والسـيد وزوجته، ومحمد الطوخى وزوجته وأبناؤه، وإسماعيل الطوخى الذى لم يكن قد تزوج بعد، فضلا عن حورية التى جلست غير بعيد، وعادت بذاكرتها إلى تلك الأيام البعيدة التى خرجوا فيها فى قلب الليل فرارا بأنفسهم من انتقام الوالى لما قتلوا المهتار القديم، تلك كانت المرة الأولى التى تجمع فيها الجدة مريم الأسرة من حولها لتقص عليهم كل الحكايات، ولتدلهم على الحقائق قبل أن تنطمس ويجترئ عليها المجترئون، من أبناء الأسرة أو من غيرهم، فأول اجتراء على حقائق تاريخ الأسرة جاءت من واحد من أبنائها، وهى لا تعرف إن كانت كلماته ستمضى مع الريح أم ستفرخ فى أدمغة الأحفاد حكايات شوهاء وأشباحا.

وهدأت الحرب، لكن حالة الاستقطاب ظلت قائمة، وأرسلت الجدة مريم فى طلب سرية فجاءت على استحياء، لكن محاولة رأب الصدع باءت من جديد بالفشل، فلقد تركت سرية كل شىء ولم تجد إلا هجوم الجدة على ابنها لتتحدث فيه، أما زكية فإنها ما أن جلست أمام الجدة حتى انخرطت فى البكاء، وقطعت ببكائها الطريق على محاولة إعادتها وابنها إلى صفوف الأسرة، وأخيرا فإن الجدة الحزينة جلست هناك فى ركن حجرتها ذات يوم وانخرطت فى البكاء، ومثل لها الأقدمون، جداها سيد احمد "الأول" وموسى "الأول" وعمها سيد احمد "الثانى وحبيبها وزوجها أحمد "الأول"، وجدتها الكبرى وعمتها الأم الخبيرة، ومن ورائهم وقف ابنها أحمد "الثانى"، وراحت تتحدث إليهم وتناجيهم، وتشكو لهم فعل

حفيدها الذى ظنته ذات يوم لحمة الأسرة، فإذا به هو الذى يفككها ويبدد شملها.

وأسقط فى يد موسى، فما ظن يوما أنه قادر على اجتيازه وقف قبالته عاجزا، وها هى الأسرة تنشطر إلى قسمين، لا يتحدث منهما أحد إلى أخيه ولا يرق قلب واحد إلى الآخر، ولو حدث ورق قلب إلى قلب فدونهما والتجاوز عما حدث عقبات حرص الطرفان على أن تظل قائمة، كان يعد العدة للهجوم على مضارب الأعرابى، هجوما حاسما يسحقه، أو يرجعه إلى تيه الصحراوات التى قدم منها، ولكنه لم يكن فى حال تسمح له بتقرير موعده ومناسبته، فالرجال الذين سيستعين بهم على أهبة الاستعداد، بنيرانهم وأسلحتهم وأعوانهم، وكل ما يعطى للعزبة نصرا مؤزرا، وكان على وشك الذهاب إلى أصدقاء أبيه ليضمن وقوفهم إلى جانبه إذا ما اتهمه الأعرابى بالتدبير للهجوم، ولكن تطورا مدهشا قلب التوقعات رأسا على عقب.

سليمان كان هو من قصد إلى جدته وانهى إليها رغبة أخيه فى إنهاء حالة العداء القائمة، ولكن بشرط واحد هو أن يتم الأمر فى حدود الأسرة وليس فى وجود أحد من خارجها، والجدة التى لم تصدق ما تسمعه اسرعت وأعطت حفيدها التعهد الذى يطلبه، وأرسلت من فورها تطلب موسى.

حالة من البكاء الحاد أصابت موسى، ولم تجد الجدة ما تفعله سوى أن تمسح على رأسه وتحرص على ألا يراه أحد، حتى إذا ما انتهى من

البكاء، وهدأت ثورة نفسه وجسده جلس إلى جوارها يسمع نصيحتها، في ذلك اليوم البعيد قالت الجدة إنها لا تعرف إن كان سيد احمد يقصد بما يقول صلحا أم أنها مناورة، وتباحثا حول ما يمكن أن يكون مقصده من وراء ذلك، و لم يجدا إلا أن ما يحدث هو مجرد رغبة في تهدئة الحال، وذلك بعد أن شاعت في المنطقة أنباء الخلاف الحاد والصراع المحتدم، وربما يكون سيد احمد قد وجد صدودا من قبل أصدقاء أبيه، الشيخ عزام والحاج سويلم والشيخ دسوقي، خاصة إذا ما كان الشيخ عزام هو صهر أخيه الأكبر موسى.

عاد الوئام إلى أركان الأسرة، لكن حالة من الجفاء ظلت عالقة في النفوس، وفي جلسة التصالح التي احتوتها الدار القديمة اكتفى موسى بما قاله سيد احمد في حضور الجميع، إذ بعد أن قبل رأس أخيه أعلن أن مساعدا السمداني - بما قام به من استهداف أخيه بالقتل - عدو له، وأنه يلتزم بقرار الأسرة فيما يتعلق بكيفية مواجهة ذلك العدوان، ورأى الجميع قبل أن ينخرطوا في البكاء، دموع سيد احمد وهي تجري فوق وجنتيه، وقامت سرية وقبلت رأس عمتها فبكت حورية بحرقة ألهبت حماس الجميع، وانخرطوا في البكاء إلى درجة دعت الأطفال لأن يلتصقوا بأمهاتهم خوفا من تلك الحالة التي أصابت الجميع.

وانقضى الصيف، خاضت العزبة حربها الكبيرة في جني القطن بعمال جاءوا هذه المرة من أولاد صقر والهجارسة وسنجها، وكما فعلوا في العام الماضي جهزوا مندرة الغيط لمبيت النساء وتناثر الرجال في الخارج، وكان عبد العال داوود قد عاد بناء على سعي سيد احمد لدى جدته، ورأى

موسى أنه لم يعد مقبولا فى العزبة على أى وجه من الوجوه، لكنها طلبت أن يتجاوز عن الأمر ويسمح بعودته، وهكذا عاد، وكان فى وقت الجنى يمسك حسابات الأنفار والخوّال، وكذا حسابات المتعهدين الذين يجلبون الأنفار من مختلف البلدان.

وكما فعل سيد احمد فى العام الماضى اشترى قطن أخوته بطريقة جديدة، إذ فرض له موسى ربحا معينا فى كل قنطار مقابل أن يحصلوا على الثمن الذى يبيع به القطن لمحلج بنايوتى، وكان سيد احمد قد توسع فى شراء الأقطان فى تلك السنة بصورة جعلته الذراع الأيمن للتاجر اليونانى الذى أغلق المنطقة على نفسه و لم يسمح بدخول أحد من التجار إليها، وقرب نهاية موسم الجنى امتلأت مخازن سيد احمد عن آخرها بمحصول ارضه وأراضى أخوته، ولكنه كان غارقا حتى أذنيه فى تحميل الأقطان التى اشتراها وتوصيلها إلى المحلج فى السنبلاوين، وقرب نهاية الموسم أفرغ المخازن من القطن وذهب به إلى المحلج أيضا، وغاب هناك هو وعبد العال داوود يوما أو يومين، ثم عاد بعد أن تحاسب مع الخواجة وقبض ثمن اقطانه، وتهيأ لتصفية الحساب مع أخوته.

زُرِعَت الأرض بالمحاصيل الشتوية، وعاد موسى إلى التفكير فى مهاجمة مضارب السمدانى، لكنه ليس مطلق السراح هذه المرة، إذ يجب عليه أن يستشير أخاه وإلا عادت الخلافات إلى الظهور، ولما لم يكن واثقا تماما من انقشاع غبار المعركة فإنه لجأ إلى جدته يستشيرها، كانت مستلقية ومعطية ظهرها للعزبة وأهلها، ولأنها كانت مدركة لكل ما تقوم به فضلت أن تحصر أسلافها فى ركن الغرفة وأن تناجيهم فى صمت،

فاتهامها بالخرف أو المس قد يقضى عليها هذه المرة، بعد أن تسبب اتهام سيد احمد لها بالتسبب فى خروج الأسرة من بلدهم القديم فى التزامها الحجرة وعدم الخروج منها إلا فى رحلة الذهاب اليومية إلى الكنيف، لمرة أو لمرتين فى اليوم، وعدا ذلك كانت تظل فى الحجرة طوال الوقت.

رأت أن ينسى موسى أمر الانتقام من الأعرابى، فلقد مر عام على ذهاب الصعيدى ويبدو أن مساعدا قد وعى الدرس، فها هى الدنيا تسير فى يسر، وها هى العزبة تعود إلى الكثير من وحدتها، وها هو سيد احمد لا يتحرك إلا فى مجال محسوب ولا يقدم على شيء يخالف إرادة إخوته، ويكفيه كل هذا، لأنه إذا اعترض سيد احمد على الهجوم فلن يمكنه القيام به إلا من وراء ظهره، وفى ذلك مخالفة للشروط الضمنية للصلح الذى جرى بينهما، ولكن الذى لم ترد الجدة مريم أن تقوله إنها لا تأمن إن أخبر سيد احمد بالهجوم أن ينقل السر إلى الأعرابى، فإذا كانت العلاقات بين سيد احمد ومساعد على ما يظهر لهم مقطوعة فلماذا يعمل على إعادتها؟!.

الشتاء كان فى بدايته، وعندما خرج موسى من لدن جدته كان موعد صلاة العصر قد اقترب، وبدلا من التوجه إلى أى مكان قصد إلى مصلاه ليصلى ركعتين، وينتظر صلاة العصر، برودة مقدم الشتاء كانت محسوسة إلى درجة دعته قبل أن يتوجه إلى المصلى ينادى على ابنه زكريا ليأتى بلفيته ليتدثر بها.

يحلو له أن يجلس قليلا بعد الصلاة وينظر فى اتجاه مضارب السمدانى، ومن مكانه وهو جالس فى المصلى يرى كل ما يدور هناك، مدخل الخيمة الكبرى التى يجلس فيها مساعد طوال اليوم أو أمامها، وغير بعيد من

المضارب كانوا يقيمون دارا كبيرة، وكانت لما تزل في طور البناء، وفيما هو يرصد حركة المضارب ويعيد التفكير في موضوع الهجوم خيل إليه أن الرجل الذي يقف هناك أمام الخيمة مع مساعد هو أخوه سيد احمد، وأمعن النظر فلم يجد إلا أنه هو، فالهيئة هيئته، والطول طوله، وكذلك الدفية التي يضعها على جسده، وأمعن النظر أكثر، لكنهما ولجا إلى داخل الخيمة، ولما كان العصر قد وجب فإنه ودون أن ينادي على السيد للأذان قام ليصلي بمفرده، وظل متابعا لما يجري عند مدخل المضارب حتى يتأكد من أن الموجود هناك هو أخوه.

فرغ من الصلاة ووجد أن ينادي السيد، ولما استبطأ قدومه عاد لينادي عليه، وجاء السيد يفرك عينيه، فلقد كان نائما، وأراد أن يؤذن للصلاة فأبلغه أن العصر وجب وأنه صلى بمفرده، وقام السيد ليصلي فطلب منه أن يخفف، لا يريد أن يفوته ما دعاه لأجله، قلبه يدق في غضب، فهو لم يشعر في حياته كلها بمثل ما يشعر به الآن، و لم يخدعه أحد مثلما خدعه أخوه، إن كان هو الجالس هناك في الخيمة الكبرى في قلب مضارب السمداني، وتمنى لو أن ما رآه ليس حقيقة، وأنه مجرد وهم، وأنه التبس عليه فرأى من رأى على هيئة أخيه، لكن قلبه الذي يدق في عنف ووجهه الذي يحتقن بالدم، ورأسه الذي يفور كأنه المرجل دفعوه إلى أن يمط رقبته في محاولة لرؤية أية حركة قد تصدر عن المتواجدين هناك في عمق الخيمة.

السيد انتهى من صلاته وجلس يختمها، يسبح ويحمد ويكبر على أنامله كما كان يفعل أبوه، وتعجب من هيئة موسى وهو متنمر ولا تنصرف عيناه عن متابعة المضارب، وإذ كان قد انتهى من ختام الصلاة

وموسى على وضعه المترقب اقترب منه وسأل:

- ماذا هناك؟.

لم يجبه، فلم يسمع ما قاله، لكنه أدرك أنه قال شيئا فاستفسر:

- ماذا؟!.

وأعاد السيد السؤال:

- ماذا هناك؟.

فأجاب وهو يواصل المتابعة:

- أنظر معى إلى مضارب السمدانى لتعرف إن كان الرجل الذى يجالسه فى الخيمة الكبرى هو أخوك سيد احمد.

وانعقد لسان السيد من الدهشة، لكنه استطاع بعد قليل أن يسأل:

- سيد احمد؟!.

فأجابه موسى:

- نعم، سيد احمد.

طال انتظارهما حتى مالت الشمس نحو الغروب، وخشى الرجلان أن يهبط الظلام فلا يستطيعا أن يتأكدا من أن الجالس هناك هو أخوهما، وبدأت الشمس فى السقوط عند حافة الأفق، وشاهدا حركة عند باب الخيمة، كان مساعد يسلم بيديه على أخيهما:

- نعم، هو سيد احمد.

هكذا انطلق السيد كبندقية معمرة، وهم بأن ينطلق ليقابله لكن موسى

أمسك به ليظل جالسا، وقال السيد:

– لكنه لم يكن بداخل الخيمة.

وتساءل موسى مندهشا:

– من؟!.

فأجاب:

– سيد احمد.

ولما لم يجبه موسى بشيء أردف:

– وإلا لكنا رأيناهما يخرجان من الخيمة.

الدنيا كانت تدور بموسى، وقدماه اللتان فقدتا الحركة أصابهما الخدر، فالوقت الذى قضاه سيد احمد فى ضيافة مساعد ينبئ عن أن علاقتهما لم تنقطع أبدا، فلقد أمضى هناك ساعتين أو أكثر، وهذا وقت يفضح صاحبه، إذ لو كان متسرعا ويتصرف تصرف اللصوص لقضى هناك وقتا قصيرا، أما أن يظل هناك كل هذا الوقت فذلك ينبئ عن أشياء كثيرة.

تابعاه وهو يدور مع جسر المصرف الفاصل بين أراضى العزبة وأراضى غريمهم، حتى أخذ وجهته إلى مندرة الغيط، ومن هناك عاد أدراجه فى اتجاه العزبة فكأنه قادم من الغيطان، كان معتمرا عمامة بيضاء فوق طاقية من الوبر، ويضع الدفية فوق جلباب من الصوف، ويرتدى فى قدميه نعلين من الجلد الأصفر، كان فى أبهى زينة، وعندما اقترب من العزبة تظاهر بمتابعة العمال وهم يدخلون الماشية والقطعان تمهيدا لمبيتها، وظل موسى والسيد جالسين فى المصلى ولكن دون أن يصليا المغرب، فلقد

خشيا إن هما قاما للصلاة أن يلج إلى داره ولا يراهما.

وأخيرا فإنه بعد أن تابع إدخال القطعان والماشية مر بالمصلى فوجدهما جالسين هناك، وألقى عليهما السلام فناداه موسى:

– أنت من سيقتلني لحساب مساعد بابن أبي.

ورفع سبابته في اتجاهه:

– وهذا فراق بيني وبينك.

تقول الحكايات إن سيد احمد الذى فوجئ بأن أخويه رصدا زيارته إلى مضارب السمداني اضطرب كثيرا قبل أن يقسم أن ما دفعه للدخول هناك هو عزة النفس لا غير، وانطلق يرى جدته الدفية التي سكب فيها فنجال القهوة الذى قدموه له، ولا يعرف أحد من الحكائين شيئا عما قالته الجدة مريم ردا على ما قال، كما ولا يعرفون كيف اتخذ موسى قراره الحاسم، وما إذا كان قراره ابن لحظته، أم أنه كان يفكر فيه من قبل، ولكن الذى لا يمكن التغافل عنه أن تلك الزيارات الغامضة التي قام بها من قبل لأصدقائه، سواء في ديرب نجم أو في البهو فريك، أو حتى في شبراهور، كانت تتعلق على نحو أو آخر بالقرار الذى اتخذه.

أسابيع عديدة عاشتها العزبة في أسى، يصبحون على أناس يرتدون ملابس غريبة يقيسون الأرض التي قالوا إن موسى باعها لبنك جديد يسمى بنك الأراضي، لم يكن أحد من المنطقة يملك من المال ما يستطيع أن يشترى به الثمانين فدانا نصيب موسى والسيد وحورية، فلقد ردوا للجدة مريم أرضها التي كانت تحت يد موسى، كما تركوا نصيب إبراهيم

الذى فضل أن يبقى فى المكان، فهو لا يعرف مكانا غيره، وكان موسى قد اشترى بالاشتراك مع صديقه حسن الكفراوى عزبة مساحتها مائة وعشرين فدانا بالقرب من ديرب، ودفع ثمنها بالفعل، ولكن الجدة مريم أبت إلا أن تحاول للمرة الأخيرة، فربما استطاعت أن تثنى حفيدها عن قراره:

– تبنى العزبة وتقاتل من أجل وجودها، ثم تكون أنت من يخرج منها؟!

أجابها والدموع تلتمع فى عينيه:

– أفضل من أن يقتلنى أخى أو أقتله

وقبل أن تفكر فى الحديث أردف:

– لإن يقولوا افترقوا خير من أن يقولوا قتل أحدهم أخاه

وفى ليلة غاب قمرها خلف السحب المنذرة بالمطر، حملت العربات ذات العجلات أثاثا وحشيات وأشياء كثيرة، وخرجت من العزبة التى لم يعرف الخارجون عنا حورية موطنا لهم إلا هى، وضع السيد الأطفال مع جدتهم حورية فوق إحدى العربات، ووضع نفسه بالكاد فى المقدمة، وأمسك بمقود الحصان، فيما امتطى موسى بغلته ونظر فى أركان العزبة كلها، كأنما يبحث عن أيامه وذكرياته، فى المكان الممتد من مصلاه عند المشارف وحتى الأجران التى تعقب الدار القديمة، ورنا بنظره فى الظلام حتى مندرة الغيط والخندق الكبير الذى أقامه هناك ذات يوم، وبدون أن يلحظ أحد مسح دمعتين تدحرجتا من عينيه، وأطرق الأطفال إلى الأرض،

فيما كتمت حوريه شهقة خرجت من صدرها كالنار، ومن خلف النوافذ وقفت النساء والصبايا يذرفن الدمع على فراق الأحباب، وأدار الرجال وجوههم ليمسحوا دموعهم، فيما أعطت الجدة مريم ظهرها للدنيا وانطلقت ولأول مرة بصوت مسموع تناجي الراحلين.

المنصورة في 2006/10/5

المؤلف في سـطور

أحمد صبري أبو الفتوح

- من مواليد محافظة الدقهلية في العام 1953.
- درس القانون في جامعة القاهرة، ثم عمل وكيلاً للنائب العام، وتدرج في مناصب القضاء حتى عمل رئيسًا للنيابة العامة، ثم استقال من القضاء وعمل بالمحاماة.
- حصلت روايته "ملحمة السراسوة" (الخروج) على جائزة ساويرس لكبار الأدباء في العام 2010.

صدر له:

1 - "طائر الشوك"، رواية، دار زويل، القاهرة 2000.

2 - "وفاة المعلم حنّا"، قصص قصيرة، دار ميريت، القاهرة 2002.

3 - "جمهورية الأرضين"، رواية، دار ميريت، القاهرة 2005.

4 - "ملحمة السراسوة" (الخروج)، رواية، دار ميريت، ط1: القاهرة 2009، ط2: 2010، ط3: 2010، ط4: 2011.

5 - "ملحمة السراسوة" (التكوين)، رواية، دار ميريت، القاهرة 2010.

6 - "ملحمة السراسوة" (أيام أخرى)، رواية، دار ميريت، القاهرة 2010.

البريد الإلكتروني:

ahmd_sbry@yahoo.com

ملحمة
السَّراسْوة
التكوين

" "ملحمة السرّاسْوة" رواية فاتنة، وكاتبها أحمد صبري أبو الفتوح أطار النوم من عينيّ بملحمته البديعة".

د. جابر عصفور

"أكاد أجزم أن رواية "ملحمة السرّاسْوة" سيكون لها شأن عظيم في تاريخ الأدب العربي".

أ. خيري شلبي

"نحن أمام رواية تروي عن الخوف العظيم والمطامع العظيمة، ماذا يفعلان بالناس وماذا يفعل الناس في ظلهما؟ لقد أدرك السرّاسْوة بعد قتل المملوك "قُفل" والخروج من جنتهم في سرس القديمة ثم صراعهم مع الأعرابي الجبّار في مستقرهم الجديد أن المكان البعيد الآمن الذي كانوا يحلمون بالوصول إليه لن يكون أبدًا مكانًا في الجغرافيا أو زمانًا في التاريخ، بل سيكون دائمًا مكانًا في العقل، منحىً في التفكير، رؤية للحياة قادرة على أن تكشف نقاط الضعف عند القوي ونقاط القوة عند الضعيف، دائمًا تعتمد الذكاء والبصيرة والخيال والصبر".

أ. أبو المعاطي أبو النجا

"إن وقفة متأنية بصدد رواية "ملحمة السرّاسْوة" تفصح عن معالجة مقتدرة لروائي فذ وموهوب ساوق بين معارفه العريضة العميقة وبين حرفية فنية نادرة لإنجاز ملحمة، بحق، خليقة بأن تكون منعطفًا في تاريخ القص العربي المعاصر".

د. محمود إسماعيل

"حين يتحمس أحدهم لكتاب يقرأه في نفس واحد، لكن رواية "ملحمة السرّاسْوة" تلتهم قارئها، هذا عمل يعمد صاحبه، ويعبد له طريقًا سالكة، إذ تجلو ملحمته الممتعة موهبته وتظهر طاقته التي لا تباري وإخلاصه الكبير الذي يحفظ على الأدب قدره".

أ. أسامة الرحيمي

الغلاف: بسمة صلاح

9 789774 901481

دار العين للنشر
Elain Publishing House